

رموند اچیل

تاریخ الفرنجة غزاة بيت المقدس

نقله الى الإنجليزيتة مع مقدمة وهوامش

جون هيوج هيل لوريتا هيل

جامعة هوستون

نقله الى العربية وعلق عليه

دكتور

حسين محمد عطية

كلية الآداب - جامعة طنطا

تقديم

الأستاذ الدكتور

عز الدين شمس يوسف

أستاذ تاريخ العصر الوسيط

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الطبعة الأولى

١٩٩٠

دار المعرفة الجامعية

٤٠ ش بولس - الإسكندرية

٤٨٣٠١٦٣

RAYMOND D'AGUILERS

Historia Francorum Qui

Seperunt Iherosalem

Translated Into English With Introduction And Notes

BY

JOHN HUG HILL AND LAURITA L. HILL

UNIVERSITY OF HOUSTON

Translated Into Arabic and Annotated

BY

Dr. Hussein M. Attiya

Tanta University - Faculty Of Arts

Foreword By

Prof. Jousef Nassim Yousef



Bibliotheca Alexandrina



0392955

رموند اچیل
تاریخ الفرینجة غزاة بیت المقدس



نكوندا چيل

تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس

نقله الى الإنجليزية مع مقدمة وهوامش

جون هيويم هيل لوريتا هيل

جامعة هوستون

نقله الى العربية وعلق عليه

دكتور

حسين محمد عطية

كلية الآداب - جامعة طنطا

تقديم

الأستاذ الدكتور

عوزيف شيم يوسف

أستاذ قاصح العصر الوسيط

كلية الآداب - جامعة القاهرة



المفتدين

دار المعرفة الجامعية

ع. ش. سوتير - إسكندرية

ت. ١٦٢٣ - ٢٨٢

إهداء

إلى : أبي وأمي

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور

جوزيف نسيم يوسف

صاحب بداية الحركة الصليبية في أواخر القرن الحادى عشر الميلادى تطور فن الكتابة التاريخية في الغرب الأوروبى ، إذ لم يقتصر التدوين على نظام الحوليات الذى كان سائدا من قبل ، بل تحول إلى الكتابة تفصيلا فى مواضيع متخصصة . ولقد خلقت تلك الحركة التى شغلت ثلاثة قرون من الزمان ، عشرات المصادر لمؤرخين شاهدوا أحداثها أو كانوا على مقربة من مسرح الأحداث . وكانت الحملة الصليبية الأولى أوفر حظا من غيرها . إذ شارك فيها كثير من الفرسان الذين كانوا شهود عيان لمعظم المعارك التى دارت رحاها فوق رقعة الشرق الأدنى الإسلامى مثل المؤرخ المجهول الذى صاحب بوهيموند النورماندى فى الحملة ، وفوشيه دى شارتر Foucher de Charters ، واتين دى بلوا Etienne de Blois ، والبرت دكس Albert d'Aix ، وريمون داجيل Raimond d'Agiles وثمة عدد غير قليل ممن لم يشتركوا فيها ، ولكنهم حفظوا لنا أخبارها التى كانت ترد إليهم فى الغرب عن طريق الرواة والحجاج وشهود العيان فى كتب لا تزال باقية إلى اليوم مثل مؤلفات روبرت الراهب Robert le Moine ، وجيبرت دى نوجان Guibert de Nogent ، وتيديبوده Tudebodus ، ويودرى دى بورجى Baudri de Bourgueil ، وراول دى كان Raoul de Caen ، وكفارو الجنوى Caffaro de Caschifelone .

ويحتل مؤلف ريمون داجيل الذى وضعه باللاتينية بعنوان "Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem" ، أى « تاريخ الفرنجة الذين استولوا على بيت المقدس » ، مكانة مميزة بين مؤلفات غيره من مؤرخى الحملة الأولى . لقد عاصر أحداثها ، وكان شاهد عيان لها ، ويعتبر من أوائل من كتبوا عنها . كان من كبار الفرسان المقرين إلى ريمون دى سان جيل كونت تولوز وأحد زعماء الحملة الأولى . كما كان على علم بما يدور فى مجالس الحرب التى عقدها زعماء

تلك الحملة ، الأمر الذى يضى على كتابه أهمية خاصة تجعله لا يقل فى قيمته عن تأليف زملائه ممن شاركوا فيها وكتبوا عنها .

ولما كان ريمون داجيل محدود الثقافة والتعليم فقد وضع كتابه بلغة لاتينية ركيكة . والمتصفح للكتاب يلاحظ أن مؤلفه كان يتردد أحيانا فى سرد بعض الأحداث حتى لا يقع فى أخطاء - كما قال هو عن نفسه - قد تقلل من قيمة الكتاب . وإن كان هذا لا يمنع من أنه فى بعض الأحيان كان يتقبل ما يروى له أو ما يسمعه كحقيقة ثابتة . أما الوقائع التى كان شاهد عيان لها أو التى شارك فيها بشخصه ، فقد اتسمت عموما بالدقة والوضوح والإسهاب . وإن كانت عاطفته الدينية - بالإضافة إلى كونه من رجال الدين - تجعله يتخذ فى كثير من المواقف جانب التحيز لبنى جنسه من اللاتين الكاثوليك ضد كل من المسلمين والبيزنطيين الأرثوذكس وإمبراطورهم الكسيس الأول كرمين ، الذين كانوا فى نظر الكنيسة الرومانية ذوى عقيدة متطرفة . كما أن المدقق فى الكتاب يدرك أن مؤلفه كان يدافع عن سيده وينتحل له مختلف الأعذار إذا أخطأ أو تهاون فى أمر من الأمور . وبلغ من احترامه له أنه عندما كان يتعرض له يكتفى فى معظم الأحيان بقوله « الكونت » دون حاجة إلى ذكر إسمه . فهو فى نظره غنى عن التعريف . ورغم كل ذلك ، لا لوم عليه ، فقد كانت تلك هى سمة العصر فى الغرب اللاتينى . إذ اهتم المؤرخون اللاتين بصفة عامة بتمجيد الملوك والأمراء من قادة تلك الحملات ، واتصفوا بتحيزهم لبنى جلدتهم من أهل الغرب . واتسمت كتاباتهم بسمة دينية واضحة اختلط فيها السحر بالدين والأسطورة بالحقيقة لفصل بين النقيضين سوى خيط رفيع ، الأمر الذى يفرض على الدارسين والباحثين توخي الحيلة والحذر عند تناولهم لهذه المؤلفات . ومع ذلك ، يجب أن نسجل هنا أن ريمون داجيل حفظ لنا فى مؤلفه الكثير من الوقائع والأحداث المتعلقة بالحملة الأولى والتى إنفرد بها ولم ترد فى الأصول الأخرى من لاتينية وعربية وبيزنطية وأرمينية وسريانية ، الأمر الذى يسبغ على الكتاب أهمية مضاعفة .

ومؤلف ريمون داجيل منشور فى الجزء الأول من مجموعة بونجار Bongars

المعروفة باسم « الأعمال التى أتاها الفرنجة بفضل الله » ص ١٣٢ - ١٨٣ (طبع هانوفر ١٦١٢) ، وفى الجزء الثالث من مجموعة « مؤرخى الحروب الصليبية - المؤرخون الغربيون » ص ٢٣١ - ٣٠٩ (طبع باريس ١٨٦٦) . وقد قام بنقل هذا الكتاب من الأصل اللاتينى إلى اللغة الإنجليزية كل من جون هيو هيل John Huge Hill ولوريتا ل. هيل Laurita L. Hill تحت اسم "History of the Franks Conquerers of Jerusalem" أى « تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس » ، طبع فيلادلفيا سنة ١٩٦٨ .

وبعد ، يسعدنى حقيقة أن أقدم للقارىء العربى الكريم الترجمة العربية لهذا المصدر الهام ، والتى أعدها أحد شبابنا النابهين عن الترجمة الإنجليزية للأصل اللاتينى ، وهو الدكتور حسين محمد عطية حسن مدرس تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة طنطا . والدكتور حسين عطية عشق تخصصه ونبغ فيه . وإن إقدامه بشجاعة على نقل هذا المصدر إلى العربية للمرة الأولى يعتبر إضافة لها وزنها إلى مكتبة تاريخ الحروب الصليبية بصفة خاصة وتاريخ العلاقات بين الشرق والغرب بوجه عام .

لقد مهد المترجم لكتاب ريمون داجيل بمقدمة متعمقة تعتبر بحثا فى حد ذاتها ، كشف فيها عن أهمية الكتاب من الناحية التاريخية ، وسبب اختياره لهذا المؤلف بالذات دون غيره من مؤلفات الحملة الأولى لينقله إلى العربية . كذلك حالفه التوفيق فى عرض الظروف التى أحاطت بقيام الحملة فى الشرق والغرب ، والقوى التى أدت دورها فوق مسرح الأحداث وقتها من صليبية وبيزنطية وإسلامية ، وبيّين كيف تصارعت تلك القوى وتشابكت وتداخلت فيما بينها ، وكيف تحكمت فى سلوكها وتصرفاتها مصالحها الخاصة أولا وقبل أى شئ آخر . كذلك قدّم دراسة تحليلية نقدية مقارنة بين مؤرخى الحملة من شهود العيان وغيرهم من المعاصرين والمتأخرين نسبيا عن أحداثها من اللاتين والبيزنطيين والمسلمين تتميز بالدقة والعمق . واختتم مقدمته بدراسة طيبة عن ريمون داجيل ومؤلفه أجاب فيها بحيدة وفهم وموضوعية ورؤية صافية عن كثير من علامات

الاستفهام التى ثارت حول موقف المؤرخ عن سيده ريمون دى سان جيل وحيال كل من الصليبيين والبيزنطيين والمسلمين ، وخلص من ذلك إلى رسم صورة دقيقة لشخصية المؤرخ ومنهجه فى الكتابة وأسلوب عرضه لأحداث ذلك الزمان .

وأخيرا وليس بآخر ، فإن المتعمق فى هوامش الترجمة العربية سوف يدرك أنها عالجت العديد من القضايا الهامة التى أثارها ريمون داجيل فى كتابه وأغفلتها الترجمة الانجليزية أو مرت عليها مرورا سريعا ، بينما تناولها الدكتور حسين عطية بالدراسة والتمحيص موثقا إياها بالمصادر والمراجع المتخصصة من عربية وغير عربية .

لكل ما تقدم تعتبر هذه الترجمة التى بين أيدينا بالدراسة التى تسبقها والهوامش التى ذيلها بها الدكتور حسين عطية إضافة لها ثقلها إلى المكتبة العربية لتاريخ الحروب الصليبية .

دكتور جوزيف نسيم يوسف

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

تحريراً فى ١٦ أكتوبر ١٩٨٩

تصدير الترجمة العربية

منذ أكثر من عشر سنوات مضت ، وخلال قياسي بإعداد بحثي لنيل درجة الماجستير عن « إمارة أنطاكية الصليبية وعلاقاتها السياسية بالدول الإسلامية المجاورة (١٠٩٨ - ١١٧١ م) » ، وتعاملت مع الأعمال التاريخية التي وضعها مؤرخو الحملة الصليبية الأولى ، ومن بينها تاريخ ريمونداجيل ، شعرت بأن هناك ما يميز الأخير عما سواه من مصادر هذه الحملة . ولكنى - كمبتدىء - لم أدرك من طبيعة هذا التميز إلا القليل . وخلال إقامتي في المملكة المتحدة ، في بعثة إشراف مشترك (بجامعة ويلز) ، لإعداد بحثي لنيل درجة الدكتوراه عن « إمارة أنطاكية الصليبية وعلاقاتها السياسية بالقوى الإسلامية المجاورة (١١٧١ - ١٢٦٨ م) » ، استكمالاً لموضوع الماجستير ، وتحت إشراف كل من أستاذي الدكتور جوزيف نسيم يوسف أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الاسكندرية وأستاذي الدكتور بيتر وليام إدبوري Peter W. Edbury أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة ويلز ، تجدد شعوري السابق نحو تاريخ ريمونداجيل . إلا أن الفرصة كانت أمامي كبيرة لأدرك ما يشغلني حول هذا التاريخ ، خاصة عندما حصلت على الترجمة الانجليزية لهذا العمل ، والتي نشرها الأمريكيان جون هيوغ هيل والسيدة قرينته لوريتا هيل في عام ١٩٦٨ م . وعكفت على قراءة هذه الترجمة ومقارنتها بالنص اللاتيني المنشور في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية (RHC-H. Occ.) . ودفعني إلى نقل هذه الترجمة إلى لغتنا العربية عدة أسباب . أولها أن الترجمة الانجليزية اعتمدت على المخطوط الكامل لتاريخ ريمونداجيل . إلى جانب قيام الناشرين بمقارنة ماورد في هذا المخطوط بكل النسخ المخطوطة المتوفرة لتاريخ ريمونداجيل ، بما في ذلك النسخة المنشورة في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية والنسخة التي نشرها بونجار في مجموعته . وبذلك توفر للترجمة الانجليزية الإلمام بكل ما سجل من تاريخ ريمونداجيل .

يضاف إلى ذلك ، أنه منذ نشر جاك بونجار J. Bongars كتاب ريمونداجيل

ضمن ما نشره من مصادر تاريخ الحروب الصليبية في مجموعته « أعمال الرب التي تمت بأيدي الفرنجة » Gesta Dei per Francos منذ ما يزيد على قرن من الزمان ، فإن تاريخ ريمونداجيل مازال في حاجة إلى دراسة نقدية جديدة ^(١) .

ولاشك أن الدراسة السابقة التي قام بها الناشران عن شخصية ريموند الرابع كونت تولوز ، إلى جانب دراستهما الدقيقة لفكر ريمونداجيل وثقافته الدينية ، قد مكنتهما من الإلمام بكل جوانب شخصية المؤرخ وتكوينها الفكري .

وبالرغم من ذلك ، فقد مرت الترجمة الإنجليزية على بعض القضايا التاريخية الهامة ، التي أثارها تاريخ ريمونداجيل ، مرور الكرام ، دون التعرض لها ، أو الادلاء فيها برأي قاطع . واقتصرت الترجمة في ذلك - وربما ارتباطا بمهمة ترجمة النص فقط - على نقل النص اللاتيني إلى الإنجليزية . الأمر الذي لا يجعل من مهمة الناشرين نهاية المطاف بالنسبة لتاريخ ريمونداجيل ، والذي ترك لى فرصة معالجة هذه القضايا في هوامش منفصلة أحيانا ، أو ترتبط بهوامش الترجمة الإنجليزية في بعض الأحيان .

والى جانب ذلك ، فقد أسعدنى أن أقدم لقراء العربية الكرام ، وللباحثين في تاريخ الحروب الصليبية ، فى وطننا العربى ، كتاب ريمونداجيل - لأول مرة - باللغة العربية .

ولم يكن يتيسر لى ذلك لولا التعاون الصادق ، والتوجيه المشر ، والتشجيع الدائم ، الذى أولانى إياه أستاذى الجليل الأستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف ، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الاسكندرية ، الذى شجعنى على إنجاز هذه الترجمة ، وأفادنى كثيرا بما أمدنى به من توجيهات أضافت قيمة كبيرة إلى هذا العمل .

J. Richard., Raymond d'Aguilers, Historien de La Première Croisade, JS, (١)

1971, pp. 206.

وكان لما قدمه لى أستاذى الدكتور بيتر وليام إديبورى أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة ويلز من إرشاد وتوجيه أثر كبير فى معالجة الكثير من قضايا هذا العمل .

ولا يسعنى إلا أن أسجل شكرى وامتنانى لهذين العالمين الجليلين اللذين كان لتوجيهاتهما دور كبير فى خروج هذا العمل إلى حيز الوجود ، وهو ما كان مبلغى من العلم ، وأسأل الله العلى القدير أن ينفع به أمتنا الاسلامية ، والله ولى التوفيق .

الاسكندرية

سبتمبر ١٩٨٩ م

حسين عطية

مقدمة الترجمة العربية

الحملة الصليبية الأولى :

تشكل الحركة الصليبية ظاهرة من أعم مظاهر العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى . فهي أول وأقصى رد فعل للغرب المسيحي ضد العالم الإسلامي منذ ظهور الإسلام . وكان لهذه الحركة وما ترتب عليها من نتائج ، آثار بالغة الأهمية على العالمين المتصارعين ، الشرق والغرب . ولما جذبت الحركة الصليبية أطرافاً متعددة للصراع ، وارتبطت أحداثها ، التي وقعت في بلاد الشام ، بالتغيرات الدولية آنذاك ، ويظهر قوى واختفاء قوى أخرى شاركت بشكل مباشر أو غير مباشر في مسار هذه الحركة ، وفي تحديد طبيعة نتائجها ، فإن ماتم حولها من أبحاث تاريخية ، لم يحتو على كل جوانبها . كما لم يكتب فيها القول الفصل بعد . فما زال موضوع الحروب الصليبية يمثل مجالاً خصبا للبحث التاريخي . وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للحركة الصليبية بصفة عامة ، فإن تاريخ الحملة الصليبية الأولى بصفة خاصة ، وما طرأ عليها - كمشروع بابوي بالدرجة الأولى - من تطورات ، لم تكن في مخيلة البابوية ، ولا من قادوا هذه الحملة إلى بلاد الشام أصلاً ، يحتمل بحوثاً واسعة تجمع بين العلم بأصوله ومنابعه ، الشرقية والغربية على قدم المساواة ، سعياً وراء الحقيقة التاريخية المطلقة ^(١) .

فقد كانت الحملة الصليبية الأولى التي قام بها غرب أوروبا ، استجابة لدعوة البابا أوربان الثاني Urban II (١٠٨٨ - ١٠٩٩ م) في مؤتمر كلير مونت الكنسي (١٨ - ٢٨ نوفمبر ١٠٩٥ م) هي البداية الحقيقية للحركة الصليبية . وإذا كانت هذه الحركة في مجملها تعد مشروعاً فاشلاً ^(٢) ، فإن الحملة

(١) جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى ، الاسكندرية ، ١٩٨٩ (الطبعة الثالثة) ، ص ١ .

(٢) Peter Charanis, Aims of the medieval Crusades and how they were viewed

By Byzantium, C. H, 21, 1952, p. 131.

الصليبية الأولى ، بما حقته من إنجازات عسكرية فى فترة زمنية قياسية ، تعد أكثر الحملات الصليبية نجاحاً ^(١) .

فمن الناحية العملية نجحت هذه الحملة فى تحقيق أهم الأهداف التي حددتها لها البابوية ، واستولى الصليبيون على مدينة بيت المقدس من المسلمين . ولأن الباب أوربان الثانى لم يشر ، فى خطبته فى كليرمونت ، إلى مصير فتوحات المستقبل ، فقد بدت الثروات التي وعد بها هذا البابا هؤلاء الذين سيتوجهون إلى الشرق ، وكأنها أسلاب أكثر منها أملاك ^(٢) . وتعدت الحملة هدفها المنشود . فأسس الصليبيون إمارة أنطاكية على مشارف بلاد الشام ، وأقاموا كونتية الرها على ضفاف الفرات ، ووضعوا النواة الأولى لكونتية طرابلس فى وسط بلاد الشام ، وفى فلسطين ، أقاموا مملكة بيت المقدس الصليبية .

(١) بينما فشلت الحملة الصليبية الثانية فى استرداد الرها ، أو فى وقف تقدم نور الدين محمود والخطر الإسلامى المحدث بالصليبيين فى بلاد الشام ، فقد فشلت الحملة الثالثة فى استرداد مدينة بيت المقدس من أيدي صلاح الدين . وكانت عكا هى الهدف الأساسى للحملة . بينما أصبح دور ريتشارد ينحصر فى تحكيم مشكلة حكم المملكة الصليبية أكثر من تحرير المدينة المقدسة ذاتها . وجاءت الحملة الرابعة لتوفر لمن قاموا بها فرصة الثأر من بيزنطة ، ولم تحقق لفرنج الشام أية مكاسب . وكانت مصر هى هدف الحملتين الخامسة والسابعة . وفشلت كلاهما فى فتح مصر ، وفشلت كلاهما أيضاً فى استعادة بيت المقدس . أما الحملة السادسة ، فبالرغم من نجاح فريدريك الثانى فى تحقيق ما فشل فيه غيره من قادة الحملات الصليبية - استعادة بيت المقدس - إلا أن حملته قد بثت بذور الحرب الأهلية بين فرنج الشام ، الأمر الذى أضعف الجبهة الصليبية طيلة العقود الثلاثة الباقية من عمر الكيان الصليبي فى ديار الإسلام . انظر :

John La Monte, From Crusading Kingdom to Commercial Colony, BPIASA, 111, 1944, PP. 288 - 299.

J. Prawer, The Latin Kingdom of Jerusalem, Jerusalem, 1972, p. 34. (٢)

وربما يبدو . للوهلة الأولى . للمتتبع لتاريخ الحملة الصليبية الأولى أن الفرنج قد نجحوا في تحقيق الأهداف التي حددتها البابوية لهذه الحملة فاستردوا الأراضي المقدسة من المسلمين ومدوا يد المساعدة لإخوانهم مسيحيي الشرق البيزنطيين - بما ينبىء عن رأب للصدع الذي أصاب العلاقات بين الكنيستين الشرقية - كنيسة القسطنطينية - والغربية . كنيسة روما - وبذلك يكون الصليبيون قد فازوا بالغفران الذي وعدهم به البابا ، وفازوا لأنفسهم - القادة بإقطاعات خاصة بهم في الشرق - والعامة - بأسلاب المسلمين - والجميع بالوفاء بنذرهم الصليبي بزيارة الأماكن المقدسة ^(١)

إلا أنه بالتمعن في دقائق أحداث الحملة الصليبية الأولى ، والعلاقات التي سادت بينهم وبين الإمبراطور البيزنطي ألكسيس كومنين ، ثم بينهم بعضهم البعض ، يتضح أن إنجازات الحملة الأولى لم تكن تحمل في طياتها إلا بذور الضعف والإنقسام . ففي القسطنطينية ، كان الشك والريبة هما السمات الغالبة على العلاقات بين الإمبراطور وقادة الحملة ، الذين لم تترك قواتهم سوى الذكريات المؤلمة لدى رعايا الإمبراطور ، على طول الطريق من دورازو وحتى القسطنطينية ^(٢) ولم تكن طموحات غالبية قادة الحملة تسمح لهم بالالتزام ببنود إتفاقية القسطنطينية (مايو ٩٧٠ ، م ١) ^(٣) . وخارج أسوار أنطاكية ، ظهرت كوامن بوهيمند

(١) Dana Munro, The speech of Pope Urban II at Clermont, 1095, AHR, XI,

1905 1906, pp 231 242

(٢) Steven Runciman, The First Crusaders Journey across The Balkan Peninsula,

B 18, 1948, pp 207 221

(٣) لم يكن الإمبراطور البيزنطي ليستطيع استرداد أملاكه التي استولى عليها السلاجقة من

قبل في آسيا الصغرى إلا بالتحايل على الفرنج كما حدث في بيقية أو لعدم موافقة

مدن آسيا الصغرى لمطامع الفرنج وعن بنود اتفاقية القسطنطينية انظر جوريف

سيم العرب والروم ص ٢٢٢

النورماندى ، وغلبت عليه خصاله وكراهيته لبيزنطة ، وكل ما ورثه عن أبيه روبرت جويسكارد ^(١) . وحين سقطت أنطاكية فى أيدي اللاتين ، بدأ بوهيمند يتصرف كسيد أوحدها ^(٢) . محظما دون أن يدري ، بآمال البابا أوربان الثانى فى إمكانية احتواء كنيسة القسطنطينية ، أو اكتساب ولاء الامبراطور البيزنطى لبابا روما ^(٣) . وعند هذه النقطة - خارج أسوار أنطاكية - سادت الأحقاد المكبوتة بين قادة الحملة ، وكانت خطرا يماثل الخطر الإسلامى ، وتبع ذلك ، الإفلاس الأخلاقى ، وانحلال الجيش الصليبي ^(٤) . وكشفت العلاقات بين قادة الحملة عن المعنى الحقيقى للحركة الصليبية . فكثيرا ماتوا فى الدين أمام المصالح الخاصة بالنبل ، وتأكد الحرص على المصالح الخاصة دون الصالح الصليبي العام ، الذى ظهرت بوادره بمجرد انتهاء الفرنج من أعباء عبور آسيا الصغرى ^(٥) . ورحل القادة عن أنطاكية

(١) George Ostrogorsky, History of the Byzantine State, English trans. by Joan Hussey, Oxford, 1956, pp. 322.

(٢) عقد بوهيمند مع الجنوية إتفاقية ١٤ يوليو ١٠٩٨ م / ١١ شعبان ٤٩٢ هـ ، منحهم بقتضائها إمتيازات كبيرة فى أنطاكية ، نظير مساعدتهم له فى الدفاع عنها ضد منافسيه . انظر :

H. Hagenmeyer, ed., Duie Kreuzzugsbriefe : Epistolae et Chartae ad historiam. primi belli Spectantes, Insbruck, 1901, pp. 155 - 160.

راجع أيضا الترجمة العربية للعهد المتبادلة بين بوهيمند والجنوية . انظر : حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية وعلاقاتها بالدول الإسلامية المجاورة (١٠٩٨ - ١١٧١ م) . رسالة ماجستير لم تنشر بعد ، الاسكندرية ، ١٩٨١ م ، ملحق رقم ٣ ، ص ٣٠٢-٣٠٥ .

(٣) Bernard Hamilton, The Latin Church in the Crusader States, London, 1980, p. 17.

(٤) J. Brawer, op. cit., p. 14.

(٥) تخلى كل من تنكريد وبولدين عن الحملة ، وانفصلا عن الجيش الصليبي ، وراح الأول ، يبحث لنفسه عن وضع متميز فى سهل قيليقية ، بينما قام الثانى بنفس المحاولة على ضفاف الفرات . وللمزيد عن حملة بولدين وتنكريد على الرها وقيليقية ، انظر :

Fulcher of Chartres, Gesta Francorum Iherusalem (ed. by Frances Rita Ragan, as A History of the Expedition to Jerusalem), Tennessee, 1969, pp. 88 - 92, Radulf of Caen, Gesta Tancredi, RHC-H. Occ., III, pp. 629-649.

- ما عدا بوهيمند - وأغاروا علي بلاد المسلمين ، كل يحاول أن ينال منطقة لنفسه . وكانت الحملة الصليبية علي وشك التفكك . وبقي الجيش الصليبي في شمال الشام مسائرا للظروف ، ويميز نصف العام الذي قضاء الصليبيون هناك ^(١) التحلل من الإلتزام المسيحي . وبدا وكأن أرض الميعاد تقع علي ضفاف نهر العاصي ، وليست في بيت المقدس ^(٢) . وثبت أن الحركة الصليبية في معناها الدقيق - بالنسبة لقادة الحملة الأولى - لم تكن إلا مشروعا يخص البابوية وحدها ، وأن الرحلة إلى الشرق لم تكن فقط من أجل المدينة المقدسة Sancta Cuitas وحدها ^(٣) .

ولم يدرك الفرنج أن كل إنجازاتهم ، لم تكن ترجع إلى شجاعة تميزوا بها عن المسلمين ، أو إلى فتون الحرب والقتال التي اتبعوها ، وإنما إلى ضعف المقاومة الإسلامية التي واجهتهم ، وماساد الصف الإسلامي من إنشقاق ^(٤) . وارتكنت

(١) تمكن الصليبيون من التصدي لمحاولة كربوغا - أتابك الموصل - الفاشلة لانقاذ أنطاكية . وتأكد استيلاؤهم على أنطاكية في ٢٨ يولية ١٠٩٨ م / ٢٦ رجب ٤٩٢ هـ . وتحركت قوات كونت تولوز عن معرة النعمان في طريقها إلى بيت المقدس في ١٣ يناير ١٠٩٩ م / ١٧ صفر ٤٩٣ هـ . انظر : ابن القلائسي : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت (مطبعة الآباء اليسوعيين) ١٩٠٨ م ، ص ١٤٣ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ١٢ ج ، القاهرة (الطبعة الأزهرية) ١٣٠١ هـ ، ج ١ ، ص ١١٥ ، ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، ٣ ج ، تحقيق سامي الدهان ، دمشق ، ١٩٥١ م ، ج ٢ ، ص ١٤٣ . راجع أيضا : Anonymi, Gesta Francorum et Aliorum Hierosolymitanorum, ed. by Rosalind Hill as The Deeds of The Franks and The Other Pilgrims to Jerusalem, London, 1962, p. 69.

Prawer, op. cit., p. 14. (٢)

Ordric Vitalis, Historia Ecclesiastica, ed. and trans. by M. Chibnal, 6 Vols, (٣) Oxford, 1969 - 1978, Vol. 5, p. 6.

C.W.C. Oman, A History of the Art of War in the Middle Ages, 2 Vols, (٤) London, 1924, Vol. 1, p. 233.

القوى الصليبية في بلاد الشام ، وفي أوروبا ، على دوام هذا الحال ، دون اعتبار لأي احتمال بأن تقوم جبهة إسلامية موحدة في يوم ما . فانشغلت أوروبا - بالصراع بين البابوية والامبراطورية - عن ركائزها في بلاد الشام ، بالرغم من تلاحق الاستغاثات التي بعث بها قادة فرنج الشام إلى حكام الغرب الأوربي دون طائل^(١) ، حتي أطاح صلاح الدين الأيوبي بجهد ما يقرب من مائة عام على الجبهة الصليبية ، وينمط الحياة Modus Vivendi الذي توصل إليه الصليبيون في بلاد الشام^(٢) .

وإذا كانت مملكة بيت المقدس قد سقطت على أيدي صلاح الدين ، فقد كان ذلك لأن صلاح الدين قد أدرك ما لم يدركه الصليبيون من قبل . وعرف أنه من الممكن توجيه ضربة ساحقة تؤدي بالكيان الصليبي بسهولة ، إذا ما توحدت القوى الإسلامية . كما أدرك الرجل أن الجبهة الصليبية متصدعة ، ومن السهل تقويضها ، بمثل السهولة التي استرد بها زنكي مدينة الرها من الفرنج وقضى على الوجود الصليبي في أعالي الفرات في ١١٤٤ م / ٥٣٩ هـ . فقد كانت العوامل التي مكنت فرنج الحملة الأولى من تحقيق انجازاتهم ، هي التي مكنت زنكي من

(١) توالى رسائل الاستغاثة التي بعث بها كل من عموري الأول ملك بيت المقدس (١١٦٢ - ١١٧٤ م) ورينودي شاتيون أمير أنطاكية (١١٥٣ - ١١٦٠ م) ويوهيمند الثالث (١١٦٣ - ١٢٠١ م) وإيمري دي ليموج بطريرك أنطاكية اللاتيني (١١٤٠ - ١١٩٣ م) وبرتاند بلاكفورت مقدم الداوية (١١٥٦ - ١١٦٨ م) على بلاط الملك الفرنسي لويس السابع (١١٣٧ - ١١٨٠ م) طلبا للمعون ضد خطر نور الدين محمود المحدث بالإمارات الصليبية . انظر

Epistolarum Regis Ludovici VII, RHGF, 16, pp. 27 - 28, 39 - 40, 52 -

53, 55 - 60. 61 - 62.

راجع أيضا الترجمة العربية لرسالتى رينودي شاتيون وإيمري دي ليموج . انظر : حسين

عطية : إمارة أنطاكية ، الملحقين الرابع والخامس ، ص ٣٠٨ ، ٣١٢ - ٣١٤ .

(٢) حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ، الاسكندرية ، ١٩٨٩ م ، ص ٢٠٩ .

استرداد الرها ، وهى التى ستمكن صلاح الدين من استرداد بيت المقدس ، وهى عوامل الإنقسام . وعوامل انقسام الفرنج أيام زنكى ترجع فى الحقيقة إلى زمن الحملة الأولى .

فما شجر من خلاقات بين بولدوين وتنكريد فى قيليقية ، ثم بين بوهيمند وكونت تولوز فى أنطاكية ، استمر بين هؤلاء حتى بعد أن تغيرت أوضاعهم فى بلاد الشام . وتوارثه من خلفوهم فى حكم أملاكهم . فلم تكن العلاقات بين بولدوين ملك بيت المقدس (١١٠٠ - ١١١٨ م) وبين تنكريد أمير الجليل (١٠٩٩ - ١١٠٠ م) والوصى على أنطاكية (١١٠٠ - ١١٠٣ م) ، أفضل من العلاقات بينهما فى قيليقية ^(١) . كما كانت الخلاقات بين ريموند بواتيه أمير أنطاكية (١١٣٦ - ١١٤٩ م) وبين جوسلين كونت الرها (١١٣١ - ١١٤٤ م) وخلف بولدوين الثانى فيها ، سببا فى سقوط كونتية الرها وعودتها إلى الخطيرة الإسلامية إلى الأبد ^(٢) .

(١) بينما وقع الصدام بين بولدوين وتنكريد حول طرسوس ، وتقاتلا حول أذنة والمصبصة ، فقد تهرز بولدوين من وجود تنكريد أمير الجليل على مقربة منه فى مقر حكمه كملك لبيت المقدس ، ولم يمه فرصه قيام الصدام بينهما من جديد سوى وقوع بوهيمند فى أسر التركمان فى ١١٠٠ م ، ورحيل تنكريد إلى أنطاكية ليحكم كوصى عليها حتى عودة خاله من الأسر . انظر :

Radulf of Caen, op. cit., pp. 629 - 641; Albert d'Aix, Liber Christianae, RHC-It. Occ. IV, pp. 537 - 538.

(٢) تحالف جوسلين مع سوار حاكم حلب ضد ريموند ، كما أوى جوسلين بطريرك أنطاكية رادولف دمقرنت (١١٣٥ - ١١٤٠ م) الذى أبعد ريموند عن كرسى بطريركية أنطاكية . وأدى هذا الخلاف إلى تقاعس ريموند عن مساعدة جوسلين فى الدفاع عن الرها ضد عماد الدين زنكى . انظر :

William of Tyre, History of Deeds done beyond the sea, 2 vols, trans. by Emily Babcock and A.C. Krey, New York, 1943, Vol. 2, pp. 133 ff.

وللمزيد عن العلاقات بين جوسلين الثانى وريموند بواتيه ، وعن عوامل سقوط الرها فى أيدي زنكى انظر : محمد الشيب : الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها (١٠٩٧ - ١١٤٤ م) . الاسكندرية ، ١٩٧٢ م ، ص ٣٥٦ - ٣٧٠ .

لكل ما سبق ، فإن تاريخ الحملة الصليبية الأولى لم يكن هو استيلاء الصليبيين على بيت المقدس من المسلمين ، وتأسيس الفرنج للإمارات الصليبية فى الرها وأنطاكية وطرابلس فقط ، وإنما يضاف إلى ذلك ما ألم بالحملة من تطورات لم تكن محسوبة من قبل ، وما قام بين قادة الحملة وبين البيزنطيين من جهة ، وبين هؤلاء القادة بعضهم البعض من جهة أخرى من علاقات كان لها أكبر الأثر فى تحديد معنى الحركة الصليبية الدقيق ، والمصير المحتوم للكيان الصليبي فى بلاد الشام . ولم يكن من السهل الوقوف على كل ذلك دون التمعن فى المصادر التاريخية التي تضمنت صفحاتها كل دقائق تاريخ هذه الحملة .

الإنجاز الأدبي للحملة الصليبية الأولى :

وقد كان للحملة الصليبية الأولى إنجاز آخر لا يمكن مقارنة أوجه القصور فيه ، بالمثالب العسكرية والروحية للحملة نفسها . فلحسن الحظ ، أن تأثير دعوة البابا أوربان الثانى للمجتمع الأوربي الغربى للإشتراك فى الحملة الصليبية الأولى ، لم ينحصر على الحكام والعامة من طوائف هذا المجتمع ، بل تعدى هؤلاء إلى طائفة أخرى ، لا يقل دورها فى حقيقته عن دور المقاتلين الصليبيين أنفسهم ، إن لم يكن قد فاقه أهمية ، بالنسبة لدارسى تاريخ الحروب الصليبية . فقد شارك بعضهم سائر الطوائف التى هبت ملبية دعوة البابا لقتال المسلمين ، وساهموا فى تحقيق هدف الحملة المنشود ، ونجاحها الذى لم تصادفه أية حملة صليبية أخرى . وهؤلاء هم مؤرخو الحملة الصليبية الأولى أنفسهم . الذين سجلوا تاريخها ، وأعمال الفرنجة فى الشرق الأدنى الإسلامى ، منذ قدومهم إليه وحتى تثبيت أقدامهم فيه . وكان عدد هؤلاء المؤرخين الوفير من المزايا التى تميزت بها هذه الحملة أيضا عما تلاها من حملات . فهم شاهدو عيان لأحداثها ، ومن أتباع قادتها ، ويستمر ذلك لهم الاطلاع على مختلف القرارات الصليبية ، وتعد أعمالهم - إلى جانب الوثائق والمخطابات الصليبية - أهم مصادر المعلومات التاريخية أصالة .

وهكذا أمدتنا الحملة الصليبية الأولى بوفرة من المؤرخين اللاتين ، الذين سجلوا لنا تاريخ الإمارات الصليبية في الشرق ، منذ خروج الصليبيين من بلادهم في عام ١٠٩٦ م / ٤٩٠ هـ ، وحتى عام ١١٢٧ م / ٥٢١ هـ ، وينقسم مؤرخو هذه الفترة إلى قسمين ، الأول منهما ويضم ثلاثة مؤرخين شاهدي عيان ، وهم المؤرخ المجهول صاحب كتاب « أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس » Gesta Francorum et Aliorum Hierosolymitanorum ، وريمونداجيل صاحب كتاب « تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس » Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem ، ثم فولشر أوف شارتر الذي وضع كتاب « أعمال الفرنجة الحاجين إلى بيت المقدس » Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium^(١) . وهؤلاء أمدونا بمعلومات عن الحملة الصليبية الأولى منذ خروجها من أوروبا وحتى سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين . وقد حظيت علاقات الصليبيين بكل من البيزنطيين والأرمن والمسلمين بنصيب وافر من كتابات هؤلاء . وإذا كان مؤلفا الأول والثاني منهما يتوقفان بذكر أحداث (١٢ أغسطس ١٠٩٩ م / ١٤ رمضان ٤٩٢ هـ) وانتصار الفرنج على القوات الفاطمية ، فإن كتاب فولشر يغطي الفترة حتى عام ١١٢٧ م / ٥٢١ هـ . وفيما يخص الفترة بين عامي ١١٢٠ م / ٥١٤ هـ و ١١٢٧ م / ٥٢١ هـ ، يعتبر تاريخ فولشر هو المصدر اللاتيني الوحيد المعاصر ، وبعد أيضا تاريخا لكل الإمارات الصليبية في بلاد الشام ، حتى يدلى وليم رئيس أساقفة صور بدوره في تكملة تاريخ الصليبيين في الشام حتى عام ١١٨٤ م / ٥٨٠ هـ .

(١) عن هؤلاء المؤرخين وأعمالهم وسيرتهم الذاتية ، انظر :

Claud Cahen, La Syrie du Nord a l'Epoque des Croisades, et la principaute Franque d'Antioche, Paris, 1940, pp. 3 - 10; Jean Richard, Raymond d'Aguilers, Historien de la Première Croisade, JS, 1971, pp. 206 - 212; Harold Fink, Fulcher of Chartres Historian of The Latin Kingdom of Jerusalem, SMG, 5. 1975, pp. 53 - 55.

راجع أيضا : جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم ، ص ٢ - ٧ ، حسين عطية : إمارة أنطاكية ، ص ١٢ - ١٥ .

أما عن القسم الثانى من المصادر اللاتينية التي عالجتها هذه الفترة ، فمنها ما سجله ألبرت دكس عن تاريخ حملة جودفري دوق اللورين السفلى وأول حكام بيت المقدس اللاتين بعنوان « كتاب الحملة المسيحية لأخذ وتطهير واسترداد مدينة بيت المقدس » Liber Christianorum Expeditionis Pro Ereptione, Emundatione et Restitutione Sanctae Hierosolymitanae Ecclesiae . وكتاب رادولف أوف كان « أعمال تنكريد فى الحملة إلى بيت المقدس » Gesta Tancredi in Expeditione Hierosolymitana . وأخيرا كتاب إيكهارد دورا « بيت المقدس » Hierosolymitana^(١) . وإذا كان هؤلاء لم يشاهدوا وقائع الحملة الصليبية الأولى ، فقد استقوا معلوماتهم من مصادر أصلية مثل أعمال مؤلف الجستا وفولشر وريمونداجيل ، كما استمعوا إلى روايات من عادوا إلى أوربا من الصليبيين ، وهذا ينطبق على ألبرت دكس ، أما رادولف فقد كان كاهنا خاصا لتنكريد ابن أخت بوهيمند والوصى على إمارة أنطاكية أثناء أسر بوهيمند وبعد رحيله نهائيا إلى غرب أوربا ، وروى له تنكريد ذكرياته عن الحملة الأولى وأحداثها ، فوضع تاريخا لأعمال سيده تنكريد ، أصبح تاريخا لإمارة أنطاكية . أما إيكهارد ، فقد أتى إلى فلسطين عام ١١٠١ م / ٤٩٥ هـ . وعاد إلى أوربا ليضع كتابه الذى اعتمد فيه على ذكرياته الشخصية فى الشرق ، وروايات الآخرين التى تتفق مع روايات كثيرة ذكرها غيره من المؤرخين اللاتين . ويغطى كتاب ألبرت دكس الفترة حتى عام ١١٢٢ م / ٥١٦ هـ ، بينما ينتهى كتاب رادولف بأحداث عام ١١٠٥ م / ٤٩٩ هـ .

ومن كتبوا عن أحداث الحملة الصليبية دون أن يشاركوا فيها أو يأتوا إلى الشرق أبدا ، المؤرخ الأنجلو نورماندى أوردريك فيتاليس Ordric Vitalis الذى

(١) عن هؤلاء المؤرخين وأعمالهم ، انظر :

Oliver J. Tatcher, Critical work on the Sources of the First Crusade, ARAHA, 1, 1900, pp. 502 - 505. Henri Glaesener, Raoul de Caen Historien et Ecrivain, RHE, 46, 1951, pp. 5 - 21; Cahen, op. cit., p. 11.

وضع كتابا بعنوان تاريخ الكنيسة Historia Ecclesiastica^(١) الذي استقى مادته التاريخية من أكثر من خمسين مصدرا تاريخيا ، إلى جانب ما استقاه من الوثائق والروايات الشفهية . وكتابه على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لتاريخ الحملة الصليبية الأولى ، وعلاقة بيزنطة بالصليبيين . وتعد المعلومات التي أوردها عن الحملة الأولى وما تلاها من أحداث حتى عام ١١٢٣ م / ٥١٧ هـ من أهم المعلومات التاريخية الأصلية . فقد استقاها من روايات من عاد من الفرنج إلى فرنسا ، ومما وصل إلى أوروبا من تقارير عن أحداث هذه الفترة . وكان فيتاليس محايدا بالنسبة لمشكلة أنطاكية التي قامت بين الكسيس كومنين وبوهيمند ثم تنكريد من بعده . وأكدت روايته عن تلك المشكلة حسن نية الإمبراطور البيزنطي تجاه الفرنج ، وعدم تخليه عن الحملة كما اتهمه الفرنج بذلك .

(١) مع أن فيتاليس عاش في نورمانديا ، إلا أنه ولد في إنجلترا في عام ١٠٧٥ م . لأب نورماندي Odelerius d'Orleans وأم إنجليزية Angligena . جاء أبوه إلى إنجلترا فيما بين عامي ١٠٦٦ و ١٠٦٨ . وفي سن الخامسة درس فيتاليس في كنيسة شروسبري shrewsbury . وفي العاشرة أرسله أبوه إلى نورمانديا حيث صار راهبا في دير القديس إفرول St. Evroul وعاد إلى إنجلترا في زيارة قصيرة في عام ١١١٥ م / ٥٠٩ هـ . وأثر ارتباطه بالإنجلترا على كتاباته التاريخية لارتباطه بالإنجلترا بنورمانديا (وطن النورمان الأصلي) ثقافيا وسياسيا في عصره . وتأثر كثيرا بالمؤرخين الإنجليز ، وكرس كتابه لسرد تاريخ كنيسة إنجلترا ونورمانديا . ووضعه بناء على طلب روجر أوف لي ساب Roger of Le Sap أسقف دير إفرول (١٠٩١ - ١١٢٧م) ويتكون الكتاب من ١٣ فصل ، تغطي الفترة من ١ - ١١٤١ م . ووضعه فيما بين عامي ١١١٤ م و ١١٤١ م . وتأثر فيتاليس بالمؤرخين الإنجليز مثل بيده Bede ووليم مالمسبري William of Malmesbury وبعض المؤرخين النورمان مثل وليم أوف بواتيه William Poitiers ومات فيتاليس في عام ١١٤٣ م . وللمزيد عن حياة فيتاليس وأعماله . انظر :

Antonia Gransden, Historical writing in England (C. 550 to C. 1307), 2 Vols. London, 1974, Vol. 1, pp. 151 - 65.

راجع أيضا : حسين عطية : امارة انطاكية الصليبية والمسلمون (١١٧١ - ١٢٦٨ م / ٥٦٧ - ٦٦٦ هـ) ، الاسكندرية ، ١٩٨٩ م ، ص ٣١ ، حاشية ١ - ١١ .

والى جانب فيتاليس - من المؤرخين الذين لم يشتركوا فى الحملة الصليبية الأولى وكتبوا عنها فى أوربا - هناك المؤرخ الأنجلو نورماندى أيضا وليم راهب ديرمالسبرى William of Malmesbury الذى وضع كتاب « أعمال ملوك الإنجليز » Gesta Regum Anglorum ، الذى تناول فيه أحوال ملوك إنجلترا وعلاقاتهم بملوك أوربا والبابوية . وترجع أهمية الكتاب إلى اعتماد المؤلف على مصادر معلومات مفقودة . وقد أورد معلومات قيمة عن سقوط أنطاكية فى أيدي اللاتين ، وكان المؤرخ الوحيد الذى وقف على مدار بين كربوغا وستيفن بلوا من معادلات حين بعث قادة الفرنج بالآخر إلى المسلمين لإثناء كربوغا عن التعرض للفرنج الذين حاصروهم داخل أنطاكية فور استيلائهم عليها ^(١) .

والى جانب كل هؤلاء ، فقد ودت معلومات هامة عن الحملة الصليبية الأولى فى أعمال كل من كفارو الجنوى « تحرير مدن الشرق » Leberatis Civitatum Orientis . وكتاب جيبيرت دى نوجان Guibert de Nogent « أعمال الرب التى تمت بأيدي الفرنجة » Gesta Dei Per Francos ، وكتاب Iherosolimitana « تاريخ بيت المقدس » الذى وضعه روبرت الراهب ، وكتاب بودرى دى بورجى الذى يحمل نفس العنوان ^(٢) .

وإذا كانت الحملة الصليبية الأولى قد أخرجت لنا العديد من الأعمال التاريخية اللاتينية التى أمدتنا بالمعلومات الوفيرة التى تميزت بالدقة والأصالة ،

(١) ولد وليم فى عام ١٠٩٥ م / ٤٨٩ هـ . لوالدين أحدهما نورماندى والآخر الإنجليزى . وبدأ حياته راهبا فى دير مالسبرى . ثم تولى إدارة مكتبة هذا الدير . وبعد كتابه تاريخا لإنجلترا منذ قدوم السكسون إليها (٤٤٩ م) وحتى عام ١١٢٧ م / ٥٢١ هـ . وقام وليم بوضع عدة كتب أخرى أهمها (أعمال أساقفة الإنجليز) Gesta Pontificum Anglorum . ومات فى عام ١١٣٤ م / ٥٣٨ هـ .

أنظر : Antonia Gransden, op. cit., vol. 1, pp. 167 ff.

Cahen, La Syrie, p. 11.

راجع أيضا : جوزيف نسيم : العرب والروم ، ص ١٤ - ١٨ .

فإن الشرق اللاتينى لم يخرج لنا - منذ توقف كتاب فولشر أوف شارتر وحتى عام ١١٨٤م / ٥٨٠ هـ - سوى مؤرخ لاتينى واحد ، يرجع اليه الفضل فى الوقوف على كثير من الحقائق التي رسمت صورة دقيقة لأحوال أفرنج الشرق وعلاقاتهم السياسية بالمسلمين من جهة ، و ببعضهم البعض من جهة أخرى ، كما شمل كتابه تاريخا كاملا للحملة الصليبية الأولى . وهذا المؤرخ هو وليم الصورى^(١) الذى وضع كتابه « تاريخ الأعمال التى تمت فى بلاد ما وراء البحر منذ وقت خلفاء محمد (صلى الله عليه وسلم) وحتى عام ١١٨٤م من الميلاد » *Historia rerum in Partibus transmarini gestarum a tempore successorum Mahumeth usque ad annum Domini MCLXXXIV* ليكون أكثر المصادر اللاتينية دقة وشمولاً. وإذا كان وليم قد أتم كتابة تاريخه بعد عام ١١٨٠م / ٥٧٦ هـ وبدأه فى عهد عمـورى الأول ملك بيت المقدس (١١٦٣ - ١١٧٤م) ، ولم يشهد شيئا من أحداث الأربعين عاما الأولى من الوجود الصليبي فى بلاد الشام (ولد وليم فى عام ١١٣٠م / ٥٢٤ هـ) فقد نقل عن سبقوه من المؤرخين اللاتين المعاصرين للحملة الأولى وشاهدى العيان لأحداثها ، إلى جانب تميزه ببعد النظر والحس التاريخى والذى لم يجعل منه مجرد ناقل للأخبار بل وناقد للأحداث أيضا ولكثير من الشخصيات التى لعبت دورا فيها . ولم يكن وليم بجهل أحداث الفترة المبكرة من الحروب الصليبية وحتى عهده هو .

(١) عن حياة وليم الصورى وأعماله التاريخية . انظر :

R. B. C. Huygens, Guillaume de Tyre étudiant Un chapitre (XIX, 12) de son "Historia" retrouvé, Latamus, 21, 1962, pp. 811 - 829; R.H.C. Davis, William of Tyre, in Relation between East, and West ed. Derek Baker, Edindburgh, 1973, pp. 64 - 76; P.W. Edbury and J.G. Rowe, William of Tyre and the Patriarchal election of 1180, EHR, 366, 1978, pp. 1 - 25; D.W.C. Vessey, William of Tyre and the art of Historiography, MS, 35, 1973, pp. 433-455.

راجع أيضا : حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ، ص ٣٤ - ٣٩ .

وإلى جانب المصادر اللاتينية التي سجلت أحداث الحملة الصليبية الأولى هناك مصدر بيزنطي لا يقل قيمة عن المصادر اللاتينية وهو كتاب الألكسياد Alexiad الذي وضعته الأميرة البيزنطية آن ابنة الامبراطور البيزنطي الكسيس الأول كومنين^(١) ويعتبر كتابها مصدر ثقة في دراسة العلاقات بين البيزنطيين و صليبي الحملة الأولى ، وخاصة طوال الفترة التي قضاها الفرنج في أراضي الدولة البيزنطية وفي القسطنطينية بالذات . إلى جانب تطور العلاقات بين الامبراطور وبين الفرنج أثناء رحلتهم في بلاد الشام من أنطاكية وحتى استيلائهم على بيت المقدس .

هذا عن مصادر الحملة الصليبية الأولى من لاتينية وبيزنطية ، التي تمتعت بالأهمية القصوى بالنسبة لدارسي تاريخ الحروب الصليبية (والحملة الأولى بصفة خاصة) نظرا لعدم توفر المصادر الإسلامية المعاصرة لأحداث الحملة الصليبية الأولى . فلم يكن هناك من المؤرخين المسلمين المعاصرين سوى ابن القلائسي صاحب كتاب « ذيل تاريخ دمشق » الذي عالج فيه تاريخ بلاد الشام منذ غزو السلاجقة له وحتى عصر صلاح الدين^(٢) . ولذا تفوقت الكتابة التاريخية اللاتينية على

(١) ولدت الأميرة آن في نهاية عام ١٠٨٣ م / ٤٧٥ هـ . وتزوجت من نقفور برنيوس (وهو مؤرخ بيزنطي) وتوفيت في عام ١١٤٨ م / ٥٤٣ هـ ، عن ٦٦ سنة . وهي ابنة الكسيس من زوجته إيرين دوكانس . وقام أخوها حنا الثاني كومنين بحبسها في أحد الأديرة بعد وفاة والدها . فعكفت آن على كتابة التاريخ . وهي غريزة العلم وعلى دراية بأدب اليونان وكتب اللاهوت والشعر والفلسفة الاغريقية القديمة . ووضعت كتابها باللغة السائدة وقتذاك ليكون سجلا لأعمال والدها . وهو يغطي الفترة من عام ١٠٦٩ م / ٤٦١ هـ إلى عام ١١١٨ م / ٥١٢ هـ . وبدأت في تدوينه في عام ١١٣٧ م / ٥٣١ هـ وأتمته في عام ١١٤٨ م / ٥٤٣ هـ . أنظر :

Cahen, La Syrie, p. 95; George Ostrogorsky, History of the Byzantine state, English trans. by J. Hussey, Oxford, 1956, p. 311.

(٢) عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ، ١٩٧٦ م ، ص ١٦ ، السيد الباز العريني : مؤرخو الحروب الصليبية ، القاهرة ، ١٩٦٢ م ، ص ١٩١-١٩٢ .

مثيلتها العربية زمن الحملة الصليبية الأولى حتى ينعكس الأمر خلال النصف الثاني من القرن ١٢ م / ٦ هـ بتفوق الكتابة التاريخية العربية بظهور دولة صلاح الدين الأيوبي في مصر ، التي شهدت تغيرا هاما في الكتابة التاريخية العربية ، وذلك بظهور وفرة من الأعمال التاريخية العربية استمدت انطلاقتها من تأثير توحيد صلاح الدين لمنطقة الشرق الأدنى الاسلامي تحت لوائه من بلاد السودان ومكة جنوبا إلى جبال طوروس شمالاً ، ومن ديار بكر شرقا إلى مصر غربا ، ورفع الأرواح فوق سياسة التحزب والانقسام . فكان لسيادة المذهب السني في البلاد أثر في اختفاء النزعة الشيعية ، بنهاية الدولة الفاطمية ، في كتابات المؤرخين المسلمين . وكتب الجميع تاريخ البلاد في هذه الفترة ، وحتى نهاية الحروب الصليبية ، ونقلوا عن بعضهم البعض بلا غضاضة ^(١) . الأمر الذي سد النقص الذي خلفته لنا الكتابات التاريخية اللاتينية التي تقلصت بتقلص ممتلكات الفرنج على أيدي صلاح الدين . وفي الوقت الذي نجد فيه من يكتب عن دولة صلاح الدين أو عن جزء من تاريخها أو عن الرجل نفسه ، أعمالا تستمر حتى نهاية الدولة الأيوبية ، نجد مؤرخ واحد أو اثنين على الأكثر من المؤرخين اللاتين الذين أكملوا تاريخ ولیم الصوري ^(٢) .

وهكذا لم يكن للحملة الصليبية إنجازها العسكري فقط ، بل وإنجازها الأدبي ، والإنجازين معا لم يتحققا لأي من الحملات الصليبية التي تلتها .

وكان كتاب ريمونداجيل - محل دراستنا هذه - من أهم الأعمال التاريخية التي تناولت تاريخ الحملة الصليبية الأولى .

Cahen, La Syrie du Nord, p. 50.

(١)

(٢) حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ، ص ٧٩ - ٨٠ .

ريمونداجيل وكتابه :

وكان من الممكن أن يطول الحديث عن المؤرخ ريمونداجيل وعن الكتاب الذي وضعه بنفسه . إلا أنه من الأوفق عدم تكرار ما جاء في تقديم الكتاب وفي مقدمة الترجمة الإنجليزية ، عن الرجل وتاريخه . كما أنه من الأوفق تسجيل التعليق على ما يشوبه الغموض من قضايا تناولها الكتاب ، أو ما يتعارض مع الحقيقة التاريخية الخالصة ، في حواشي الكتاب . أما هنا فنشير فقط إلى ما يبرزه كتاب ريمونداجيل من قضايا لم يلق عليها الضوء بعد . فريمونداجيل رجل دين صليبي أولاً ، ثم صليبي بروفسالي بعد ذلك . ثم تابع لكونت تولوز ، الرجل الذي اشترك في الحملة الصليبية الأولى كرئيس علماني لها - إلى جانب رئيسها الروحي أدهيمار - وحصل على هذا المنصب من البابا نفسه ^(١) . ثم حظى بثقة الامبراطور البيزنطي ألكسيس كومنين - بعد أن أشعر الامبراطور بأهمية وضعه بين أقرانه من قادة الحملة - وتصرف على هذا الأساس - أثناء سير الحملة من القسطنطينية وحتى غزو الفرنج لبيت المقدس - كحام لمصالح الامبراطور . إلا أن الكونت صدم لعدم جدوى كما ما حصل عليه من البابا والامبراطور في آن واحد . فلم تشفع له زعامته للحملة ، ولا علاقته الخاصة بالامبراطور أمام طموحات بوهيمند النورماندي ، ولا أمام الرأي العام الصليبي في لحظة إختيار حاكم علماني لمدينة بيت المقدس . ففشل في الحصول على أنطاكية لنفسه أو المحافظة عليها لصالح الامبراطور ، كما فشل في الحصول على تاج مملكة بيت المقدس الصليبية ، وعلى وظيفة أول ملك لها ^(٢) .

وكان من الطبيعي أن ينعكس أثر ذلك على المؤرخ وتاريخه في آن واحد . فرجل الدين - في داخل ريمونداجيل - المتشبع بأفكار البابوية عن المسلمين ، يحاول جاهداً أن يجعل من كل ما أتى به الفرنج من أعمال ضد المسلمين

(١) Robert le Moine, Historia Iherosolimitana, RHC-H. Occ., vol. III, p. 731.

(٢) انظر مايتقدم ص ٩٢ ، ١٥١ ، ٢٥٨ .

وأملأهم ، وحتى أماكنهم المقدسة ، عملاً من أعمال الرب ^(١) - وإن لم تكن مشروعة - تتم على أيدي جند المسيح Militia Christi . وحتى يسبغ الشرعية على أعمال الفرنج ضد المسلمين ، وحتى يجعل رواياته ، عن انتصارات الصليبيين ، وعن كل ما اختلقه من أحداث ، تحظى بثقة واحترام قراء كتابه الذين يعيشون في غرب أوروبا ، في عصر الإيمان أو عصر تسلط الكنيسة ، فقد أقحم ضمن أسطر تاريخه إقتباسات من الكتب الدينية (خاصة التوراة والإنجيل) . أما عن الصليبي البروفنسالي الذي يمثله ريمونداجيل ، فمن الطبيعي أن تحظى أعمال الجيش البروفنسالي وقائده - سيد المؤرخ - كونت تولوز بالجانب الأكبر من تاريخه . ومن الطبيعي أيضاً - والبروفنسالي أصلاً من اللاتين - أن يشارك بقية مؤرخي الحملة من اللاتين كرههم للبيزنطيين . وأن يكيل لهم الاتهامات بخيانة القضية الصليبية المسيحية وبالتخاذل في تحقيق مشيئة الرب Deus Volt ^(٢) . أما عن التابع البروفنسالي لكونت تولوز - ريمونداجيل - فيظهر استياءه من تصرفات بوهيمند ، ولو أدى الأمر إلى اتخاذ جانب الإمبراطور البيزنطي في

(١) اصطبغت الحركة الصليبية بالصيغة الدينية في عقول الفرنج بتأثير من كلمات البابا أوربان الثاني التي احتوتها خطبته المشهورة في كليرمونت (١٠٩٥ م) . ومن القرارات والوعود التي وعد بها البابا المشتركين في الحملة ضد العالم الإسلامي . فهناك غفران لذنوب كل من يحمل الصليب ويشارك في هذه الحملة . كما كان هناك قرار الحرمان ضد من يتقاعس عن المساهمة فيها وهو قادر على ذلك . فبينما رأت الحشود المستمعة إلى كلمة البابا خارج كنيسة كليرمونت أن الحركة الصليبية هي « إرادة الله » "Deus Volt" ، فقد رأى روبرت الراهب Robert le Moine - كما رأى ريمونداجيل - أن الحركة الصليبية « من عمل الله وليست من عمل الانسان » . أنظر :

Robert le Moine, Historia Hierosolymitana, in R.H.C. - H. Occ., vol. III, p. 723.

راجع أيضاً : جوزيف نسيم يوسف : الإسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما في العصور الوسطى ، الاسكندرية ، ١٩٨٦ م . ص ٧٠ .

(٢) انظر ما يتقدم ، ص ٦١ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٩٢ .

مشكلة أنطاكية ^(١) . كما يحاول الحفاظ على ماء وجه سيده - كونت تولوز حين يجده شخصا غير مرغوب فيه لأن يكون ملكا لبيت المقدس ، فيؤكد رفض سيده لشغل هذا المنصب الذي عرضه عليه الفرنج قبل اختيارهم لجودفري دوق اللورين ^(٢) . وحين يرى ريمونداجيل - تابع كونت تولوز - إغراض بنى جلده عن مساندة سيده وسيدهم في هذه المشكلة ^(٣) ، لم يجد المؤرخ بدا من أن يتصرف كرجل دين وليس كتابع بروفنسالى للكونت ، ويشير إلى أن شح الكونت وجشعه حين لم يوزع الجزية التي أخذها من بنى عصار في طرابلس على الفقراء من جنوده ، كما كان فشله في حصار عرقه ، وتشككه في حقيقة الحرية المقدسة بعد أن أظهر اقتناعه برؤى بطرس بارثلميو ، وقبل كل ذلك صداقته للإمبراطور البيزنطي ، كل ذلك كلفه عرش بيت المقدس . وكل ذلك بالطبع كان من دواعي غضب ريمونداجيل رجل الدين الصليبي ، والبروفنسالى، على كونت تولوز ^(٤) .

وإذا كان ريمونداجيل قد تعرض لتصرفات الحملة الصليبية والعلاقات التي سادت بين طبقة الأمراء والنبلاء ، فقد مّس أيضا ، وعن قرب ، الوسط الذي عاش فيه فقراء الصليبيين الذين كانوا موضع عنايته . وأوضح - كرجل دين - اهتمام هذه الطبقة بالإيفاء بنذرها الديني حين تلكأ قادة الحملة في شمال الشام ، متصارعين حول الأسلاب والممتلكات ^(٥) وبين كيف جاهد فقراء الفرنج في سبيل تحقيق هدف الحملة المنشود ، حتى أنه لم يهتم بما سوف يكون انطباع القارىء عن بنى جلده حين يذكر أنهم أكلوا جذور النباتات وقت الأزمات ، الأمر الذي استغله رادولف أوف كان ليندّد بسلوك البرفنساليين أمام رقى النورمان ^(٦) . وهذا يوضح

(١) انظر ما يتقدم ، ص ١٦٤

(٢) انظر ما يتقدم ، ص ٢٥٧

(٣) انظر ما يتقدم ، ص ٢٥٨ .

(٤) انظر ما يتقدم ، ص ٢٥٨ ، ٢٢٢

(٥) انظر ما يتقدم ، ص ١٧١

(٦) انظر ما يتقدم ص ١٦٦ راجع أيضا Radulf of Caen, p. 675

أن الصدام الذي كثيرا ما تكرر بين قادة الحملة الصليبية ، والمنافسة التي اشتعلت بينهم ، وعدم الثقة الذي شاب علاقاتهم ببعض ، قد أمتد إلى مؤرخيهم أيضا ، الأمر الذي يوضح طبيعة وأخلاق القوات الصليبية ، وطبيعة الحركة الصليبية نفسها .

وفي الحقيقة ، لم يقتصر التمعن في تاريخ ريمونداجيل على الوقوف على الجوانب السلبية في العلاقات بين القوات الصليبية وقاداتها من نورمان وفرنسيين وألمان ، بل إن تاريخ ريمونداجيل يلقى بعض الضوء على البدايات الأولى لكثير من نظم المجتمع الصليبي في بلاد الشام ، ويثبت أن هذه البدايات كانت وليدة الظروف التي مر بها صليبيو الحملة الأولى . ومثال ذلك أننا نرى زعماء الحملة يسهمون في إنشاء صندوق - رصيد - لضمان استرداد الخيول التي يفقدها الفرسان أثناء القتال أو وقت المجاعات ^(١) .

ولاشك أن إشارة ريمونداجيل إلى هذا التقليد هي أول النصوص التي تشير إلى مبدأ الأخوة Confraternitas الذي قامت على أساسه كثير من الجماعات العسكرية مثل جماعات الفرسان الرهبان من الداوية والإسبتارية والتويتون وغيرها من الجماعات الدينية الأخرى التي تعد من المؤسسات التي نشأت في المجتمع الصليبي في بلاد الشام دون إقتباسها من الغرب الأوربي مثل سائر النظم الأوربية التي اتبعتها فرنج الشام ^(٢) .

(١) انظر ما يتقدم ، ص ٩١ .

(٢) أخذ الوجود الصليبي كل أفكاره ونظمه من التجارب الأوربية ، ونادرا ما غامر بابتداعها في الشرق إلا إذا أجبر على ذلك نتيجة لظروف محلية . ومن التجارب التي خاضها الوجود الصليبي في بلاد الشام ، دون الارتكاز على التجارب الأوربية تجربتان ، أطلق الفرنج العنان لقدراتهم في خوضها ، وهما إنشاء الجماعات الرهبانية العسكرية ، ثم الحرب وبناء الاستحكامات . انظر :

Prawer, The Latin Kingdom, p. 252; J. Riley - Smith, A Note on Confraternities in Latin Kingdom of Jerusalem, BHR, 44, 1971.

وهكذا يلقي تاريخ ريمونداجيل الضوء على جوانب كثيرة من جوانب تاريخ الحروب الصليبية وحياة الصليبيين في بلاد الشام ، ويجعلنا نكتشف في كل لحظة معلومات جديدة في نص ربما يدفع إلى الاعتقاد بأنه لم يعد أحد يقرأه ، أو لم يعد يأتي بجديد من فرط ما اقتبس عنه . وربما يرجع ذلك إلى أن تاريخ ريمونداجيل يحفل بالفقرات التي تتعلق بالرؤى ، والتي تلقى بظلالها على النص كله ، وتدفع إلى الظل بكثير من المعلومات الأكثر قيمة بالنسبة لتاريخ الحروب الصليبية ، وطبيعة وخصال الفرنج أنفسهم . أما عن إنفراده - دون غيره من مؤرخي الحملة - بسرد تفاصيل رؤى بنى جلده ، وقصص زوارهم السماويين ، فيرجع ذلك إلى أنه أتى على رأس مجموعة من المتحمسين الذين أقادوا من حسن نية ، وخزعبلات الصليبيين وسذاجتهم الدينية . فقد كان ريمونداجيل ، بمساعدة بعض المتواطئين ، هو الذي خطط ونفذ خدعة اكتشاف الحرية المقدسة في أنطاكية . ولما وجه إليه هذا الإتهام ، فقد كتب تاريخه عن الحملة الصليبية كدفاع عن نفسه ، ولكنه أثناء محاولته تبرأة ساحته ، قد كشف - دون قصد - عن ذنبه . وبالرغم من كل ذلك . فإن كتاب ريمونداجيل قد أبرز الكثير مما يتعلق بفرنج الحملة الأولى ، وملابسات هذه الحملة ، وكشف عما اكتنفه الغموض في كتابات بقية مؤرخيها المعاصرين ، الأمر الذي يمنح تاريخه أهمية تاريخية كبيرة^(١) .

وفي النهاية لم يكن من السهل الوقوف على كل تلك المعلومات - على سبيل المثال لا الحصر - إلا بالاطلاع على تفاصيل تاريخ ريمونداجيل ، الذي لمس جوانب كثيرة من تاريخ الحملة الصليبية الأولى لم تتطرق إليها كتابات أقرانه من مؤرخي الحملة . وكان لشخصية المؤلف وثقافته وفكره والبيئة التي أتى منها أثر كبير في تميز تاريخه عما سجله غيره عن هذه الحملة ، الأمر الذي يؤكد ضرورة الرجوع إليه للإلمام بكل ما هو جديد بالنسبة لها .

Oliver J. Tatcher, Critical Work, p. 509.

(١)

مقدمة الترجمة الإنجليزية

استمرت الحروب الصليبية في شد الإنتباه ، بالرغم مما كتبه البروفيسور لامونت La Monte منذ عدة سنوات ، بأنه في ضوء المجالات الأخرى للتاريخ الوسيط ، فإن الحروب الصليبية قد قُتلت بحثاً ^(١) . ومن فترة وجيزة فقط ، وضع هانز ماير في كتابه الممتاز « مصادر تاريخ الحروب الصليبية » ، وضع قائمة تضم حوالي ٥٣٣٦ عمل في مجال الدراسة حتى عام ١٩٥٨ ^(٢) . وبالعودة إلى الماضي ، ندرك أنه لم تكن لدى البابا أوربان الثاني فكرة عن التصادم الأدبي الناتج عن خطبته التي ألقاها في ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥ م على الجمع المحتشد على التلال المتموجة في كليرمونت ^(٣) . ولكن الدفع بعالم شبه بربري من اللاتين ضد المجتمع الإسلامي شغل بال ذرية أوربان . فاستجاب المؤرخون والشعراء والقصاصون وعلماء النفس ، وحتى رواد السينما الحديثة جميعاً للجذب العاطفي لحركة التاريخ غير العادية هذه . وارتبطت فوحة الرومانسية والمثالية السامية بالتمهلات الصليبية في القرن العشرين ، ولا يزال تعبير « حملة صليبية » يستعمل بحرية عند الأيديولوجيات المتصارعة .

ولقد دسّنت دعوة البابا أوربان الثاني الحملة الصليبية الأولى ، أكثر الحملات الصليبية نجاحاً ، وأكثرها تعرّضاً للجدل . ولقد نوقشت دوافع البابا أوربان على نطاق واسع ، ولا تزال خططه تثير الجدل العلمي ^(٤) . وبالمثل ، ثار الجدل حول مقدمات الحروب الصليبية ، وأيضاً حول دوافعها . كما أولى المؤرخون إنتباههم لكثير من جوانب الحملة الصليبية الأولى بما في ذلك الشؤون العسكرية ، وهزائم الفرنج ، وتتابع الأحداث ، والقادة ^(٥) . وبالإضافة إلى ذلك ، لم يقتصر الاهتمام على بلد بذاته بالرغم من ريادة فرنسا وألمانيا في هذا المجال . وفي الولايات المتحدة ، أدى تمحّس البروفيسور مونترو ، ومن أتوا بعده ، إلى استنتاج أن ستيفن رنسيومان قد أسف على التنافس مع حشد الآلات الكاتبة في هذا البلد ^(٦) .

وبالرغم من وفرة الكتابة عن تاريخ الحروب الصليبية ، فما زال هنا الكثير ليكتب عنها (٨) . ولقد نبعت الحاجة إلى الدراسة المستمرة من سوء الاستخدام للمصادر المتوفرة ، بالإضافة إلى أخطاء المؤرخين المركبة ، حيث رفضوا أن يجندوا خدمات المتخصصين في المجالات المرتبطة بالتاريخ . بالإضافة إلى ذلك ، فقد حاول مؤرخو القرن العشرين أن يطبقوا نظرياتهم، في الدوافع الإنسانية، على ماديات الحملة الصليبية الأولى ، إلى جانب أن نقص المادة العلمية يرجع إلى الاحتمالات الإيحائية التي أخذ بها هؤلاء المؤرخون . فمن بداية الحروب الصليبية كان الكتاب أكثر اهتماما بوسائل الرب منهم بوسائل الانسان . ودائما ما يصطدم المبتدئ بحقيقة أن السجلات الدورية لا تفي بالغرض . وكثيرا ما تتنافس أسطر قليلة عن غزو الفرنج لبيت المقدس مع أسطر عديدة عن الشهب الهابطة من السماء . وإذا كان من الممكن الوثوق ببعض الشيء في الحوليات ، فإن هذه الحوليات تبين أن أهمية الحروب الصليبية قد لاحت للناس بعد سقوط بيت المقدس ، وبعد وصول تقارير الصليبيين العائدين إلى أوروبا .

ولحسن الحظ ، فلدينا عدد من روايات باقية لشهود عيان . وفي ضوء التقارير الحديثة ، فإن جميع هذه الروايات لا تفي بالغرض ، كما أنها مليئة بعلوم الكنيسة ، ولكن بالمقارنة بالفترات المبكرة من العصور الوسطى ، فإن تقارير شهود العيان هذه أكثر وفرة وأكثر نقلا للأخبار . وربما تتضمن مجالات الدراسة المهمة أصول الحروب الصليبية ومشاريع البابا أوربان ، ولقد تناقش المؤرخون الحديثون بسبب التكتّم *ex silentio*^(٩) . وينجح المؤرخ عندما يبلغ السيرة الفعلية للحملة الصليبية الأولى . وهناك عدد من الخطابات المتاحة التي تبدأ بخطابات الباهوات ، والامبراطور ألكسيس ، وقادة الحملات الصليبية وحتى خطابات ستيفن كونت بلوا المتوقدة إلى زوجته آديلا Adela^(١٠) . وعلى أحسن الفروض ، فإن هذه الوثائق موجزة ، وتحتوى على عدد من الكلمات أقل مما يحتويه أى تقرير صباحى لسرية من الجيش . وعلى أية حال ، فإن هذه الرسائل تتمتع بالأصالة ، وتعد من أفضل مصادر المعلومات .

ولحسن الحظ ، فلدى المؤرخين خمسة أعمال تاريخية كاملة ، بيزنطية ولاتينية ، وضعها من يطلق عليهم شهود العيان . فقد بدأ فولشر Fulcher ، وهو مواطن من شارتر Chartres ، رحلته الصليبية مع روبرت النورماندى وستيفن كونت بلوا وشارتر . ثم التحق فيما بعد بقوات بولدوين ، شقيق جودفري دوق بوايون ، وأصبح القس الخاص ببولدوين . وتاريخه « تاريخ بيت المقدس » مكون من عدة أجزاء ، الأول منها يعالج ، أساسا ، الحملة الصليبية الأولى . وهذا العمل الذى من المحتمل أن تم كتابته فى عام ١١٠١م ، ينقل القارىء إلى الرها حيث ترك فولشر الحملة ، وروايته عن إكمال الرحلة ليست رواية شاهد عيان ^(١١) . أما آن كومنين ، ابنة الإمبراطور ألكسيس كومنين ، فقد كتبت الألكسياد Alexiad . وهذا التاريخ الذى كتب بعد أربعين عاما من قيام الحملة الصليبية الأولى ، يعالج أساسا دور أبيها ويعيد عن أن يُرتكن إليه . فقد كانت الأميرة زمن الحملة الصليبية لا تزال طفلة ، وبالعودة إلى الماضى جاءت أحداث كتابها وتاريخه مضطربة ^(١٢) .

وكتب بطرس توديبود ، وهو قس مدينة كيفراى Civray ، قبل عام ١١١١م « تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس » ، الذى يعتبر لسنوات عديدة تاريخ شاهد عيان هام . ولاشك أنه كان حقيقة مشاركا فى الرحلة إلى بيت المقدس ، ولكن المؤرخون الحديثون اعتبروا كتابه انتحالا لعمل آخر ، وهو التاريخ المجهول الذى يحمل عنوان « أعمال الفرنجة Gesta Francorum » ، مع الاقتباس من تاريخ ريمونداجيل ^(١٣) . ومن المؤكد ، من الناحية الجوهرية ، أن المعلومات التى وردت فى تاريخه ومثيلتها التى وردت فى الجستا معلومات متقاربة جدا . ولدراستنا هذه ، يمكن القول بأن هناك تاريخين لشاهد عيان مهمين جدا لمتابعة الحملة الصليبية الأولى منذ بدايتها حتى ختامها الناجح ، وهذان التاريخان بالتحديد هما كتاب مؤرخ الجستا ، وكتاب ريمونداجيل .

ويعتبر الجستا هو أكثر هذين التاريخين خضوعا للدراسة ، وأكثرهما فهما لدى المؤرخين الحديثين . وقد تبع المؤرخ المجهول سيده بوهيمند إلى أنطاكية

واستمر فى الرحلة إلى بيت المقدس بعد أن بقى النورمان فى أنطاكية بصحبة صليبيين آخرين . ومنذ قيام فون سيبيل Von Sybel بدراسته لهذا المصدر التاريخى ، فقد تمت أبحاث كثيرة حوله . ولم يصل الباحثون إلى اتفاق حول كثير من جوانب المشكلة . وبقى المؤلف المجهول مجهولا . وبالرغم من أن ستيفن ونسيما ن يجد عام ١١٠٠م (أو عام ١١٠١م) تاريخا لإتمام الجستا ، فإن هذه المشكلة أيضا لم يبت فيها برأى قاطع . وتضم قائمة المؤرخين ، الذين أولوا إهتماما كبيرا لكتاب المؤرخ المجهول ، هاجنمير وبيريه ولير وهيل على سبيل المثال لا الحصر (١٤) .

ومن الغريب أن لا يتمتع المصدر المتبقى ، الذى يحمل عنوان « تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس » بمثل هذا الاهتمام . وإذا كان ذلك حقيقيا فيما يخص البحث العلمى عن المؤلف أو مناهجه ، فإنه من الحقيقى أيضا فيما يتعلق بالقصور الذى شاب النصوص الموجودة لهذا التاريخ ، الأمر الذى أسف له ونسيما ن (١٥) ، ولا بد لأى مؤرخ جاد ، يتناول تاريخ الحملة الصليبية الأولى ، وأن يتعامل مع تاريخ ريمونداجيل ، بالغ الأهمية لتاريخ الحروب الصليبية . ومع أن كتاب ريمونداجيل يطابق الجستا ، فإنه فى بعض الأحيان ، يمدنا بمعلومات غير متوفرة فى أعمال تاريخية أخرى . فريمونداجيل يقدم لنا تفصيلات عن الرحلة البروفنسالية إلى القسطنطينية غير واردة فى روايات بطرس توديبود . كما كان ريمونداجيل أكثر توفيقا من مؤلف الجستا فى تعامله مع شخصية أدهيمار (أسقف لى بويه) الغامضة . وجاءت رواية ريمونداجيل عن الرحلة من القسطنطينية إلى أنطاكية موجزة جدا ، ومع ذلك ، فهى تحتوى على بعض المعلومات الإضافية . وبالرغم من أن روايته عن حصار أنطاكية مضطربة زمنيا فى بعض الأحيان ، إلا أنه يضيف بها ، بشكل فعال ، إلى معلوماتنا التاريخية . وكان وصفه للأحداث منذ سقوط أنطاكية وحتى التخلّى عن عرقة فى غاية الأهمية ، وبصفة خاصة روايته عن قصة الحرية المقدسة ، ومن الغريب أنها لم ترد فى الجستا . وتسد المعلومات التى أوردها عن الصراعات الكنسية بعد سقوط بيت المقدس الفراغ الذى تركته الجستا .

وباختصار ، فلا بد من الرجوع إلى تاريخ ريمونداجيل فوليم الصورى ،
أحد أشهر مؤرخى الحملة الأولى الشقاة ، اضطر إلى الرجوع إلى كتاب
ريمونداجيل ، وكذلك فعل مؤرخون آخرون ^(١٦) . وبينما تعلم المؤرخون أنه لابد
لهم من معايشة هذا القس ، فقد أدركوا أنهم تعاقدوا مع بارون مونخاوزن ^(١٧)
من العصور الوسطى ، أقسم أن يكون محررا أميناً ، والأكثر احتمالا أنه مزج
الحقيقة والخيال بمنتهى السهولة . وحين يفشل المؤرخون فى إدراك ذلك ، فغالبا
ما نجدهم يسيئون فهم ريمونداجيل بسبب الغموض الشديد الذى اكتنف حياته .
وماذا نعرف بالفعل عن هذا الراوى ، الذى يغزل الروايات الصليبية المسهبة ؟
للأسف ، فنحن مضطرين إلى الاعتماد على كتابه وعلى النقد الداخلى من أجل
الحصول على معلوماتنا عنه .

وقد خلف لنا ريمونداجيل ، مؤلف « تاريخ الفرنجة الذين غزوا بيت
المقدس » ، ذر الأسلوب الخاص ، أثرا باهتا . ولقد عرّفنا به لأول مرة منذ عشرين
عاما ، أثناء قيامنا بعمل سيرة منقحة لريموند كونت سانجيل ^(١٨) ، وإذا كان لنا
أن نصدق ، فقد كان ريمونداجيل قسا خاصا لريموند الرابع كونت تولوز ، ورافق
الكونت فى الحملة الصليبية الأولى ، وتم تعيينه قسيسا أثناء الرحلة . ويشير
ريمونداجيل إلى نفسه على أنه كاهن لى بويه ، ويشير إلى تاريخه ككتاب وضع
لتبليغ أسقف فيفييه Viviers ^(١٩) . وكانت لى بويه ، البهيجة بتكويناتها
البركانية ، مركزا مرموقا للنشاط الدينى قبل الحملة الصليبية الأولى . ولقد قابل
أسقف لى بويه (أدهيمار) البابا أوربان الثانى هناك فى ١٥ أغسطس ١٠٩٥ م ،
وأصبح وثيق الصلة بالمشاريع البابوية للحملة الصليبية ^(٢٠) . وكان دير Chaise-Dieu ،
أحد أماكن العبادة المفضلة لدى كونت تولوز ، قريبا أيضا من
مشاريع البابا . وحين يشاهد المسافر اليوم كنيسة القديس ميشيل دى آجيل
St. Michel-d'Aiguilhe وشرفات كونتات بوليجناك Polignac فى الطريق إلى
دير Chaies-Dieu ، ربما يغريه ذلك على الاعتقاد بأن البيئة كانت مناسبة
لتدريب مؤرخ الحرب المقدسة ^(٢١)

وعلى أية حال ، فإن معظم التفاصيل الدقيقة لحياة ريمونداجيل مفقودة ، وليس هناك تاريخ محدد لمولده أو لوفاته . وتعطى أغلبية المخطوطات المتاحة أشكالاً مختلفة لإسمه مثل Aguilers, Agilers, Agiles, Aguilers ، وهذه الهجاءات المتنوعة ليست إلا من عمل النُساخ وليس لها أى مغزى . ومن الممكن أن يكون ريمونداجيل ينتمى إلى مقاطعة اللوار الأعلى Haute - Loire ، كما يقترح رنسيमान . ومرة أخرى فإن هذا لا يعدو كونه مجرد تخمين ^(٢٢) . ونفضل أن نفكر فى ريمونداجيل إرتباطا بكنيسة نيدل أوف لى بويه Needle of Le Puy ، ولكن ينقصنا الدليل .

وإذا كانت تفاصيل حياته طفيفة ، فكذلك مايتعلق وضع تاريخه من حقائق . فيروى ريمونداجيل أنه قد اضطلع بدراسته كمشروع مشترك مع بونز بالازون Pons of Balazun ، ذلك الفارس المغمور فى حاشية ريموند سانجيل . كما يرى أيضا أنه عنى بوضع كتابه ليخفف من نقد الحملة الصليبية ، وليبين كذلك مجد وعدالة سبل الرب . ويوضح ريمونداجيل أنه يعرف أكثر مما يروى ، إلا أنه يفضل أن يكرس وقته لإبراز نشاطات قوات ريموند الرابع كونت تولوز . ولقد سقط زميله المؤرخ بونز قتيلا ، نتيجة جرح قاتل فى معركة عرقة ، وترك مهمة إكمال التاريخ لريمونداجيل ^(٢٣) . ويعتقد رنسيमान أن ريمونداجيل قد أتم تاريخه فى عام ١٠٩٩ م ، ولكنه جانبه الصواب فى ذلك ، لأنه كما ذكرنا من قبل ، فإن المؤرخ كان مطلعا على تأثير عدم المبالاة بالعرف ، الذى تلا سقوط بيت المقدس . وربما كان كرى Krey أقرب إلى الصحة حين إفترض أن العمل فى هذا الكتاب قد انتهى فى عام ١١٠٢ م ، ولكن فى إمكاننا أن نكون متأكدين أنه تم فقط قبل موت ريموند كونت تولوز ^(٢٤) . ويبين تاريخ ريمونداجيل أنه قد ولف روايته مستخدما ملاحظاته وتجاربه الشخصية ، وتواريخ أخرى توفرت لديه . وتشير كل الدلائل إلى أنه رتب مادته التاريخية بتسلسل الأحداث . ولسوء الحظ ، فإن المخطوط الأصيل مفقود ، ويرجع أقدم مخطوطان إلى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى ^(٢٥) .

وبوضوح كتاب ريمونداجيل ، لحسن الحظ ، عدة حقائق تتعلق بالرجل نفسه ، تعليمه ، وميوله ، ومشاعره ، وتحيزه . وقد كتب رنسيमान ، فى نقده لكتابنا عن ريموندسانجيل ، أننا نرى أن ريمونداجيل كان غيبيا ، وغير دقيق ، ومتحيزا ^(٢٦) . إلا أننا كنا نهدف إلى إعطاء انطباع بأنه كان مؤمنا بالخزعبلات ، ومتحيزا ، وغير مهتم بالتفاصيل ، ولكننا لم نكن نريد أن نوصل فكرة أنه كان غيبيا . وكان ريمونداجيل أمينا حين اعترف بنواقصه ، ولكنه مثل معظم كتاب عصره ، كان يمت سرقه المؤلفات دون الشعور بوخز الضمير . وكان صريحا فى طلب الصفح من الرب ، وكونت تولوز ، والجيش المسيحى . ولكن كان للكاهن الطيب إنحرافاتة التى يمكن اكتشافها بسهولة . وكما فعل الكثيرون من كهنة عصره ، فقد ألقى ريمونداجيل بمسئولية الكوارث العسكرية الصليبية على الداعرات . وكذلك فقد كره البيزنطيين ولم يبذل جهدا ليشق فى مناصرتهم للقضية الصليبية . ولكونه ميالا إلى المبالغة فى إظهار بسالة الصليبيين ، فقد بالغ فى وصف المعارك بمادة شعائرية ، وقدم لنا المعجزات لينعش الأحداث الكثيرة للحياة اليومية . ويشير استخدامه للمادة التاريخية المتعلقة بتاريخ القديسين إلى مهارته أكثر مما يشير إلى سذاجته . وقبل كل شىء ، فهو يكشف عن حساسية معينة للأحداث التى تدور من حوله ، وأحيانا بصدمة قارئة بطرح تساؤلات تتعلق بشرعية الحروب الصليبية .

وبصفة عامة ، فإن التاريخ الذى وضعه ريمونداجيل يكشف عن رجل على درجة متوسطة من التعليم ، بارع فى أداء الطقوس الكنسية ، ومتشرب بالآراء المادية للنصر النهائى للمسيحية ، رجل حول أحداث الحملة الصليبية الأولى إلى تاريخ إرشادى ، ذلك التاريخ الذى جاء محيراً بقدر ما أوضح من أمور . وباختصار ، فإنه بالمعايير الحديثة للسيرة الذاتية ، فنحن نعرف القليل عن ريمونداجيل . ولسوء الحظ ، فإن نقص المعلومات غير المرضي هذا ينطبق على مخطوطات كتابه .

مخطوطات الكتاب :

توجد سبعة مخطوطات كاملة أو شبه كاملة لكتاب ريمونداجيل ، كما توجد عدة روايات غير كاملة أو مُحَرَّفة للكتاب . والمخطوط الذي وقع عليه إختيارنا لنقوم بترجمته هو مخطوط سان فيكتور St. Victor الرائع (Ms Latin 14,378) وهو من مقتنيات المكتبة الأهلية بباريس . ويضم هذا المخطوط ، على التوالي ، أعمال كل من فولشر أوف شارتر ، ووالتر المستشار^(٢٧) ، وريمونداجيل ، وقد أصبف هذا الأخير ، كما أشير علينا ، لأن الرواية استمرت فى تفاصيل أكثر مما جاء فى تاريخ فولشر . وتوجد أيضا نسخ من كتاب ريمونداجيل ممزوجة بتاريخ كل من فولشر ووالتر فى المخطوط Ms Latin 5131 الذى تملكه أيضا المكتبة الأهلية بباريس ، وفى المخطوط Ms Latin 1102 ، بمكتبة الأرسنال بباريس ، والمخطوط Ms Latin 262 بمكتبة دى لافيل بكليرمونت ، والمخطوط Ms Latin 261 بمكتبة برن ، والمخطوط Ms Latin 8927 بمكتبة المتحف البريطانى . أما المخطوط Ms Latin 5511 A بالمكتبة الأهلية بباريس ، فيحتوى فقط على كتاب ريمونداجيل ويحمل عنوان « تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس » .

وفى النسخة المطبوعة لكتاب ريمونداجيل ، أدرج بونجارز Bongars فى بداية القرن السابع عشر الميلادى فى كتابه « أعمال الرب التى تمت بأيدى الفرنجة » "Gesta Dei per Francos" ، تاريخ ريمونداجيل مستخدما مخطوط مفقود الآن ، وهو على ما يبدو تنقيحا للنمط الذى يقدمه المخطوط رقم 5511 A ومخطوط برن 261 . وقد استخدم بونجارز أيضا هذا المخطوط كأساس لطبعته ، وليس تحت أيدينا الآن القراءات المضبوطة لهذا العمل المفقود ، لأن بونجارز خلال محاولته لبناء نص من مصدره ، استخدم تهذيبات ، وقدم قراءات من المخطوط 261 (برن) . ونحن متأكدين من أن مخطوط بونجارز قد فقد الأوراق التى تحتوى على رواية معركة عسقلان ، وأن ناسخ المخطوط قد نقل الرواية من مؤلف آخر .

وفى عام ١٨٦٦ م نُشر نص لتاريخ ريمونداجيل فى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية (المؤرخون الغربيون) (RHC - H Occ.) . واستخدم المخطوط 14,378 كأساس مع تنقيحات اقتبست من المخطوط 5131 والمخطوط 5511 A والمخطوط 1102 والمخطوط 262 . ولم تُستخدم مخطوطات برن ولندن فى هذه الطبعة ، مع أنه قد تم اقتباس قراءات مختلفة من هولجارتز . التى يتبع الكثير منها مخطوط برن 261 . وكذلك ، فإن ترجمات كتاب ريمونداجيل لم تحمل إلا القليل من النقد ، وربما لم تحمل شيئا من النقد بالمرّة ، ولم يتم القيام بأى شيء مميز حول منهجه منذ أصدر كليمنس مقالته (٢٨) .

وفى دراستنا للمخطوطات والطبعات المنشورة لكتاب ريمونداجيل وأعمال النقد حوله ، توصلنا إلى أن المناهج التى اتبعتها هذه الأعمال النقدية واتباعها المتخصصون ، لا يمكن أن تكشف عن القليل مما هو جديد فى مجال الدراسة . وقد عملت الطبقات المنشورة على تحديث ترقيم النص وعلامات الوقف فيه . وخلاف ذلك ، فقد حُجبت دليل النُسخ ، بتغيير أقسام المخطوط والتنقيح حسب الرغبة ، وأحيانا دون ملاحظة . وغالبا ما تم تجاهل التورية الأدبية ، والمتطابقات ، وأيضا المقتبسات من الكتب الدينية ومصادر القُداس .

وبحثا عن وسيلة نتبع بها أساليب أكثر فائدة لالتقاط المعلومات من هذه المصادر ، فقد رجعنا إلى المخطوطات لمزيد من الدراسة . ولما تخلىنا عن القيام بجهد للتثبيت من قراءات الأصول المفقودة ، فقد رجعنا إلى مخطوط سان فيكتور، وهى نسخة كاملة من كتاب ريمونداجيل ومحرورة بعناية ، كما تبقت لنا اليوم . واتبعنا ، فى نشر الكتاب ، تشكيل المخطوط (دليل من العصور الوسطى لارتفاع وانخفاض الصوت أثناء القراءة جهرية) والتمسنا الإيضاح الحُر فى المصادر والنماذج التى ربما كان المؤلف على دراية بها ، والمادة التى توجد فى كتب أداء الطقوس الكنسية التى توفرت لديه . والترجمة الحالية لنص المخطوط رقم 14378 الموجود بالمكتبة الأهلية بباريس ، وهى لاتعتمد على المصادر المطبوعة ، وتعكس ما تعلمناه من دراسة ومقارنة المخطوط . وأصبح لا مئاص من أن نتعلم

- خلال دراستنا للمخطوط إلى جانب ترجمة تاريخ ريمونداجيل - أسلوبه ومنهجه ، وفى هذا الصدد يجب أن نقرر أنه كان كاتباً بارعاً يحب أن يجعل الخيال يبدو حقيقة .

الأسلوب والمنهج :

ترك لنا كتاب ريمونداجيل من التاريخ والمعلومات التفصيلية الكثير مما نرغب فيه ، وبالمقابلة مع الجستا ، فإن منهجه يوضح أنه اتجه إلى استخدام معلومات غير معلوماته الخاصة . ومن المحتمل أن يستخف المدققون فى المحافظة على اللغة وقواعدها بعمل ريمونداجيل ، لأن لغته اللاتينية تقابل - بشكل غير ملائم - لاتينية جيورج أوف نوجنت ووليم الصوري وكتاب آخرين كانوا أكثر منه إهتماماً بالأسلوب . ولا يمكن أن نمسك عن التعليق بأن الأسلوب فى حد ذاته ربما يخفى الحقيقة^(٢٨) . ومع ذلك فلدى مؤرخنا موهبة أدبية فى وصف الأحداث . وتعكس بعض فقراته حساسية لبيئته ، وبذلك تملؤها روح الصليبية ، وكانت لاتينية معبرة ، وغالباً ما تكشف عن عاطفة وإحساس إنسانى أكثر مما يكشف الأسلوب المنمق لكتاب جاهدو من أجل التأثير الأدبى . وعلى أية حال ، فسرعان ما يكتشف القارئ أن ريمونداجيل كان - كما يعترف هو بأمانة - رجل كنيسة بسيط ، يعرف ماهو أكثر من كتب الطقوس الكنسية والأمور الدينية المتعلقة بوظيفته . وما يظهر من تلميحات كلاسيكية فى عمله ، فهى عادة ما تكون مقتبسة من كتب الطقوس الكنسية . وهكذا إلتفتنا إلى زخرفة عمله هذه حتى يمكن قراءة كتابه بنهم .

وقد ظلت هذه الزخرفة غير ملحوظة بالنسبة لكثير من العلماء ، ولكن ثمة دراسة عرضية . لتاريخ ريمونداجيل ، قدمت لنا جزءاً كبيراً من استعاراته من كتب الطقوس ، وهى سمة تبديها الروايات الأخرى بدرجة أقل ، والتى نبه إليها لويس بيريه بشكل طفيف^(٢٩) . وتذكرنا لغة ريمونداجيل بمزامير العهد القديم ، وتوحى صلواته بسياقاته عن كفارة الجيش . ويقتبس المؤرخ بحرية ، من الكتب الدينية

المشكوك في صحتها والمحرّفة ، ومن معجزات وحياة القديسين . ولازال المؤرخون الحديثون يرددون روايته الدامية عن نهب المسيحيين للمسجد الأقصى ، وعلى ما يبدو ، دون أن يعرفوا أن المؤرخ قد جعلهم يكررون فقرات من الرؤى (٣٠) . ويدرج ريمونداجيل ترنيمة مع ما جاء في كتب أداء الطقوس الكنسية ، وأحيانا يستخدم نفمة إرشادية (وعظية) لخطبة عن خطايا الصليبيين . ولا يتردد المؤرخ في استخدام جزء من الطقوس التي تُردّد خلف القس الذي يؤدي القداس. وبالمثل ، فإنه يستخدم الأسفار القصيرة مثل « إنهض أيها المسيح » Exsurge Christi وما يردد خلف القساوسة مثل « وحرّرنا » Et Libera nos ، عندما يقع الصليبيون في كمين . ولبعد الفرنج بمساعدة آتية من الرب يستخدم الترتيلة « أنتم جميعا » Vos Omnes مع جزء من المزامير يتلى قبل وبعد الصلاة الربانية . ومن هذه الأمثلة القليلة نود أن نصور كاهنتنا (ريمونداجيل) جالسا على مكتبه محاطا بكتب الطقوس ، التي تتضمن نسخة من تاريخ المقابيين ، وربما مع مصدر عام للحروب الصليبية ، وهو يعاني من البرد والحرب بينما هو يشرح للمتشككين وسائل الرب الغامضة ، وأخيرا وهو يتنفس الصعداء عندما ينتهي من وضع تاريخه بسعادة بالغة (٣١) .

وهكذا ، فنحن مضطرين - ونحن نواجه هذه الوفرة من كتب الطقوس الدينية - كما لاحظنا من قبل ، أن ننظر إلى ريمونداجيل كمؤلف ، يستعرض قدرة وثقافة أدبية . وهو يفهم الشكل المقبول لأسلوب وصفه أحسن وصف البروفيسور رادولف ويلارد Rudolph Willard كخيال كنسي ، كما يظهر ريمونداجيل مقدرة ملحوظة على مزج الحقائق العريقة في تخيل عاطفي وديني (٣٢) . وقد مكنته مهارته في هذا المجال من أن يخدع كثير من المؤرخين . فقد أحاط روايته جيدا بإطار صممه بعناية . فالأحداث التالية تلقى بظلالها إلى الامام ، وهكذا يظهر أن تطلعاته الأدبية تفوق رغبته في تسجيل روايته يوما بيوم أثناء رحلته إلى بيت المقدس . ويستعير المؤرخ عبارات من الأدب الكلاسيكي (الروماني) ربما بأسلوب الكتب الكنسية ، وبصفة خاصة من معلوماته عن أعمال القديس أمبرواز

Ambrose . ومع ذلك ، فهو يستخدم تلك العبارات بطريقة تتناسب مع القيم الوصفية ، ويعتد بجمالها .

ويستعين المؤلف بالأناجيل ليؤكد عدالة المناسبة ، ويبذل جهده ليعطى لروايته وضعا دنيويا . ويُشهد على حقيقة المعجزة إثنين أو أكثر من شاهدى العيان كما فى كتاب العظات ، والعهد القديم والعهد الجديد . فقد أصيب بطرس بارثلميو مكتشف الحرية المقدسة بحروق طفيفة عندما مر باختبار النار ، بسبب شكوكه المبكرة حول الحرية . وتكشف لنا روايته كلها عن الحرية ، إلى جانب كل تشعباتها . عن إختلاق ماهر للأحداث . وحتى فى وصفه لأردية الزوار السماويين ، فإن الراهب الطيب كان حريصا على أن يقدم لنا تفاصيل تقوم على نماذج أيقونية كانت شائعة آنذاك (٣٣) .

وبالإضافة إلى ذلك ، فقد استخدم ريمونداجيل شعارا أدبيا صار ذا شعبية بعد عدة سنوات ، عندما استعرض المهتمون بإحياء العلوم القديمة درايتهم باللاتينية ، بتوجيه السباب إلى عدو وهمى ، وبذلك يقودون قراءهم إلى التشوق إلى معرفة اسم الشخص المسكين ، وفى اللحظة الأخيرة يحرمون جمهورهم من متعة اكتشاف ذلك بكتابة تعبير « لاسمع الله » . وبالنسبة لريمونداجيل فسيأخذ قراءة حتى باب الماخور ، وعبث الراقصات ، واغتصاب النساء الصارخات ، ولكنه يتوقف ، تاركا مشاهديه لخيالهم . وعلى العكس من ذلك ، فإنه إلى جانب ذلك ، يستمتع بلذة وصف أعمال سفك الدماء العنيفة .

وأحيانا ، يكشف ريمونداجيل عن موهبة أدبية كما ثبت ذلك ببعض الأمثلة. فيذكر الخلافات بين البيزنطيين والبروفنساليين باختصار شديد ، ثم يسارع إلى إخبار قراءه « هل اكتب عن أبشع خيانة حملتها مشورة الامبراطور ؟ أم أسجل الهروب المشين لجيشنا ، وعجزه الذى لا يمكن لأحد أن يتصوره ؟ على العكس من ذلك ، فليستفسر من شاء أن يعرف ذلك من غيرنا » (٣٤) .

ومثل الكثيرين من كتاب العصور الوسطى ، فقد تفوق ريمونداجيل فى

الكتابة الوصفية ، كما هو موضح في الفقرات التالية . فبعد انتصار كونت الفلاندرز بالقرب من أنطاكية ، يروي ريمونداجيل أنه كان بإمكان الشخص أن يرى « القتلى منطرحين بطول الطريق مثل حزم القمح زمن الحصاد » ^(٣٥) . وبتنهج ريمونداجيل متتبعا هزيمة أهل طرابلس حين كتب « لقد كان مشهدا مبهجا ، والمياه المتدفقة في المجرى المائي تدرج أجساد النبلاء والدهماء إلى طرابلس دون رؤوسهم » ^(٣٦) . كما يجعل ريمونداجيل أن لا طائل من الخطيئة حين يحكى عن مصارع الفرسان الأتراك حين قفزوا من جرف هاو ليهربوا ممن يلاحقونهم من الفرنج . فيعتقد أن ذلك كان مشهدا يسر الرب ، ولكن فقدان الخيول كان أمرا مزعجا بالنسبة له ^(٣٧) . وربما يدرس القارئ تاريخ ريمونداجيل ، وهو متنبه بهذه المعلومات ، بشكل نقدي ، وهو يتذكر دائما أن المؤلف يعالج التاريخ معالجة لها غاية . وهكذا ، فقد أثار كتاب ريمونداجيل مشكلة فهم منهجه وكذلك مشكلة ترجمة تاريخه لتقديمه لقراء القرن العشرين دون الهجوم على مؤلفه الأدبي الكبير .

الترجمة

لقد اضطلعنا بمهمة القيام بهذه الترجمة منذ عدة سنوات مضت - إلى حد بعيد - نتيجة للمساندة التي تلقيناها من الجمعية الفلسفية الأمريكية في شكل ثلاث منح . كما تلقينا العون من الجامعة الزراعية والميكانيكية بتكساس ، وجامعة هوستون . وأثناء القيام بهذا الجهد ، قمنا بإنجاز عدة ترجمات ومراجعات . وفي النهاية ، وبعد بحث دقيق ، قررنا أن نقوم بترجمة بتصرف ، وبذلك أخضعنا أنفسنا للنقد المتوقع من قبل المدققين في المحافظة على اللغة وقواعدها . وبعد التعمق المبدئي ، شعرنا أننا تمكنا - بنوع ما - من استعادة روح ريمونداجيل وجعلنا من تاريخه جزءا من تاريخ البشرية ، أكثر من أثر جاف تبقى لعلماء اللغة اللاتينية . وبذلك نابنا عن التعبيرات التي غالبا ما ملأت الترجمات الوسيطة . فحذفنا ضمير المخاطب « أنت » " thee " « وأنت » thou (التي تستعمل لعدم الكلفة) وتحررنا كثيرا من التركيبات اللفظية لإيضاح المعاني . ومثل كل

الترجمات ، سيكون هناك بلاشك من الأخطاء مايسعد المتفحص لهذه الترجمة .
ولكننا نأمل فى أن يكون القارىء أكثر اهتماما بتدقيق الرواية ، وهى قصة مستنها
عواطف مجموعة جاهلة من اللاتين قاموا بالإرتحال لاسترداد القبر المقدس .
ويكشف ريمونداجيل بأسلوبه البسيط عن آمالهم ومخاوفهم ، وابتهاجاتهم ، وسجل
يأس الضعفاء منهم ، وبطولة من سقطوا قتلى فى ميدان القتال ، كما سجل
رجاءهم فى الجزاء السماوى ، وتساؤل القلب البشرى لماذا تكون الحرب هى مشروع
الرب .

* * * * *

هوامش مقدمة الترجمة الإنجليزية

John L. La Monte, Some problems in Crusading Historiography, in (١)
speculum, 15, 1940, pp. 57 - 75.

Hans E. Mayer, Bibliographie zur Geschichte der Kreuzzüge, Hannover, (٢)
1960.

D.C. Munro, The Speech of Pope Urban at Clermont, 1095, in A.H.R., (٣)
11, 1906, PP. 231 - 242, F. Duncalf, The Councils of Piacenza and
Clermont, in setton, vol. 1, p. 237 - 247.

M.W. Baldwin, some Recent Interpretations of Pope Urban's Eastern, (٤)
Policy, in C.H.R., 25, 1940, pp. 459 - 466; A.C. Krey, Urban's Crusade-
Success or Foilure, in A.H.R., 53, 1948, pp. 235 - 250, James A.
Brundage, Recent Crusade Historiography, Some observations and
Suggestions, in C.H.R., 49, 1964, pp. 493 - 507.

ويقدم فريدريك دنكوف قائمة شاملة للمراجع الأدبية في هذا الموضوع .

Frederic Duncalf, op. cit., p. 221, n. أنظر :

P. Alphandéry and A. Dupront, La Chrétienté et l'idée de Croisade, (٥)
Paris, 1954; C. Erdman, Die Entstehung des Kreuzzugsgedanken, stuttgart,
1935; P. Rousset, Les Origines et caractères de la première croisade,
Neuchâtel, 1954; M. Villey, La Croisade : Essai sur la formation d'une
théorie juridique, Paris, 1942.

R.C. Smail, Crusading Warfare (1097 - 1193), Cambridge, 1956; (٦)
Heinrich Hagenmeyer, Chronologie de la première croisade, in R.O.L., 6-8,
Paris, 1898 - 1901; J. C. Anderssohn, The Ancestry and life of Godfrey of
Bouillon, Bloomington, 1947; Charles W. David, Robert Curthose, Duke
of Normandy, Cambridge, 1920; J.H. Hill and Laurita L. Hill, Raymond -

IV de Saint- Gilles, Toulouse, 1959, and translation, Raymond IV, Count - of Toulouse, Syracuse, 1962; Marshall M. Knappen, Robert II of Flanders in the First Crusade, in Crusades and other Historical Essays presented to Dana C. Munro, New York, 1928, pp. 79 - 100; Robert Lawrence Nicholson, Tancred, A study of his career and work in their relation to the First crusade and the establishment of the Latin states in Syria and Palestine, Chicago, 1940; R.B. Yewdale, Bohemond I, Prince of Antioche, Princeton, 1917.

Steven Runciman, A History of the crusades, 1, Cambridge 1951. (٧)

A.S. Atiya, The Crusade : Historiography and Bibliography, Bloomington, (٨) 1962.

F. Duncalf, The Pope's plan for the First Crusade, in The Crusades and (٩) other, Historical Essays presented to Dana C. Munro, New York, 1928, pp. 44 - 56.

H. Hagenmeyer, Die Kreuzzugsbriefe aus, den Jahren 1088 - 1100, (١٠) Insbruck, 1901; P. Riant, Inventaire critique des lettres historiques des croisades, in A.O.L., 1, 1881.

Fulcherius Carnotensis, Historia Hierosolymitana Gesta Francorum (١١) Iherusalem Peregrinantium, in R.H.C. - H. Occ., vol. 3; Historia Hierosolymitana. Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium, ed. H. Hagenmeyer, Heidelberg, 1913. Mary E. Mc Ginty, Fulcher of Chartres, Chronicle of the First Crusade, Philadelphia, 1941.

والعمل الأخير عبارة عن ترجمة جزئية لكتاب فولشر . ويعمل هارولد فينك الآن في ترجمة كاملة له . ويعتقد بعض المؤرخين أن فولشر قد بدأ تاريخه في عام ١١٠١ م . فإذا كان الأمر كذلك ، فإن ذلك يبين أن عمل ريمونداجيل كان قد أتم . وعلى أي حال ، فليس لدينا دليل قاطع على ذلك .

Anna Comnena, Alexiade, ed. B. Leib, in Collection byzantine de (١٢)
Association Guillaume Budé. Paris, 1937 - 1945. E.A.S. Dawes, The
Alexiad of the Princess Anna Comnena, London, 1928.

Petrus Tudebodus, Historia de Hierosolymitano itinere, in RHC Occ., 3, (١٣)
Paris 1866.

H. Hagenmeyer, Anonymi Gesta Francorum et aliorum Hierosolymitano- (١٤)
rum, Heidelberg, 1890; Louis Bréhier, Histoire anonyme de la première
Croisade, in Les Classiques de l'histoire de France au Moyen Age, 4, Paris,
1924.

وللمزيد عن الطبقات الأخرى والأعمال النقدية حول هذا الكتاب انظر :

H. Mayer, Bibliographie.

Runciman, op. cit, p. 329. (١٥)

"Documents relatifs à - l'histoire des crois- :
ades" (l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres).

A.C. Krey, The First crusade, Princeton, 1921. انظر أيضا :

قام كرى بترجمة عدد من المصادر ومزجها في رواية عن الحملة الصليبية الأولى .

Collection des memoires M. Guitoz تاريخ ريمونداجيل في
relatif à l'histoire de France, No. 21, Paris, 1824.

ولم يقدم جويتوز ترجمة نقدية ولا هوامش .

Willelmus Tyrensis archiepiscopus, Historia rerum in partibus (١٦)
transmarinis gestarum, in RHC Occ, 1, Paris, 1844; William of Tyre, A
History of Deeds Done Beyond the seas, trans. by E.A. Babcock and A.C.
Krey, 1, New York, 1943; Albertus Aquensis, Historia Hierosolymitana,
in R.H.C. Occ, 4, Paris, 1879.

ولقد تأثر وليم الصوري بتاريخ ألبرت دكر .

- وبارون مونخاوزن هو بطل قصة ألمانية خيالية وضع عنها R.E. Raspe كتابا
بالإنجليزية مليئا بالمغامرات . (الترجمة العربية).

John Hugh Hill and Laurita L. Hill, Raymond IV de Saint-Gilles, see n.6. (١٧)

(١٨) هذه المعلومات مستقاة من مقدمة ريمونداجيل . انظر مايتقدم ، ص ٥٤ .

(١٩) John Hugh Hill and Laurita L. Hill, Contemporary Accounts and the Later Reputation of Adhémar, Bishop of Puy, in MH,9, 1955, pp. 30-38; James A. Brundage, Adhémar of Puy and His Critics, speculum, 34, 1959, pp. 201 - 212; H.E. Mayer, Zur Beurteilung Adhemars von Le Puy, in DA, 16, 1960; Jean Richard, Raymond D'Aguilers, Historien De la Première Croisade, in JS, 1960 - 61, pp. 206 - 212.

(٢٠) Pierre - Roger Gaussin, L'Abbaye de la Chaise - Dieu (1043 - 1138), Paris, 1960, pp. 1130 - 132.

ويبرز هنا الكتاب الممتاز تأثير كنيسة Chaise - Dieu على حياة ريمونداجيل .

(٢١) Ibid, pp. 70 - 72.

(٢٢) Runciman, op. cit., p. 328.

(٢٣) انظر ما يتقدم ، ص ٥٤ .

(٢٤) Runciman, op. cit., p. 328; A.C. krey, The First Crusade, p. 9, n. 15.

(٢٥) لم ندرج القراءات من المخطوط (MS Latin 5131 A) الموجود بالمكتبة الأهلية بباريس ، والذي يرجع إلى القرن الخامس عشر الميلادي ، لأنه متأخر زمنيا ، ولأنه به محاولة لمزج تاريخ فولشر وتاريخ ريمونداجيل ، كما لم ندرج قراءات المخطوط (MS Latin 6041 A) لأنه متأخر زمنيا وغير كامل . كما أن المخطوط (MS Harley 4340) الموجود بالمتحف البريطاني لأنه يحمل العنوان خطأ ولا يحتوى على كتاب ريمونداجيل .

(٢٦) لستيفن رنسيومان نقد لكتاب « ريموند الرابع دي سان جيل » انظر :

E H R, July, 1961, pp. 515 - 16.

(٢٧) يعتبر والتر المستشار Walter the Chancellor أول المؤرخين اللاتين الذين نشأوا في الشرق . وقد وضع كتابه « الحرب الأنطاكية » Bella Antiochena بتكليف من روجر دي سالرنو أمير أنطاكية (١١١٣ - ١١١٩ م) ويعالج الكتاب الفترة من ١١١٤م إلى ١١١٨م

== ١١٢٢ م . وأهم ما يحتويه ، إلى جانب حروب روجر ضد السلاجقة ، المعلومات الجغرافية عن بلاد الشام . ويعد والتر آخر من أنجيه المجتمع اللاتيني بشمال الشام من مؤرخين ، وآخر من اهتم بسرد تاريخ إمارة أنطاكية الصليبية . وكتابه منشور في الجزء الخامس من مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية (المؤرخون الغربيون) . انظر : حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ، ص ٣٣ - ٣٤ . (الترجمة العربية) .

(٢٨) أنظر ما سبق ، حاشية ١٥ . راجع أيضا :

Clemens Klein, Raimund Von Aguilers, in Quellenstudie zur Geschichte des ersten kreuzzuges, Berlin, 1892.

Krey, The First Crusade, p. 8. (٢٩)

Louis Bréhère, op. cit., p. 131, n. 4. (٣٠)

(٣١) انظر ما يتقدم ، ص ٢٤٧ .

(٣٢) سنذكر مصادر هذه الأشكال المختلفة في حواشي الترجمة ، انظر ما يتقدم ، ص ٩٦

حاشية رقم ١١ على سبيل المثال .

Radulf Willard Two Apocrypha in Old English Homilies, in Beitrâge zur Englischen Philologie, 30, 1935, p. 2. (٣٣)

(٣٤) انظر ما يتقدم ، ص ٢٠٤ - ٢٠٧ . والمقصود باختبار النار ذلك الذي مر به بطرس بارتلميوس .

(٣٥) انظر ما يتقدم ، ص ٧٠ .

(٣٦) انظر ما يتقدم ، ص ٩٠ .

(٣٧) انظر ما يتقدم ، ص ٢١٦ .

(٣٨) انظر ما يتقدم ، ص ١٢٠ .

تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس كتبه ريموند اجيل (راخب نوتردام دى بويه)

يلتمس بونز أوف بلازون Pons of Balazun ^(١) ورئسوند ، راهب لى بويه ^(٢) ، منك ياسيدى ، أسقف فيفييه Viviers ^(٣) ، ومن كل مستقيمى العقيدة مباركتكم ومشاركتكم فى عنائنا . ونقوم بوضع هذا الكتاب لنخبركم وكل شعب ماوراء الألب بكل الأعمال المجيدة التى نفذها الرب ، بكرمه المعتاد على الدوام ، من خلالنا . وسوف تعين هذه المهمة التى اضطلعنا بها - أساساً بسبب عدم موائمة الحرب ، ومن هنا دأب الآبقين على نشر الأكاذيب دون الحقيقة - قراء المستقبل على تجنب صداقة ومشورة مثل هؤلاء المرتدين ، لأن أعمالهم ستكون كتاباً مفتوحاً . وجدير بالتسجيل أن جيش الرب ، بالرغم من أنه تحمّل سوط الرب بسبب خطاياهم ، ومع ذلك انتصر على كل الوثنيين بسبب عطف الرب الودود . ولكن يبدو أنه أمر شاق جداً أن نكتب عن كل رحلة ، لأن بعض الصليبيين عبروا ولماشيا Sclavonia ^(٤) . وعبر آخرون بلاد المجر ^(٥) ، ولومبارديا ، أو ذهبوا بحراً . لذلك ، فقد كان محل اهتمامنا هو الكتابة عن كونت سانجيل ^(٦) ، وأسقف لى بويه ^(٧) ، وجيشهم ، دون القلق بشأن الآخرين .

* * * * *

هوامش مقدمة ريمونداجيل

(١) بونز أوف بلازون ، المؤلف المشارك لكتاب ريمونداجيل ، من المحتمل أنه كان فارسا من دوقية فيفييه . وهناك عدة أشكال لإسمه ومنها Baladun, Ballon, Balun . ولقد لقي حتفه أثناء حصار عرقة ، وأكمل ريمونداجيل الكتاب بنفسه .

(٢) ريمونداجيل راهب مدينة Le Puy هو مؤلف « تاريخ القرلجة غزاة بيت المقدس »
أنظر : Runciman, op. cit., pp. 328 - 329.

(٣) كان أسقف فيفييه زمن الحملة الصليبية الأولى شخص بدعي لجر Leger . وتقع فيفييه إلى الجنوب الشرقي من Chaise - Dieu, Le Puy (كرسى الرب) وكانت منضمة إلى الأخيرة التى كانت كنيسة ريموند كونت تولوز المفضلة . أنظر :

Dom. Cl. Devic ande Dom. J. Vaisette, Histoire générale de Languedoc, in HGL., 3, p. 542.

(٤) سكلافونيا هو الاسم الذى أطلقه ريمونداجيل على دلماشيا ، موطن السلاف . ومن المحتمل أن وصفه لدلماشيا أرض مهجورة ، صعب الوصول إليها . جبلية ، مقتبس من المزامير (Psalm, 62 : 3) وهذا المزمور « يارب . يارب . ياربنا » " Deus. Deus. Meus " يردد فى صلاة الأحد ، عند أداء التسابيح الصباحية التى تمجد الرب ، وفى صلاة الموتى عند أداء هذه التسابيح ، وفى مثل هذه المناسبات الأخرى التى يستلزم فيها كتاب الصلوات ترديد مزامير الأحد .

(٥) مرت المجر بفترة سلام قبل الحروب الصليبية بفضل جهود الملك لاديسلاس (١.٧٧ - ١.٩٥ م) . وكانت مشكلة الملك كولومان الذى خلف لاديسلاس هى كيفية كبح جماح الجيوش الصليبية .

(٦) غالبا ما استخدم المؤرخون اللاتين والمؤرخون المسلمون اسم كونت سان جيل للإشارة إلى كونت تولوز . وكانت سان جيل - زمن الحملة الصليبية الأولى - مدينة مزدهرة ، وتقع عند مصب نهر الرون .

- درج المؤرخون المسلمون على تسمية كونت تولوز باسم الصنجيل . انظر : ابن الأثير :
الكامل ، ج ١ ، ص ١٤٣ . (الترجمة العربية) .

(٧) المقصود بأسقف لي بويه Le Puy هو أدهيمار .

- وقد عينه البابا أوربان الثاني رئيساً دينياً للحملة الصليبية الأولى إلى جانب رئيسها
العلماني ريموند كونت تولوز . انظر :

Runciman, op. cit., vol. 1, pp. 109 - 110.

(الترجمة العربية) .

بسم الله الرحمن الرحيم

« قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً . الذين ضل
سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم
يحسنون صنعا »

صدق الله العظيم

(الكهف ١٠٣ - ١٠٤)

الفصل الأول

الرحلة عبر دلماشيا وغدر البيزنطيين

وبعد الرحيل ، دخل الجيش إلى دلماشيا ، وعانى كثيرا من الصعوبات خلال فصل الشتاء . وفى الحقيقة ، فإن دلماشيا أرض مهجورة ، وصعب الوصول إليها ، وهى جبلية ، حيث لم تقع أنظارنا على حيوانات برية أو حتى طيور . أما سكانها الهمجيون ^(٨) ، فلم يتاجروا معنا ، ولم يمدونا بالأدلاء ، بل إنهم هربوا من قراهم وتحصيناتهم ، وكأنه وقع بهم أذى شديد من شاردينا واهنى القوى ، فقد أزهقوا هذه الأرواح المسكينة - المنهكين ، النساء والرجال العجائز ، الفقراء والمرضى - كما لو كانوا مواشى ذبح ، ولاعتياد السلاف على المناطق الريفية ، فقد كان من الصعب على فرساننا ثقيلى التسليح أن يطاردوا هؤلاء اللصوص غير المسلحين فى جوف الجبال الوعرة والغابات الكثيفة ^(٩) . إلا أن قواتنا قد صبرت على قطاع الطرق هؤلاء ، لأنه لم يكن فى استطاعة جنودنا أن يقاتلونهم فى الحلاء ، أو يتجنبوا مناوشاتهم .

ونقطع روايتنا عند هذه النقطة ، لنروى قتالا مجيدا للكونت فى أحد الأيام ، على الطريق عندما اندفع ريموند وفرقته ، عندما وجدوا أنفسهم محاطين بالسلاف ، وأسروا حوالى ستة منهم ^(١٠) . وأدرك الكونت ، وقد ضغط عليه الآن رفاقهم المتوعدون بشدة ، أنه مضطر إلى اقتحام صفوفهم ، حتى يصل إلى قواته ، وهكذا أصدر أمرا بسمل أعين بعض أسراه ، ووتر أقدام البعض ، وجدع أنوف وأبدى الباقين وإخلاء سبيلهم . وهكذا ، سلم هو ورفاقه ، بينما تملك الأعداء الرعب بسبب المنظر البشع الذى كان عليه زملاؤهم المشوهين ، وأقعدهم الحزن . وبهذه الوسيلة نجا الكونت من خطر الموت ، ومن هذا المكان الخطر بفضل إحسان الرب .

وفى الواقع ، نجد أنه من الصعب أن نسجل الشجاعة والحكمة التى أظهرها ريموند فى دلماشيا (١١) . وسرنا لمدة أربعين يوما تقريبا . فى هذه البلاد ، أحيانا

نواجه سحب الضباب ، ونكاد نلمس هذه الأبخرة وندفعها بأجسادنا إلى الأمام^(١٢) . ووسط هذه المخاطر كان الكونت يحى دائما أناسه بالقتال فى مؤخرة الجيش ، وبالبقاء حتى يكون هو آخر من يصل إلى مركزه فى الركب . وربما كان البعض يعود إلى المعسكر وسط النهار أو عند غروب الشمس ، إلا ريموند ، فدائما ما كان يصل إلى خيمته فى منتصف الليل أو عند صياح الديكة^(١٣) .

وعبرنا دماشيا دون خسائر بسبب الجوع أو الصراع المكشوف ، برحمة الرب ، وبأعمال الكونت ومشورة أدهيمار . ويرشدنا هذا العبور الناجح ، للبلاد الهمجية ، لنؤمن بأن الرب أراد لجيشه من المحاربين أن يعبر دماشيا كى يبرأ الهمجيون والوثنيون ، فى وقت من الأوقات ، من همجيتهم ، أو يساقوا ، مثل المخطئين غير المغفور لهم ، إلى عذاب الرب .

وعند وصولنا إلى سكوتارى Scutari^(١٤) بعد رحلتنا الشاقة عبر دماشيا ، أكد الكونت مبدأ الأخوة (١٥) ، ومنح ملك السلاف العديد من الهدايا حتى يتسنى للصليبيين أن يشتروا احتياجاتهم فى سلام ، ويبحثوا عن ضروريات الحياة^(١٦) . إلا أن هذا لم يكن إلا وهما ، لأننا ندمنا بمرارة على ثقتنا فى السلام الوهمى ، حين انتهز السلاف فرصة هذه المناسبة ، وقاتلوا بوحشية ، وذبحوا قومنا ، واختطفوا ما أمكنهم إختطافه من العزل . وربما تُصدّقوا إذا قلت أننا كنا نصلى من أجل ملاذ وليس من أجل الانتقام^(١٧) ، ولكن لماذا نستمر فى سرد قصة دماشيا الكتيبة هذه .

وعند ضرب الخيام بالقرب من دورازو^(١٨) ، كنا على اقتناع بأننا فى بلادنا ، لأننا صدقنا أن ألكسيوس وأتباعه كانوا اخواننا المسيحيين وحلفاءنا . ولكنهم فى الحقيقة انقضوا بوحشية الأسود ، على رجالنا المسلمين ، الذين كانوا فى غفلة عما يحتاجونه للدفاع عن النفس . وقام قطاع الطرق هؤلاء ، وهم يعملون ليلا ، بذبح أهلينا فى الحدائق ، وفى الأماكن النائية عن المعسكر ، وسرقوا منهم ما استطاعوا سرقته . وبينما كان البيزنطيون يتصرفون على هذا

المنوال دون ردع ، فقد وعد قائدهم حنا كومنين ^(١٩) بالسلام ، ولكنهم أثناء هذه المعاهدة ، قتلوا بونتيوس رينو Pontius Rainaud ، وجرحوا شقيقه بطرس جرحا قاتلا ، وهما أميران فى منتهى النبيل ^(٢٠) . وتوفرت لنا الفرصة للإنتقام ، لكننا استأنفنا مسيرتنا ، مفضلين إثبات الظلم الذى وقع بنا . وفى الطريق وصلتنا خطابات تتحدث عن الأمن والأخوة ، وربما جاز لى أن أقول ، بالبنوة ، من قبل الامبراطور ^(٢١) ، لكن هذه كانت كلمات جوفاء ، لأنه من أمامنا ومن خلفنا ، وعن يميننا وعن يسارنا ، كان الأتراك والكومان والغز ، والشعوب المتشبهة - البجناك والبلغار - مترصين بنا ^(٢٢) .

* * * * *

هوامش الفصل الأول

(٨) عن تاريخ رحيل القوات البروفنسالية . انظر :

J. H. Hill and L. Hill, Raymond IV, pp. 38 - 39.

ومن المحتمل أن تكون قوات ريموند قد رحلت خلال سبتمبر أو أكتوبر . انظر :

Norman Golb, New light on the Persecution of French Jews at the time of the first Crusade; in PAAJR, 34; 1966, pp. 1 - 63.

حيث يلتقى جولب الضوء على الاضطهاد اليهودى فى جنوب فرنسا . ونميل إلى الاعتقاد بأن البروفنساليين لم ينشغلوا بمثل هذه الحركات التى قامت فى ألمانيا . فقد احتل اليهود مركزا أعلى فى جنوب فرنسا . ومن المؤكد أنه كانت هناك إنتفاضات مضادة لليهود قامت بها عناصر غير منضبطة فى الجيش البروفنسالى . وقد استخدمت تعبيرات « الهمجيون » و « الجهلة » فى العصور القديمة . انظر :

Cicero, Oration for A. Licinius Archias, 8.

(٩) قام الصليبيون بمطاردة السلاف فى « قلب الجبال الوعرة والغابات شديدة الكثافة » دون طائل . ولابد أن هذا التعبير مقتبس من القديس أمبرواز « عن المزمور الأول » . انظر : MPL, 14, cols. 932 - 935.

(١٠) أن كونت تولوز « أطبق على » السلاف . هو تعبير عادة ما كان يستخدم فى اللاتينية القديمة . انظر : Caesar, The Gallic War, 1, 22.

وقصة مناوشة ريموندسانجيل للسلاف هى إحدى الروايات التى وُضع فيها الكونت يحبط به الخطر مع قلة من رفاقه . وهو قادر على يخرج سالما من الخطر بفضل فكره المتوقد وتصرفه السريع .

(١١) كانت خصال ريموندسانجيل « الشجاعة والحكمة » ضمن الخصال التى حددتها القديس أمبرواز ليتحلى بها رجال الإكليروس والأباطرة ومن يعاونوا فى الحكم . انظر :

St. Ambrose, De Officiis Ministrorum, in MPL, 16, Cols. 60 - 76.

(١٢) استخدم تعبير « أربعين يوما » بشكل رمزى . لقد كان ريمونداجيل على علم بمغزاه فى الأدب المتعلق بالعهد القديم .

- كان معدل سير قوات كونت تولوز حوالى ١١ ميل فى اليوم الواحد . انظر : =

John W. Nesbitt, The rate of march of Crusading Armies in Europe; in Traditio, vol. 19, 1963, p. 176.

(١٣) كان ريموند آخر من يعود إلى المعسكر « عند الفجر » . إقتبس المؤرخ هذا التعبير من إنجيل مرقس . انظر : Mark, 13 : 35.

(١٤) سكوتاري Scutari هي إحدى مدن العصور الوسطى ، وتعرف الآن باسم شكودر Shkodër في ألبانيا . ولقد وصل الجيش البروفنسالي إلى سكوتاري حوالى نهاية يناير ٩٧٠ م .

(١٥) كثيرا ما استخدم ريمونداجيل تعبير « الأخوة » . انظر :

William Daly, Christian Fraternity the Crusaders, and security of Constantinople (1097 - 1204), in MS, 22, 1960, pp. 43 - 91.

- يعتبر ذكر ريمونداجيل لقرار قادة الحملة بإنشاء صندوق (رصيد) لضمان استرداد الخيول هو أول النصوص التاريخية التى تحكى هذا التقليد الذى يسميه المؤرخ confraternitas . فقد تطور هذا التقليد بين الفرنج فى بلاد الشام ، وسرعان ما تكونت جماعات (الأخوة الدينية الصليبية) ، وأصبحت نواة لفكرة جماعات الفرسان مثل الداوية والاستتارية والتبوتون ، كما كانت نواة لقيام نظام القومومات فى الامارات الصليبية المختلفة . راجع مقدمة الترجمة العربية ص ٣٣ .
(الترجمة العربية)

(١٦) يعتقد رنسيمن أن كونت تولوز قد ساوم بودين Bodin ، الأمير الصربى فى سكوتاري . - بالرجوع إلى رنسيمن ، نجد أن مصدر معلوماته الوحيد فى هذا الصدد هو ريمونداجيل . ولم يزد رنسيمن عما سجله مؤرخ حملة كونت تولوز شيئا سوى إسم الأمير الصربى . انظر : Runciman, op. cit, p. 161.
(الترجمة العربية)

(١٧) حذر القديس أمبرواز من الانتقام . انظر :

St. Ambrose, De Officiis, MPL, 16, col. 62.

- كان أمبرواز حاكما لميلاتو واختير أسقفا لها فى عام ٣٧٤ م بناء على رغبة أهلها إبان المشكلة النيقية الأريوسية فى عهد الامبراطور فالنتينيان (٣٦٤ - ٣٧٥ م) . وبعد توليه الأسقفية أخذ أمبرواز فى دراسة الكتاب المقدس ومؤلفات آباء الكنيسة وخاصة اليونان . ووضع رسالة عن الايمان المسيحى De Fide وكتابه عن وظائف الاكليروس =

= الذى اقتبس منه ريموند أجيل كثير من الفقرات - متأثرا فيه بالمفكر الرومانى الأشهر شيشرون Cicero وكتابه عن الوظائف De Officiis ، وإن كانت معالجة أمبرواز للفضائل تغلب عليها الروح المسيحية . وتأثر كثير من آباء الكنيسة بكتابه وأولهم القديس أوغسطين . وأمضى القديس أمبرواز حياته فى توجيه الأباطرة الوثنيين إلى صالح الكنيسة والدولة . وله فى ذلك عدة رسائل بعث بها إلى مختلف الأباطرة الوثنيين والمسيحيين . أفرد لها الدكتور رأفت عبد الحميد جزءا من السلسلة التى أصدرها عن العلاقة بين الدولة والكنيسة فى العصور الوسطى . انظر : رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة ، ج ٤ ، القاهرة ، ١٩٨٣ م ، صفحات متفرقة . (الترجمة العربية) .

(١٨) دورازو Durazzo (Dyrrachium) إحدى المدن البيزنطية ، وتقع على الساحل الشرقى للأدرىاتى جنوب سكوتارى . وقد وصل إليها الصليبيون فى أوائل فبراير . انظر

Runciman, The First Crusader's Journey Across the Balkan Peninsula, in AB, 19, 1949, pp. 207 - 221.

ولقد أخذنا فى معظم الحالات بالتواريخ التى حددها هاجنمير . وعلى أية حال ، فإن محاولة وضع تواريخ لتحركات جيوش الحملة الصليبية الأولى هو موضوع عرضة للخطأ . انظر : H. Hagenmeyer, H. Chr., Nos. 116, 117.

(١٩) حنا كومنين هو ابن أخت الامبراطور الكسيس كومنين . بعثه الامبراطور إلى دورازو بتعليمات خاصة باستقبال الصليبيين .

- بعد تسمية ألكسيس مع حملة الشعوب بقيادة بطرس الناسك والثرافلس ، اتخذ الامبراطور عدة تدابير لتتلاقى ماقد يقوم به صليبيو حملة الأمراء من شغب فى بلاده . فبعث بقادته إلى كل من دورازو وأفلونا Avlona بصحبة مترجمين من اللاتين وقوات من المرتزقة ، وأصدر أوامره إلى هؤلاء باستقبال الفرنج بترحاب ، وأن يجهزوا المؤن لإمداد القوات الصليبية بها ، وأن يرقبوا الفرنج بحصافة ، وأن يضغطوا عليهم ليعودوا إلى جادة الصواب ، إذا ما خرجوا عن الطريق المحدد لمسيرتهم ، للسلب والنهب . وقد نجح حنا كومنين فى تنفيذ المهمة الموكلة إليه بدقة بالغة . انظر :

Runciman, op. cit., p. 210.

(الترجمة العربية) .

(٢٠) بونتيوس رينو وأخوه ، بطرس ، فارسان من القوات البروفنسالية .

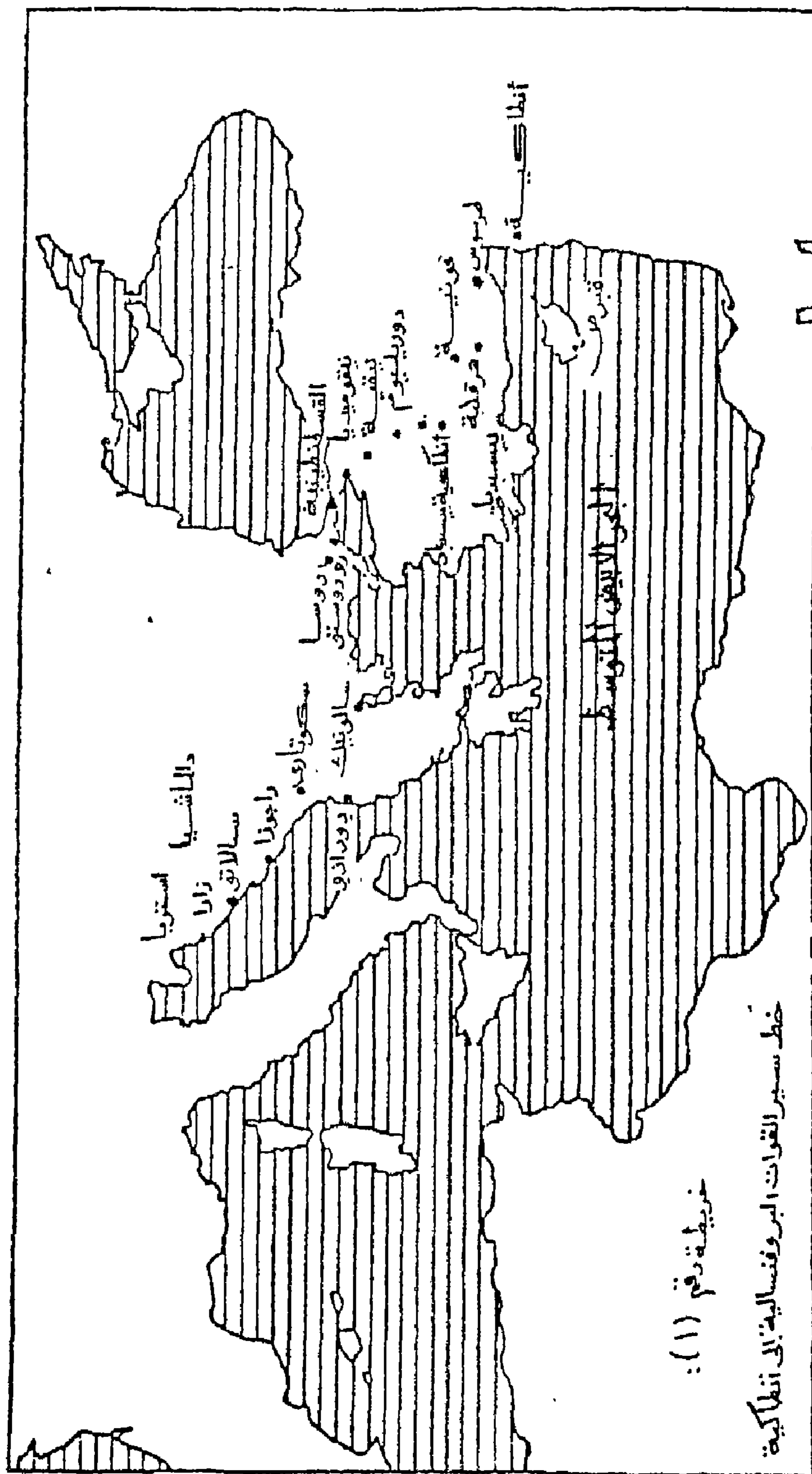
(٢١) استعمل رمونداجيل تعبير « إذا جاز لي أن أقول » كوسيلة لبضيف مزيدا من المعلومات . انظر:

Cicero, for the Manilian law, 4.

(٢٢) سلك الصليبيون طريق إجناتيا . ويظهر رمونداجيل استياءه من الاستقبال البيزنطى للفرنج تحت الحراسة المشددة ، ومن جهة أخرى ، فقد كان البيزنطيون على دراية بأعمال النهب التى قام بها اللاتين . ويقصد رمونداجيل بالكومان القبيلة التركية التى يطلق عليها كبتشاك Kipchaks ، والإتشنجر Pechenegs شعب تركى يعرفه البيزنطيون بالبنجناك . أما الأوزس uzes فهم شعب تركى يدعى أحيانا بالأتراك الغز .

— عمد الأباطرة البيزنطيون — ومن بينهم ألكسيس كومنين — إلى استخدام الجند المرتزقة فى جيوشهم من عدة أجناس مختلفة ، حتى لا يتيسر توحيد كلمة هذه الأجناس المتباينة الديانات واللغات والتقاليد تحت إمرة رجل واحد ربما يطيح بالامبراطور كما حدث فى أخريات عهد الامبراطورية الرومانية على أيدى الجرمان فى غرب أوروبا . لذلك نجد إلى جانب كتائب الجرمان كتائب من الفرنجة والنورمان والمجريين والروس ، وعناصر من الأتراك كالبجناكية والغز والكومان والتركوبول وغيرهم . وللمزيد عن هذه القسوات انظر : جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم ، ص ٢٠٧ ، حاشية (١) .

(الترجمة العربية) .



الفصل الثاني

الرحلة عبر الأراضى اليونانية والعلاقات بين ريموند سانتجيل وألكسيوس

وعما زاد من متاعبنا أننا كنا فى أحد الأيام فى وادى بيلاجونيا عندما أسر البجناك أسقف لى بويه الذى ابتعد عن المعسكر قليلاً بحثاً عن مكان مريح ليقوم فيه ^(١) . فأنزلوه من على بغله وجردوه من ملابسه وضربوه على رأسه بشدة . ولكن أحد البجناك فى سعيه وراء ذهب أدهيمار أنقذه من زملائه من قطاع الطريق . وهكذابقى الأسقف العظيم الذى لا غنى عنه لعدالة الرب ، للجنس البشرى ، وذلك برحمة الرب . وعندما سمعت الجلبة فى المعسكر ، هجم الصليبيون وأنقذوا الأسقف من البجناك الذين لم يسرعوا بالإجهاز عليه .

وهكذا وصلنا ، وقد أحاط بنا جنود الإمبراطور الخونة ، إلى قلعة بوسينات Bucinat ، حيث سمع ريموند أن البجناك قد أعدوا لنا كميناً فى مضائق جبل قريب ^(٢) . وعكس الكونت الوضع بأن أعد لهم كميناً هو الآخر ، وباغت ، مع فرسانه ، أولئك المرتزقة فى هجوم مفاجئ ، فقتلوا منهم كثيرين ودحروا الباقين . ووسط هذه الأحداث وصلت رسائل مطمئنة من ألكسيوس . ومع ذلك فقد أحاط بنا العدو ، ومن كل جانب كنا نواجه خداع الامبراطور .

وبعد ذلك بوقت قصير ، وصلنا إلى روسا Roussa ، وهى مدينة نتج عن الاحتتار السافر الذى أبداه سكانها تجاهنا ، أن فقدنا صبرنا الذى عرفنا به ، فحملنا السلاح ، وهدمنا الأسوار الخارجية ، وغنمنا غنائم كبيرة ، واستلمنا المدينة التى استسلمت لنا ^(٣) ثم غادرنا المدينة بعد أن رفعنا رايتنا على المدينة وهتفنا تولوز Tolosa ، صيحة التجمع الخاصة بالكونت . وزحفنا بعد ذلك إلى رودوستو Rodosto ، حيث هاجمتنا قوات المرتزقة التابعة لألكسيوس والتى كانت متلهفة على الانتقام لهزيمة روسا ، لكننا ذهبنا بعض أولئك المأجورين وأخذنا بعض الغنائم ^(٤) .

وفى رودوستو ، عاد إلينا عملاؤنا الذين كنا قد أرسلناهم إلى بلاط ألكسيوس . وأتوا بتقارير وردية عن وعود بيزنطية كان السبب الرئيسى وراءها رشوة الامبراطور لهم ، ولهذا فإن الاحداث التالية لا تحتاج إلى تعليق أكثر من ذلك . وحث مبعوثون بيزنطيون وصلبييون ريموند على التخلي عن جيشه ، والإسراع مع عدد قليل من أتباعه ، وهو غير مسلح ، إلى بلاط الإمبراطور ، وأبلغوه أن بوهيموند ، ودوق اللورين ، وكونت الفلاندرز ، وأمراء آخرين ، كانوا يتوسلون إلى ريموند أن يعقد صلحاً بخصوص الحملة الصليبية مع ألكسيوس ، الذى قد يحمل الصليب ويصبح قائداً لجيش الرب^(٥) . وأضافوا أن ألكسيوس كان على استعداد لتسوية كل الأمور التى تفيد الرحلة مع الكونت ، فيما يتعلق به وبالأخرين . وأوضحوا أن غياب نصيحة رجل عظيم كهذا عشية القتال ، سيكون أمراً سيئاً . لذلك فإنهم ألحوا على ريموند أن يأتى إلى القسطنطينية مع قوة صغيرة حتى إذا اكتملت الترتيبات مع ألكسيوس ، بدأ الزحف بدون تأخير . وعمل ريموند بهذه النصيحة ، وترك حامية فى المعسكر ، وسبق الجيش فى هذه المهمة ، وذهب وحده غير مسلح إلى القسطنطينية .

والى هنا ، كان تسجيل هذه الأعمال ، وهى أعمال تتسم بالبهجة والنجاح ، مهمة يسعد الكاتب القيام بها ، إلا أن القصة أصبحت مشحونة بالقسوة والحزن ، حتى إنه ليؤلنى أننى قد بدأت فيما أقسمت على إكماله . وبصراحة فإننى لا أدرى كيف أسجل هذه الأحداث ، وفق أهميتها ، هل أكتب عن أبشع خيانة حملتها مشورة الإمبراطور ؟ أم أسجل الهروب المشين لجيشنا وعجزه الذى لا يمكن لأحد أن يتصوره ؟ أو أبدأ برواية موت أولئك الأمراء العظام ، فأترك لكم ذكرى حزن أبدي ؟ على العكس من ذلك فليستفسر من شاء أن يعرف من غيرنا^(٦) .

ومع ذلك فإننا سنحكى هنا حدثاً له أهمية كبيرة . فبينما كان كل قومننا يحلمون بمغادرة المعسكر ، هارين ، متخليين عن رفاقهم ، وتاركين كل ما حملوه من البلاد البعيدة ، أعادت إليهم بركة التكفير والصيام المنقذة قوتهم الراسخة . لدرجة أنهم إندهشوا لرغبتهم فى الفرار ، وبأسهم السابق المشين . إلا أننا لن نتوقف عند هذه القصة الحزينة أكثر من ذلك .

وفى الإستقبال البالغ الاحترام الذى أعده ألكسيوس وأمرأؤه ريموند طلب الامبراطور من الكونت أن يحلف يمين الولاء الذى أقسمه له الأمراء الآخرون . ورد ريموند بأنه لم يحمل الصليب ليدين بالولاء لسيد آخر ، أو ليكون فى خدمة أى كائن آخر غير الرب الذى من أجله هجر وطنه وممتلكات آبائه ^(٧) . ومع ذلك فإنه سيأتمن الإمبراطور على نفسه وأتباعه وأمتعته ، إذا سافر إلى بيت المقدس مع الجيش . ولكن ألكسيوس سايره معتذراً عن الزحف متعللاً بخوفه من أن يقوم الألمان والمجريون والكومان ، وغيرهم من الشعوب المتوحشة ، بنهب امبراطوريته ، إذا اشترك فى الزحف مع الحجاج ^(٨) .

وفى هذه الأثناء عرف الكونت ، بعد أن علم بهزيمة رجاله وموتهم ، أنه قد ضلّ ، ومن خلال خدمات بعض قاداتنا استدعى الإمبراطور إلى المحاكمة متهماً إياه بخيانة الصليبيين . ولكن ألكسيوس رد بأنه هو نفسه لم يكن يعرف أن قواتنا نهبت مملكته وأن شعبه قد ارتكب كثيراً من الأخطاء ، وأنه لا يرى أى أساس قانونى لتحقيق الكونت ، إلا إذا كان جيش ريموند ، أثناء تدميره - كعادته - للقرى والمدن المحصنة ، فر رجاله هارين لدى رؤية جيش الإمبراطور ، ومع ذلك فإنه وعد بتقديم ترضية للكونت ، وأعطاه بوهيموند كرهينة للوفاء بتمعهده . وتوصلاً إلى اتفاق ، وأجبر الكونت - ظلاً - على إطلاق سراح رهينته .

وفى ذلك الوقت وصل جيشنا إلى القسطنطينية ، وبعده جاء الأسقف مع أخيه ، الذى كان قد تركه مريضاً فى دورازوا ^(٩) . وأرسل ألكسيوس مراراً وتكراراً ، يعد بأنه سيكافئ الكونت بسخاء إذا أقسم له يمين الولاء كالأمراء الآخرين ، ولكن ريموند كان دائم التفكير فى الانتقام للمعاملة الظالمة التى لقيها هو ورجاله ، وسعى إلى محو عار هذه الفضيحة . ومع ذلك ، فقد أسف دوق اللورين ، وكونت الفلاتدر وأمراء آخرون لمثل هذه الأفكار ، قائلين أنه من الحماسة الكبرى أن يقاتل المسيحيون المسيحيين بينما الأتراك على مقربة .

والواقع أن بوهيموند قد تعهد بتقديم دعمه لألكسيوس ، فى حالة إتخاذ ريموند إجراء ضده ، أو إذا اعتذر الكونت أكثر من ذلك عن أداء يمين الولاء والقسم . عند هذا المنعطف ، وبعد التشاور مع البروفنساليين ، أقسم الكونت أنه لن ينتزع - سواء بنفسه أو عن طريق آخرين - حياة الامبراطور وممتلكاته . وعندما ذكر بالولاء رد بأنه لن يقسم يمين الولاء بسبب تعرض حقوقه للخطر . ويمكننا أن نضيف إلى ذلك أن ألكسيوس أعطاه القليل من المتاع الدنيوى بسبب عناده وتشدده (١٠) .

* * * * *

هوامش الفصل الثانى

- (١) بيلاجونيا Pelagonia منطقة تقع إلى الشمال الغربى من مقدونيا . انظر :
Runciman, op. cit, The First crusader's Journey, p. 217; H Chr, 124, 125,
134.
- وكان البروفنساليون قد وصلوا إلى هذه المنطقة فى أواسط فبراير ١٠٩٧ م .
- (٢) بوسينات Bucinat ، قلعة لم نقف على موضعها .
- (٣) روسا Roussa ، مدينة فى إقليم تراقيا . واسمها التركى هوكيشان keshan . وقد وقع الهجوم على روسا فى ١٢ أبريل ١٠٩٧ م . وعن رحلة قوات كونت تولوز من دورازو إلى القسطنطينية انظر :
H. Chr., 118, 124, 125, 134.
- كانت قوات بوهيمند الثورماندى قد مرت بمدينة روسا قبل أن تضلها قوات كونت تولوز بحوالى اسبوعين ، ولقيت الترحيب المناسب . وربما يرجع هجوم البروفنساليين على المدينة إلى أن أهل المدينة لم يتوفر لديهم من المؤن ما يبيعونه لعساكر ريموند الذين استشعروا الجفاء من قبل سكان المدينة . انظر :
- Runciman, History of the Crusades, Vol. 1, p. 162.
- (٤) رودوستو Rodosto مدينة بيزنطية تستغرق الرحلة منها إلى القسطنطينية حوالى أربعة أيام . وفى ١٨ أبريل ١٠٩٧ م ، قابل كونت تولوز سفراء الإمبراطور ألكسيوس هناك .
- (٥) بوهيمند (١٠٥٠ - ١١١١م) ابن روبرت جويسكارد Robert Guiscard ، الذى سبق أن حارب البيزنطيين قبل الحملة الصليبية الأولى (١٠٨١ - ١٠٨٥م) . وآلت أملاك روبرت جويسكارد فى جنوب إيطاليا إلى روجر بورسا Roger Borsa الأخ الأصغر لبوهيمند من أبيه . فشارك بوهيمند فى الحملة الصليبية الأولى على أمل أن يحوز لنفسه على اقطاع فى الشرق الأدنى . واستولى على أنطاكية لنفسه وبقي أميرالها من ١٠٩٩م وحتى توفى فى إيطاليا عام ١١١١م . ودوق اللورين هو جود فري Godfrey (١٠٦٠ - ١١٠٠م) دوق اللورين السفلى . ولم يكن دوره فى الحملة الصليبية الأولى كبيرا مع أنه صار حامى القبر المقدس . وقد جعل منه المؤرخون الملاحقون واحدا من أعظم أبطال الحركة الصليبية . أما كونت الفلاندرز (ت ١١١١م) فهو ابن روبرت الفرنزى الذى توجه حاجا إلى بيت المقدس حوالى ١٠٨٧م أو ١٠٩١م . وللمزيد عنه هؤلاء القادة انظر حاشية رقم (٦) فى مقدمة الترجمة الانجليزية .

= يحدد هيوغ ولوريتا هيل بداية تاريخ إمارة بوهيمند الأول في أنطاكية بعام ٩٩ . م. إلا أن غالبية المؤرخين يحددون تاريخ حكمه في الإمارة الصليبية بتاريخ تحرير اتفاقيته التي عقدها مع الجنوية (١٤ يوليو ٩٨ . م / ١١ شعبان ٤٩٢ هـ) . انظر :

E.G. Rey, Résumé de l'Histoire des Princes d'Antioche, in ROL, 4, p. 362.

(الترجمة العربية) .

(٦) هذه الفقرة تذكرنا بخطباء أوائل عصر النهضة الذين لجأوا إلى التلميح لترك جمهورهم دون إجابة على التساؤلات التي يطرحونها . ومن الواضح أن ريمونداجيل هنا لم تتوفر لديه المعلومات بخصوص ما حدث ، فلجأ إلى هذه الوسيلة الأدبية .

- ما حدث هنا هو أنه بعد رحيل كونت تولوز لمقاومة الامبراطور البيزنطي - وبالطبع لم يصحبه مؤرخنا ريمونداجيل - فقد عاودت قواته الهجوم على سكان رودستو . ولكن في هذه المرة كانت القوات البيزنطية موجودة ، وأطبقت على البروفنساليين ، وسيطرت عليهم تماما بعد أن استولت على أمتعتهم . واعتقد البروفنساليون ، الذين لم يدركوا أن اللوم يقع عليهم ، اعتقدوا أن كونت تولوز قد استدرج إلى القسطنطينية حتى يمكن تدمير قواته دون قيادة توجهها . وكان نفس الانطباع لدى ريموند نفسه ، الأمر الذي جعله أصبح أكثر تشككا في الكسيوس ، وعنيلا في مفاوضاته معه . ويبدو أن قوات ريموند التي أصابها الهلع من البيزنطيين ، قد بقيت في موقعها حتى لحق بها المندوب البابوي أدهيمار ، الذي قاد هذه القوات إلى القسطنطينية ، وكانت لباقة هي السبيل للتغلب على كثير من الصعاب التي عاقت حسن العلاقات بين الامبراطور وكونت تولوز . ولذلك تبدو رواية ريمونداجيل في هذا الموضع شديدة الصرامة ضد البيزنطيين . ولكن من السهل إدراك ما حدث بالفعل . انظر :

Runciman, The First Crusaders Journey, p. 218.

(الترجمة العربية) .

(٧) كانت حماسة كونت تولوز الدينية محل تشكك وأقاويل . فقد أشيع أنه قرر أن لا يعود إلى موطنه الأصلي . ومن المؤكد أن الروايات تعكس الرأي السائد حول شخصيته . وريمونداجيل هنا ينسخ عبساسة متأنقة ، ربما تقوم على ما كان من المتوقع أن يقوله كونت تولوز .

(٨) يؤيد استعمال ريمونداجيل لتعبير « الشعوب المتوحشة » الذى يلى كلمة الكومان Kumans رأينا فى أنه فى فقرة سابقة (حاشية ٢٤ . الفصل الأول) قد استعمل كلمة الكومان وكلمة tanaces . وفى هذا الفصل يستعمل الكومان و feras gentes .. شعوب متوحشة » . وهكذا ، نعتقد ، أن كلمة tanaces لم تكن تعنى جنسا من الناس ولكنها تعنى تعبيرا عاما عن الشعوب المتوحشة .

(٩) لم يعرف دور أدهيمار فى مشاسحات ريموند وألكسيوس ، وعلى أية حال ، فىرى المعجبين بشخصية المندوب البابوى أن رأيه السديد هو الذى تسيد الموقف بين الامبراطور والكونت . انظر :

John and Laurita Hill, Raymond IV, count of Toulouse, pp. 50 - 51.

(١٠) ترجمنا قسم ريموند على أن يكون معناه أنه لن « يسلب من الامبراطور حياته أو ممتلكاته » . بينما يجعل كرى وآخرون ريموند يتعهد بأنه لن يلوث « حياة الامبراطور أو شرفه » . ومثل هذا القسم كان مألوفا فى جنوب فرنسا ، وأفضل ترجمة للكلمة اللاتينية " honorem " هى « ممتلكات » . وفى الواقع ، فقد قام كونت تولوز بأداء قسم مشابه فى بلاده . وقد أصبح بدون معنى تابعا للإمبراطور . انظر :

John and Lauritta Hill, The Convention of Alexius Comnenus and Raymond of Saint-Gilles, in AHR, 58, 1953, pp. 322 - 27.

- أصرَّ الإمبراطور البيزنطى ألكسيس كومنين على أن يؤدى له قادة الحملة الصليبية الأولى يمين الولاء والتبعية المرتبط بالنظام الإقطاعى فى غرب أوروبا آنذاك ، ليلزم قادة الحملة بطاعته حتى يحافظ على بلاده من عبثهم وليستخدمهم لصالحه فى استرداد ما استولى عليه السلاجقة من أملاك . ومن المعروف أن أول من قام بأداء يمين الولاء والتبعية أمام الامبراطور كان هيرفيرماندوا شقيق فيليب ملك فرنسا وتبعه كل من جودفرى بعد تردد ، ثم روبرت النورماندى وستيفن كونت بلوا وشارتر ، ومن بعدهم روبرت كونت الغلاتدرز . بينما أبدى بوهيمند رغبته منذ البداية فى الاتفاق مع الإمبراطور ولم يتردد فى حلف اليمين أمامه ليحافظ على حسن العلاقات مع ألكسيس ليحقق مصالحه فى الشرق . ولم يتسم هذا اليمين أو حتى يذهب إلى القسطنطينية تنكريد ابن أخت بوهيمند . وبذلك لم يرتبط أبدا باتفاقية القسطنطينية التى عقدت بين الامبراطور وقادة الحملة الصليبية الأولى فى مايو ١٠٩٧ م ، والتى تعهد فيها الامبراطور بمساعدة الفرنج فى مهمتهم ، والمحافظة على سلامتهم خلال مرورهم بأراضى

== دولته . كما تعهد بإمدادهم بالمتون مع إمدادهم بفرقة عسكرية تكون تحت تصرفهم . وفى المقابل تعهد الصليبيون بأن يعيدوا إلى بيزنطة كل ما استولى عليه السلاجقة من أملاكها . انظر :

Anne Comnene, The Alexiad, English trans. by Elezabeth Dawes, London, 1928, pp. 257 - 267; Albert d'Aix, pp. 304 - 313; Gesta Francorum, pp. 5 - 7.

ويقدم الدكتور جوزيف نسيم يوسف بحثا وافيا عن سياسة الكسيس تجاه الصليبيين ، واتفاقية مايو ١٠٩٧ م معهم . مع مناقشة دقيقة لأراء المؤرخين المعاصرين والحديثين . وهو أشمل ما كتب فى هذا الموضوع . انظر : جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم ، ص ٢١٩ - ٢٢٨ .
(الترجمة العربية) .

الفصل الثالث

حصار نيقية وعبور الأناضول

وبعد عبور البحر (مضيق البسفور) أسرعنا إلى نيقية حيث حاصرها جودفرى وبوهمند وقادة آخرون ، ممن كانوا فى الطبيعة ، ونيقية مدينة تتمتع بحماية طبيعية ودفاعات بارعة ^(١) . كانت تحصيناتها الطبيعية تتكون من بحيرة كبيرة تصل إلى أسوارها ، وخندق ملىء بالماء المتدفق من الجداول القريبة ، يسد المدخل من ثلاث جهات . وقد أحاط رجال مهرة نيقية بأسوار عالية جداً ، حتى أن المدينة لم تكن تخشى هجوم الأعداء ولا قوة أى آلة . وكانت مجانيق الأبراج القريبة موضوعة فى شكل متناوب ، حتى أن أحداً لم يكن يستطيع التحرك بالقرب منها ، دون أن يتعرض للخطر ، وإذا أراد أحد أن يتحرك إلى الأمام ، لم يكن يمكنه أن يلحق أى ضرر بها لأنه سيكون من السهل جداً ضربه من أعلى البسرج .

وباختصار ، كما قلنا ، فإن بوهمند حاصر المدينة من الشمال ، بينما حاصرها الدوق والألمان من الشرق ، والكونت وأسقف لى بويه من الجنوب ، وللتسجيل نذكر أن كونت نورماندى كان متغيباً ^(٢) وهنا يجب أن نسجل الحدث التالى : فبينما كان كونت تولوز يرغب فى إقامة معسكره هناك ، زحف الأتراك هابطين من الجبال فى تشكيلين ، وانقضوا على جيشنا . ولاشك أنهم قد وضعوا خططهم على أمل أن تقاتل إحدى فرقتيه جودفرى والألمان المخيمين فى الشرق ، بينما تدخل الفرقة الأخرى من الأتراك نيقية من خلال الباب الجنوبى ، وتخرج من باب آخر ، فتبديد بذلك ، بكل سهولة ، قواتنا التى لا تتوقع شيئاً . لكن الله ، بالنعمة المعتادة على مستشارى السوء ، أحبط خططهم ، وبدا وكأنه قد دبر للمعركة بحيث تؤدي إلى النتيجة التالية . فقد جعل الله الكونت ، الذى كان على وشك إقامة معسكره مع رجاله ، يهاجم الفرقة التركية التى كانت فى ذلك الوقت على وشك دخول نيقية . وفى الهجوم الأول ، أباد رموند منهم الكثيرين وقتل الكثيرين . ثم طارد من بقى منهم إلى جبل قريب ، بينما فى الوقت نفسه أجبر الأتراك الذين كانوا يخططون للقضاء على الألمان على الفرار ، وأبيدوا .

بعد هذا النجاح نصبنا الآلات وقصفنا السور دون أى نتيجة . كان السور لا يُخترق . وكان الدفاع الجسور بالأسهم والآلات يبعث على الإحباط . وأخيرا وبعد خمسة أسابيع من الحصار غير المجدى ، وبمشيئة الله ، اندفعت بعض القوات من حاشية أدهيمار ورموند بعد مناوشات ، إلى الأمام فى مخاطرة كبيرة إلى أسفل أحد الأبراج . وتحت حماية دبابة ^(٣) . دكّوا ذلك البرج دكا ، وقوضوا أسسه وسوّوه بالأرض . وحال حلول الليل دون الإستيلاء على نيقية . وفى الصباح التالى ثبت أن جهودنا كانت بلا طائل ، ذلك أن المدافعين عن المدينة أصلحوا الأسوار تحت جنح الظلام . واستولى الخوف على نيقية ، فاستسلمت . وكان الدافع الأكبر إلى استسلامها أن السفينة اليونانية التى سحبت على الأرض كانت تطفو الآن على مياة البحيرة ، وبالتالى فإن الأتراك الذين انعزلوا بذلك عن أصدقائهم ، انحنوا لألكسيوس ، حيث لم يعد لهم أمل فى وصول النجدة إليهم ، بينما كانوا يشهدون الجيش الفرنجى يزداد يوما بعد يوم ، وزاد من ذلك وصول كونت نورماندى ^(٤) .

وتعهد ألكسيوس للأمرء والشعب الفرنجى أنه سيسلمهم كل ما فى نيقية من ذهب وفضة وخيول وأمتعة ، وزاد على ذلك أن قال أنه سيؤسس بها ديرا لاتينيا وملجأ للمعوزين من الفرنجة . كما وعد بأن يعطى لكل فرد بسخاء يجعل كل جندى فى الجيش يتمنى أن يخدمه مدى الحياة . ووثق الفرنجة فى هذه الكلمات المخلصة ، واغتبطوا لاستعادة نيقية ، ولكن ما إن أصبحت نيقية فى حوزة ألكسيوس ، حتى تصرف بجحود مع الجيش ، حتى أن الناس سيسبونهم ويصمونهم بالخيانة طالما كان حيا ^(٥) .

فى ذلك الوقت علمنا أنه عندما وصل بطرس الناسك وحشود المزارعين التى صحبته إلى القسطنطينية قبل شهر من وصول القوة الصليبية الرئيسية ، خانه ألكسيوس ، بأن أجبره وأتباعه ، الذين لم يكونوا على معرفة بموقع الحرب ولا بفنونها ، على عبور المضائق وليس معهم دفاعات ضد الأتراك ^(٦) . وهكذا ، فعندما شعر أترك نيقية بأنهم وقعوا على فريسة سهلة ، قتلوا ، بسرعة وسهولة ، ستين ألفا من المزارعين ، ولم يفلت منهم إلا من فروا ولجأوا إلى إحدى القلاع .

وتجراً المنتصرون وركبهم الفرور لنجاحهم ، فأرسلوا الأسلحة التي استولوا عليها والصليبيين الذين أسروهم ، إلى نبلائهم وإلى القادة المسلمين في أماكن نائية ، ونشروا في بلادهم كتابات تفيد بأن الفرنجة لم يكونوا أهل حرب .

وفي أعقاب هذه الأحداث تركنا نيقية متجهين إلى الأناضول وأثناء الزحف ، تصرف بوهيند وبعض الأمراء في اليوم التالي تصرفاً غير حكيم ، حيث انفصلوا عن الكونت والأسقف والدوق ^(٧) . وفي اليوم الثالث من زحف بوهيند منفصلاً وبينما كان يفكر في أن يخيم ، رأى جنوده مائة وخمسين ألف رجل يقتربون في تشكيل معركة ^(٨) . وبينما كان ينظم صفوفه للمعركة كما تقتضي الظروف ويستعد للقتال ، فقد الكثير من جنوده الذين تأخروا خلفه وصلوا الطريق ، وهكذا ، فعندما احتدم القتال ، استدعى بوهيند لمساعدته الكونت والدوق ، الذين كانا على مسافة ميلين فقط منه . ولم تلبث النجدة أن وصلت . فارتدى الصليبيون دروعهم وامتطوا صهوة خيولهم ، وأسرعوا لقتال العدو فور وصول رسول بوهيند بالأخبار .

وتجمدت آمال فلج أرسلان القائد المهاجم ، لدى رؤية الفرسان المندفعين فأسرع بالفرار ^(٩) . ويبدو لنا أن عدالة السماء هي التي جعلت قلج أرسلان الذي أسر الأسرى ، واستولى على الكثير من خيام بوهيند ، يهجر أمتعته الآن ، بفضل قدرة الله . ورغم أننا لم نر ذلك ، فإن البعض قد حكى عن معجزة كبيرة رأوا فيها فارسين وسيمين في دروع لها بريق ، وهما يركبان أمام جنودنا ولا يبدو أن طعنات رماح الأتراك تؤثر فيهما ، بخيفان الأعداء ، حتى أنهم لم يستطيعوا القتال ^(١٠) . ورغم أننا علمنا بذلك من أتراك ارتدوا عن عقيدتهم ويعملون في صفوفنا الآن ، فإنه يمكننا أن نؤكد من الأدلة أننا كنا نرى وليومين في زحفنا فرساناً موتى وخيولاً ميتة .

وبعد هزيمة الأتراك وصددهم ، مررتنا بسرعة من خلال الأناضول بسلام ، وإن تأخرت المسيرة قليلاً لمرض ألم برعموند ^(١١) ورغم أن ما سنحكيه الآن بنفر

أذواق الساخرين المتهاكمين ، فإنه ينبغي تسجيله علناً ، لأنه وصف لمعجزة من تدبير السماء . فقد قال كونت ساكسونى يزعم أنه مبعوث من لدن القديس جيلز ، أنه قد تلقى أمراً مرتين بأن يطلب إلى الكونت : « اهدأ بالاً . فلن تموت من هذا المرض لأننى ضمنت لك راحة من عند الله ، وسأكون دائماً قريباً منك » (١٢) . ورغم أن الكونت كان سريع التصديق ، فقد أضعفه المرض ، حتى أنه عندما أُخذ من سريره ووضِع على الأرض ، لم يكذب يتردد فى صدره نفس من أنفاس الحياة . وهكذا فإن أسقف أورنج قرأ الصلاة كما لو كان ريموند ميتاً . إلا أن السماء ، التى جعلته قائداً للجيش ، رفعتة فى الحال من الموت وأعادتة سليماً معافى (١٣) .

* * * * *

هوامش الفصل الثالث

(١) بنيت مدينة نيقية في عهد الامبراطور أنتيجونوس Antigonos حوالي عام ٣١٦ ق.م . وتقع في إقليم بشينيا بالقرب من بحيرة أسكانيوس Ascanius في آسيا الصغرى . وفي زمن الحملة الصليبية كان يحكم فيها قلج أرسلان السلجوقي . وقد بقي كونت تولوز في جوار القسطنطينية حتى ١٠ مايو ١٠٩٧ م . ثم رحل إلى نيقية . ومن المحتمل أن علاقاته مع ألكسيوس كانت ودية أكثر مما يدفعنا ومونداجيل إلى الاعتقاد فيه .
أنظر : Hagenmeyer, Chr., 148.

- بدأ الصليبيون في حصار نيقية في ١٤ مايو ١٠٩٧ م . ووصل كونت تولوز إلى نيقية في ١٦ مايو . ولم يحدد ومونداجيل هذه التواريخ الذي حددها لنا كل من هيرخ الجستا وفولشر أوف شارتر

(الترجمة العربية) Gesta Francorum, p. 14; Fulcher of Chartres, p. 80.

(٢) كوتت نورماندى (١٠٥٤ - ١١٣٤ م) المعروف بروبرت كورثوس Robert Curthose ، دوق نورماندى . وهو ابن وليم الفاتح (ت ١٠٨٧ م) ، الذي استولى على عرش إنجلترا في ١٠٦٦ م . وقام روبرت برهن أراضيه لدى أخيه ، الملك وليم الثانى (روفوس Rufus) ، ليشترك في الحملة الصليبية وقد سجل معاصره مآثره في الحملة الصليبية ، ولكنه - بشكل عام - كان شخصا غامضا فيما يخص الأمور السياسية للحركة الصليبية . انظر :

C.W. David, Robert Curthose of Normandy, Cambridge, 1920.

(٣) الدبابة آلة تصنع من الخشب يدخل فيها المقاتلون - وغالبا النقبون - ليقتربوا بها من الأسوار لينقبوها . وكما ذكر مرضى بن على، فهي تستخدم أيضا كسترة للرجال الذين يقومون بجبر المنجنيق وما شاكله من أن يرموا بحجارة منجنيق مقابل فيحمل عنهم مضرتها . وسميت دبابة لأنها تدفع فتدب - وقد أورد مرضى بن على الطرسوسى وصفا دقيقا للدبابة وعجلاتها وقارن بينها وبين سائر أنواع السائر ، وذلك في كتابه « تبصرة ألباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء » الذى وضعه خصيصا لصالح الدين الأيوبي . وقد نشرت مقتطفات من هذا المخطوط مع ترجمة فرنسية وتعليقات هامة للمؤرخ كلود كاهن . أنظر :

Claud Cahen, Un Traité d'Armurerie Compose pour Saladin, BEO, 12, 1947- = 1948, pp. 104 - 163.

(الترجمة العربية) .

(٤) جاءت رواية ريمونداجيل عن حصار نيقية قريبة من رواية مؤلف الجستا المجهول ، إلا أن في كل منهما تفاصيل تشير إلى المزيد من مصادر المعلومات . وقد استسلمت الحامية السلجوقية الموجودة داخل نيقية للقائد البيزنطي بوتوميتس Butumites في ليلة ١٨ يونية ١٠٩٧ م . وفي صباح اليوم التالي شاهد الفرنج الرايات البيزنطية تعرف فوق نيقية . انظر : Hagenmeyer, Chr., 159, 160.

(٥) لا شك أن ريمونداجيل - مثل بقية الصليبيين - قد صدم لاستسلام سلاجقة نيقية للبيزنطيين ، الأمر الذي أضاع الفرصة على الصليبيين في نهب ثروات المدينة . إلا أن كل من فولشر أوف شارتر ومؤلف الجستا إلى جانب ستيفن كونت بلوا - في خطابه إلى زوجته أديلا - والراهب أنسلم - في خطابه إلى منسييس رئيس أساقفة ريمس - وألبرت دكس قد أشاروا صراحة إلى الهدايا التي وزعها الامبراطور البيزنطي على قادة الصليبيين ، وإلى كميات الطعام التي وزعها على قرائهم . انظر :

Hagenmeyer, Epistolae, pp. 140, 145; Gesta Francorum, pp. 13 - 17; Fulcher of Chartres, p. 80.

وقد نشر دكتور جوزيف نسيم يوسف خطاب ستيفن كونت بلوا إلى زوجته أديلا وترجمته العربية . انظر: جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ، الملحق الرابع ، ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .

وقد قمت بنشر النص اللاتيني (وترجمته العربية) لرسالة أنسلم راهب ريسونت في رسالتي للماجستير . انظر : حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية وعلاقاتها بالدول الإسلامية المجاورة ، الملحق الثاني ، ص ٢٩٤ - ٣٠١ . (الترجمة العربية) .

(٦) كان بطرس الناسك شخصا مجهولاً حتى دعا البابا أوربان الثاني إلى قيام الحملة الصليبية الأولى في مؤتمر كليرمونت . وقد قام بطرس - كداعية مجتهد - الفلاحين لبيدأوا المسيرات مشثومة المصير إلى بيت المقدس . ولقد جرد هنريتش هاجنمير في كتابه « بطرس الناسك » هذا الرجل من دوره الأسطوري في الحملة الصليبية الأولى . ومهما يكن من أمر ، فقد بقي بطرس شخصية لها شعبيتها لدى المؤرخين المعاصرين .

= وكان يمثل لديهم رجل الرب غير الأتاني . وسلاحظ القارىء أن ريمونداجيل ينتهز كل فرصة ليظهر كراهيته للبيزنطيين .

(٧) استخدم المؤرخون اسم « رومانيا » Romania " دوق تدقيق ، والمقصود بها هنا الأناضول .

- لم تسمح مرتبة ريمونداجيل كقس خاص لكونت تولوز بحضور مجالس أمراء الحملة الصليبية . لذا فهناك الكثير من القرارات التي يتخذها هؤلاء ولايدرى عنها مؤرخنا شيئا . ويتضح هذا من بعض رواياته خاصة إذا ما ألقى اللوم على أقران سيده من قادة الفرنج . وهنا لم يدر ريمونداجيل . أن الأمراء قد عقدوا مجلسا للتشاور قبل وصولهم إلى دوريليوم . وقرروا تقسيم الجيش إلى مجموعتين . الأولى - التي يلتقى المؤرخ باللوم على قادتها - وتضم قوات بوهيمند وكونت الفلاتندز وكونت بلوا والبيزنطيين ، والثانية وتضم قوات كونت تولوز وجودفري وهيو فرماندوا . وعمد القادة إلى ذلك للتغلب على مشكلة المؤن . انظر :

Gesta Francorum, p. 18; Albert d'Aix, pp. 328 - 329.

(الترجمة العربية) .

(٨) من الصعب الأخذ بالأرقام التي يوردها ريمونداجيل . انظر :

Runciman, History of the Crusades, 1, pp. 446 - 341.

(٩) يصف ريمونداجيل هنا معركة دوريليوم (بالقسرب من إسكى شهر الحالية) . ودارت المعركة في أول يوليو ١٠٩٧ م . انظر : Hagenmeyer, Chr., 169.

ونج عن هذه المعركة هزيمة السلاجقة . ولم يتحدث ريموند عن هجوم أدهيمار أسقف لى هويه الذي حول مسار المعركة لصالح الفرنج ، بينما يتعامل ريموند مع المظاهر السماوية . وبرز برونديج Brundage مهارة أدهيمار العسكرية . ويعتقد رنسيما أن الجهد المشترك للصليبيين هو سبب انتصارهم في ذلك اليوم . وقلج أرسلان هو ابن سليمان بن قتلش ويعرف بأن سليمان ، وعرفه الصليبيون بسليمان . وقد أصبح قلج أرسلان ، بعد موت ملكشاه في ١٠٩٢ م ، حاكما لأسيا الصغرى ، ولم يحكم سيطرته عليها حتى موته في ١١٠٧ م . وكانت السمة الإنقسامية التي اتسمت بها دولة السلاجقة هي التي أدت إلى نجاحات الفرنج .

(١٠) يحرص المؤرخ خلال تاريخه كله على تقديم التفاصيل التي يمكن أن يؤيدها الشهود .
ومن الواضح أن هذا لم يكن مجرد أسلوب كتابي . والفارسان « ذوى الدروع اللامعة »
عبارة من المحتمل أنها مقتبسة من كتاب الميقاتيين « وتحقق النصر من خلال قوة الرب
وذبح الحماة السماويون ذو الدروع اللامعة العدو » . انظر :

St. Ambrose, De Officiis, in MPL., 16, Col. 82.

(١١) يحذف المؤلف هنا كل تفاصيل الرحلة الشاقة عبر جبال طوروس ومن قبلها الرحلة عبر
هضبة الأناضول . ومن الصعب تفسير سبب تلك الفجوة في تاريخه .
- من المعروف أن الصليبيين رحلوا عن نيقية في ٣ يوليو ووصلوا إلى جسر الجديد
خارج سور أنطاكية الشمالي في ٢ أكتوبر ١٠٩٧ م . أى أن ريموند أغفل أحداث
ما يقرب من أربعة أشهر ، شارك بنفسه فيها . انظر :

Gesta Francorum, p. 17, 28 Fulcher of Chartres, pp. 83, 89.

(الترجمة العربية) .

(١٢) رؤيا مرض ريموند كونت سان جيل مقتبسة من سفر يوشع (٣٨ : ١-٦) . وقصة شفاء
حزقيا من المرض الميت عن طريق التدخل السماوى معروفة جيدا . ونشيد حزقيا - بعد
شفائه - (سفر يوشع ٣٨ : ١٠ - ٢٠) هي جزء من صلاة الموتى ، والغريب هنا هو
كيف يكون كونت تولوز مريضا مرض الموت لعدة مرات ويسترده عافيته - بشكل
عجيب - ليعود إلى ميدان القتال خلال أيام قليلة . ويحدد هاجنمير ٥ أغسطس
١٠٩٧م تاريخا لمرض ريموند . انظر :

Hagenmeyer, Chr., 177.

(١٣) كان يطلق على أسقف أورانج Orange اسم راج . وكان يسكنوا بارزا في الكنيسة
البروفنسالية . وبعد موت أدهمار ، حظى وليم باحترام الصليبيين حتى مات في معرة
النعمان .

الفصل الرابع

إغلاق الطرق وبداية حصار أنطاكية

وبعد ذلك وبينما كنا نقرب من أنطاكية ، إقترح كثير من الأمراء أن نؤجل الحصار ، خاصة وأن الشتاء كان يقترب ، وقد توزع الجيش في الاستحكامات بعد أن أرهقه حر الصيف ^(١) ، كما قالوا بأنه ينبغي على الجيش أن ينتظر القوات الإمبراطورية ، والتعزيزات التي وردت تقارير تفيد بأنها في الطريق من فرنسا . فنصحونا بالدخول في موقع الشتاء حتى يأتي الربيع . وقدم ريموند مع بعض الأمراء الآخرين المعارضين اقتراحاً مضاداً : « لقد وصلنا بروحي الله ، وبعطفه ومحبته ، وقضنا بمدينة نيقية الحصينة ، وبرحمته ننتصر ونعيش في أمن من الأتراك ، وفي سلام وانسجام في جيشنا ، لهذا ينبغي أن نعهد إليه بأمورنا . فلا ينبغي أن نخشى الملوك أو قادة الملوك ، ولا نهرب الأماكن ولا الأيام ، حيث أن الرب قد أنقذنا من أخطار كثيرة » ^(٢) . وانتصر الرأي الأخير ، ووصلنا أنطاكية وخيمنا بالقرب منها ، حتى أن المدافعين عن المدينة قذفوا علينا النار من أعالي أبراجهم فأصابوا رجالنا في خيامهم ، وخبولنا .

وتنتهز هذه الفرصة لنصف أنطاكية وتضاريسها حتى يمكن لقرائنا الذين لم يروها أن يتابعوا المعارك والهجمات ^(٣) . ففي أحضان جبال لبنان يقع سهل عرضه مسيرة يوم وطوله مسيرة يوم ونصف اليوم . ويحد السهل مستنقع ، وإلى الشرق يجرى نهر يتدفق حول جزء من هذا السهل ، فيعود إلى حافة الجبال الواقعة في الإقليم إلى الجنوب ، بحيث لا يمكن العبور من الجبال إلى النهر ، ومن هناك يلتف ليصل إلى البحر الأبيض المتوسط القريب منه . فتقع أنطاكية في هذه المضائق التي يكونها الجدول الذي يشق طريقه في الجبال المذكورة ، بحيث أن تدفق النهر غرباً عبر السور الأسفل يجعل الأرض بينه وبين المدينة تتخذ شكل السهم . والواقع أن المدينة التي تقع إلى الشرق قليلاً ، ترتفع في هذا الاتجاه وتحتضن داخلها قمم ثلاثة جبال . وتفصل الجبل الواقع في الشمال عن الجبلين الآخرين هضبة عظيمة بحيث لا يمكن إلا بصعوبة بالغة الانتقال من أحدهما إلى الآخر .

ويزهو التل الشمالى بقلعة ، والتل الأوسط بأخرى تسمى باليونانية كولاكس أما التل الثالث فليس به إلا أبراج . فضلا عن ذلك فإن المدينة تمتد ميلين طولاً وتحميها الأسوار والأبراج والمتاريس حتى أنها لا يمكن أن نخشى هجوم الآلات ولا هجمة الانسان عليها حتى إذا اجتمع على حصارها الجنس البشرى كله ^(٤) .

وباختصار ، فإن الجيش الفرنجى الذى كان يتكون من مائة ألف من الرجال المسلحين ، والذى كان يخيم على طول خط شمالى أنطاكية التى وصفناها ، قنع بالبقاء فى مكانه دون أن يشن هجوماً على الجبهة . ورغم أن المدينة لم يكن بها إلا ألفان من الفرسان الممتازين ، وأربعة أو خمسة آلاف من الفرسان العاديين ، ونحو عشرة آلاف أو أكثر من المشاة . فإن أنطاكية كانت فى مأمن من الهجوم ، طالما أن الأبواب كانت عليها الحراسة ، لأن وادياً ومستنقعات كانت تحمى الأسوار العالية ^(٥) وعند وصولنا ، اتخذنا مواقعنا بشكل عشوائى ، ولم نعين مراقبين ، وتصرفنا بغباء شديد ، حتى أن الأعداء لو عرفوا بذلك ، لأمكنهم أن يجتاحوا أى قطاع فى معسكرنا .

فى ذلك الوقت وقعت فى أيدينا قلاع إقليمية ومدن قريبة بسبب الخوف منا ، والرغبة فى التخلص من نير الأتراك . وترك فرساننا أنطاكية ، متجاهلين المصلحة العامة ، وجريا وراء الآمال الأنانية لكسب بعض المنافع المادية . حتى من بقوا فى المعسكر كانوا يستمتعون بحياة الترف ، لدرجة أنهم كانوا لا يأكلون إلا أحسن قطع اللحم ، كالفضة والأكتاف ويختفرون لحم الصدر ، ولا يفكرون بالمرءة فى القمح والنبيد . فى تلك الأيام الطيبة لم يكن هناك من يذكرنا بأعدائنا المختبئين داخل أنطاكية إلا رجال المراقبة على طول الأسوار ، إلا أن الأتراك سرعان ما اكتشفوا أن المسيحيين كانوا يخربون القرى والحقول علانية وبدون سلاح . ورغم أن معلوماتي قليلة عن تحركات الأتراك ، فإن أعداءنا سرعان ما خرجوا من أنطاكية أو جاءوا من حلب ، على بعد مسيرة يومين وقتلوا كلاً فبنا (جنودنا الباحثين عن المؤن) المتناثرين بلا دفاع ^(٦) وقد عكرت هذه الاجراءات الانتقامية صفو حياتنا الهائنة ، كما أن الفرص الجديدة للقتل والنهب شجعت المسلمين على شن إغاراتهم بشكل متكرر .

وحفزت أنباء هذه الأحداث الصليبيين علي أن يطلبوا من بوهيمند ليقود هجوماً مضاداً . ورغم أن بوهيمند لم يستطع أن يجمع إلا مائة وخمسين فارساً ، فانه انطلق أخيراً بصحبة كونت الفلاتدر ، وكونت نورماندى ، يدفعه الخجل من أن يوصم بالتهرب من الإقدام ، وكان السبب الأكبر في خروجه أمر الله . فعينوا مواقع الأعداء وطاردهم ودفعوهم إلى حتفهم في نهر الأورنت (العاصى) . ثم عاد المسيحيون إلى المعسكر فرحين بالغنائم . وفى نفس الوقت رست السفن الجنوبية علي الساحل في ميناء سيمبون علي بعد نحو عشرة أميال ^(٧) . وفى هذه الأثناء كان الأعداء يتسللون تدريجياً من أنطاكية ، فيقتلون السادة والمزارعين الذين كانوا يرعون خيولهم وماشيتهم عبر النهر ويعودون بما نهبوه إلى داخل المدينة .

نتوقف الآن عن سرد روايتنا لكى نصف الإطار الذى وقعت فيه الأحداث حتى نوضح هذه الأحداث . كانت خيامنا تقوم على النهر مباشرة ، بينما يقطع هذا النهر جسر عائم مصنوع من الزوارق التى كانت موجودة هناك . كما كان لأنطاكية جسر عند الركن الغربى الأسفل ، وتل فى مواجهتنا يقوم عليه مسجدان ، وكنيسة صغيرة بها قبور . ونعود إلى روايتنا ، فنلاحظ أن قواتنا التى كثيراً ما كان العدو يتفوق عليها عددياً ، كانت تتجراً وتشتبك مع المقاومة الطامعة . ولكن الأتراك الذين كانوا ينهزمون ويتبعثرون كثيراً ، كانوا يجددون القتال وسبب ذلك ، من ناحية ، أنهم كانوا يحملون أسلحة خفيفة ، هى الأقواس ، كما كانوا يتميزون بخفة الحركة على الخيول ، ومن ناحية أخرى ، فقد كانوا يستطيعون الإسراع بالعودة عبر جسرهم الذى ذكرناه . كما كانوا يحبون أن يمحطرونا بسهامهم من جبلهم . وأذكركم بأن جسرهم كان يبعد ميلاً عن جسرنا ، وعلى السهل المعتد بين الجسرين كانت تدور اشتباكات يومية . ولما كان رموند وأدهيمار يخيمان بالقرب من ضفاف النهر ، فإنهما كانا يتحملان ثقل الإغارات ، وكلفت هذه الإغارات التى تعتمد على الضرب الخاطف والفرار ، هذين القائدین كل خيولهما لأن الأتراك لم يكونوا يتقنون استخدام الرماح والسيوف ، فكانوا يقاتلون من على بعد ، فكانوا يشكلون خطورة فى المطاردة أو الفرار .

وفى الشهر الثالث من الحصار عندما تغيب كونت نورماندى ، ومرض جود فرى ، وارتفعت الاسعار إرتفاعا هائلا ، تم اختيار بوهيمند وكونت الفلاندر لقيادة حملة البحث عن المؤن فى هيسبانيا Hispania بينما تولى ريموند وأدهيمار حماية المعسكر^(٨) . وعندما علم المحاصرون (داخل أنطاكية) بأخبار هذه التطورات فإنهم استأنفوا هجماتهم المعتادة . وتحرك ريموند بدوره لمواجهةهم بطريقته المعتادة ، ووضع مشاته فى تشكيل قتالى ، ثم راح يطارد الأتراك فى صحبة عدة فرسان . وفى الاشتباك الذى تلا ذلك ، أسر وقتل اثنين من المهاجمين على جانب التل ، وطرده الآخرين عبر جسرهم إلى أنطاكية . كان المنظر أكثر مما يتحمل المشاة الذين اضطرت صفوفهم ، وألقوا راياتهم ، وجروا فى فوضى شاملة إلى الجسر . وفى أمنهم الزائف راحوا يلقون بالصخور والقذائف الأخرى على المدافعين عن الجسر . وتجمع الأتراك من جديد وشنوا هجوماً مضاداً عن طريق الجسر ومخاضة سفلية .

فى ذلك الوقت اندفع فرساننا بخيولهم نحو جسر لمطاردة حصان شارد جعلوه يجرى بلا فارس . وظن المشاة خطأ أن ذلك هروب يقوم به الفرسان ، وأسرعوا هاربين من الهجوم التركى . وفى الاشتباك ذبح الأتراك الهاربين بلا رحمة ووجد الفرسان الفرنجة - الذين توقفوا عن القتال - أنفسهم وقد تلقفتهم الحشود الهاربة التى راحت تخطف أسلحتهم وتشد خيولهم وذيولها وتجذبهم من فوق صهوات جيادهم . وتبعهم فرسان آخرون فى اندفاعهم بدافع من الشعور بالرحمة والمحرص على سلامة قومهم . وأسرع الأتراك بمطاردة الأحياء بلا هوادة ، وسرقوا ممتلكات الموتى . ولم يكف رجالنا عار إلقاء أسلحتهم والفرار دون أن يشعروا بأى خجل ، بل أنهم قفزوا فى النهر ليرتطموا بالصخور أو السهام أو ليغرقوا . ولم يعبر النهر ويصل إلى بر الأمان الا السباحون والأقوياء .

وفى القتال الذى دار من جسر الأتراك إلى جسرنا ، قتل الأتراك نحو خمسة عشر فارساً وعشرين من المشاة . ولقى حامل راية أسقف لى بويه وأحد النبلاء ، يدعى برنارد أوف بيزيه ، مصرعهم هناك ، واستولى الأتراك على

رأية أدهيمار^(٩) . واننا نأمل ألا تكون روايتنا لعدم حياء جيشنا ، سبباً فى لوم عباد الله وغضبهم علينا ، لأن الله قد جعل الصليبيين الزناة الناهيين يتوبون إليه من ناحية ، ولأنه من ناحية أخرى جعل جيشنا بطيب نفساً فى بلاد المسلمين .

وانتشر الكلام من معسكرنا عن حالة الازدهار التي كانت عليها قوات ريموند وانتصاره العظيم، حتى وصل بوهيمند وارتفعت نتيجة لذلك الروح المعنوية بين رجاله . وأثناء هجوم على إحدى القرى سمع بوهيمند بعض مزارعيه بفرون ويصرخون طالبين النجدة ، فأرسل قوة تستطلع الأمر ، ورأت هذه القوة جمعاً من الأتراك والعرب فى مطاردة محمومة . وكان من بين المجموعة المساعدة كونت الفلاتندر وبعض البروفتساليين وهو اسم يطلق على كل من هم من برجندى وأوفرني وجاسكونى وجوتيا . وألفت نظركم إلى أن كل ما عدا ذلك من قوات فى جيشنا يطلق عليهم اسم الفرنجة ، ولكن العدو لا يميز ويستخدم كلمة فرنجة للإشارة إلى الجميع . لكن يجب أن أعود إلى قصتنا^(١٠) . فقد اندفع كونت الفلاتندر فى تهور على حصانه فى مواجهة الأتراك حتى لا يناله عار الإنسحاب ليبلغ من اقتراب العدو . ولما كان الأتراك لم يألفوا القتال بالسيف ، فقد ركنوا إلى الفرار ، ومع ذلك فان كونت الفلاتندر لم يضع سيفه حتى قتل مائة من أعدائه .

وعندما عاد كونت الفلاتندر منتصراً إلى بوهيمند ، اكتشف إثني عشر ألفاً من الأتراك يقتربون من حرس مؤخرته ورأى إلى يساره عدداً كبيراً من المشاة يقفون على تل غير بعيد . وبعد مشاورات مع بقية جيشه ، عاد بتعزيزات ويادر بالهجوم ، بينما تبعه بوهيمند مع الصليبيين الآخرين عن بعد ، فحموا بذلك خطوط مؤخرته . وكان للأتراك أسلوب معتاد فى القتال حتى عندما يفوقهم عدوهم عدداً ، هو أن يحاولوا الإحاطة بأعدائهم . وهذا ما فعلوه فى تلك المواجهة ولكن بعد نظر بوهيمند جعله يتوقع هيلتهم .

وقد فر الأتراك والعرب الذين هاجموا كونت الفلاتندر عندما أدركوا أن القتال الذى سيقع سيكون وجهاً لوجه بالسيوف وليس عن بعد بالسهام . ثم إن

كونت الفلاتندر طارد الأعداء لمسافة ميلين ، وكان الأحياء يرون القتلى منطرحين علي طول الطريق كحزم القمح في الحقل زمن الحصاد . وأثناء ذلك القتال وجه بوهيمند ضرباته إلى القوات التي كانت تكمن له في الكمين وقضى عليها ، إلا أنه لم يستطع أن يمنع الطغمة سائلة الذكر من مشاة الأعداء ، من التسلسل من خلال أماكن لا يمكن عبورها على ظهور الخيل .

ولولا التواضع لحسبت هذه المعركة أعظم من الحرب المقدونية لأن ماكاببيوس قضى بثلاثة آلاف علي ثمانية وأربعين ألفاً من أعدائه ، بينما دحر فرساننا الأربعمئة ستين ألفاً من الوثنيين ، ولكننا لا نقتل من قيمة شجاعة ماكاببيوس ، ولا نزهو ببسالة فرساننا ، ومع ذلك ، فإننا نقول أن الله ، الذي كان عظيماً مع ماكاببيوس ، كان أكثر عظمة مع جيشنا ^(١١) .

ولقد كان ردنا علي هروب المهاجمين تناقصاً في الشجاعة حتى أن الصليبيين أخفقوا في تتبع الهاربين . وبالتالي فإن جيشنا المنتصر عاد إلى المعسكر بدون مؤن ، وكان من شأن المجاعة التي أعقبت ذلك أن ارتفعت الأسعار ، حتى أن اثنين من الصولدي لم تكف تكون لهما أي قوة شرائية تعادل نصيب الرجل الواحد من الخبز في اليوم ، كما ارتفعت أسعار الأشياء الأخرى بنفس الدرجة ، فما كان من الفقراء ، والأغنياء أيضاً الذين كانوا يريدون إنقاذ ممتلكاتهم ، إلا أن تركوا الحصار . وأما من بقي لقوة روحية فيه ، فقد كان عليه أن يتحمل رؤية خيوله وهي تنفق من الجوع . كان التبغ شحيحاً ، ولم تكن سبعة أو ثمانية صولديات تكفي لشراء كمية من الحبوب لإطعام حصان واحد لليلة واحدة .

ومما زاد من كرينا ، أن بوهيمند - وقد اشتهر لخدمته الباهرة في بلاد المسلمين - هدد بالرحيل ، قائلاً أن الشرف هو الذي جعله يتخذ هذا القرار ، لأنه رأى رجاله وخيوله تموت من الجوع ، فضلاً عن ذلك ، فقد أوضح أنه رجل ذو إمكانيات محدودة لا تكفي ثروته الشخصية لحصار مطول . وقد علمنا فيما بعد ، أنه قد أعلن تلك البيانات لأن طموحه كان يدفعه إلى اشتها أنطاكية .

فى ذلك الوقت وقعت هزة أرضية فى اليوم الأول من يناير كما رأينا علامة معجزة فى السماء ^(١٢) . ففى فترة المناوبة الأولى من الليل ، كانت السماء حمراء فى الشمال بحيث بدا كما لو أن الشمس أشرقت فى يوم جديد . ورغم أن ذلك كان توبيخاً من الله لجيشتنا ، حتى نتحول إلى النور الذى أشرق فى الظلام ، فإن عقول البعض كانت غُلْفاً ، وكانوا عنيدين ، حتى أنهم لم يكفوا عن حياة الشغب والنهب . ثم أن أدهيمار حث الناس على أن يصوموا ثلاثة أيام ، وأن يصلوا ، ويتصدقوا ، ويقيموا موكباً . كما أمر الكهنة باقامة القداسات ، ورجال الدين بترديد المزامير وهكذا ، فإن الرب المبارك ، وقد أظهر عطفه ومحبتة ، أخر عقاب أبنائه حتى لايزداد تفاخر الوثنيين .

انتقل الآن إلى شخص كدت أنساه لأنه ألقى به فى طى النسيان . وهذا الرجل هو تاتيكيوس ، الذى صحب جيشنا بدلا من ألكسيوس ، وكان له أنف مشوه ، ويفتقر إلى أى صفات تعوضه عن ذلك ^(١٣) . كان تاتيكيوس كل يوم يحذر الأمراء بهدوء ، أن يتراجعوا إلى القلاع القريبة ويطردوا المحاصرين بهجمات وكمان متعددة . ولكن عندما علم الكونت بكل هذه المسائل ، وكان مريضا من يوم هروبه الاضطرابى بالقرب من الجسر ، جمع أمراء وأسقف لى بويه . وفى نهاية الاجتماع وزع ريموند خمسمائة مارك على المجموعة ، على شرط أنه إذا فقد أى واحد من الفرسان حصانه يُعطى واحد آخر بدلا منه من الخمسمائة مارك ومن أرصدة أخرى منحت للأخوة (brother hood) ^(١٤) .

كانت هذه إتفاقية الأخوة هذه مفيدة جدا فى ذلك الوقت ، لأن فقراء الناس فى الجيش الذين كانوا يرغبون فى الانتقال إلى الجانب الآخر من النهر للبحث عن المؤن كانوا يرهبون هجوم الأتراك . وكان القليل فقط هم الذين يرغبون فى قتالهم ، حيث أن خيول البروفنساليين ، والتى لم تكد تبلغ المائة حصان ، كانت هزيلة ضعيفة . وأبادر فأقول أن نفس الموقف كان سائداً فى معسكر بوهيمند والقادة الآخرين ^(١٥) .

وبعد التصرف الأخرى ، هاجم فرساننا العدو بجرأة لأن من كان معهم خيول لا قيمة لها ومنهكة القوى ، كانوا يعرفون تماماً أنه يمكنهم أن يستبدلوا بخيولهم

المفقودة خيولاً أفضل ، آه ، حقاً يمكننى إضافة شيء آخر . فقد عرض كل الأمراء ، ما عدا الكونت ، أنطاكية على بوهيمند فى حالة الاستيلاء عليها . وهكذا بناء على هذا الإتفاق ، أقسم بوهيمند والأمراء الآخرون على ألا يرفعوا الحصار عن أنطاكية لمدة سبع سنوات إلا إذا وقعت قبل ذلك ^(١٦) .

بينما كانت هذه الأمور تجرى فى المعسكر ، انتشرت قصة غير مؤكدة بأن جيش الامبراطور كان يقترب ، وهو جيش قيل أنه كان يتكون من عدة أجناس ، من السلاف ، والبجناك ، والكومان والتركوبولية ^(١٧) وقد أطلق هذا الاسم على التركوبولية لأنهم إما كانوا قد تربوا مع الأتراك أو كانوا ذرية أم مسيحية وأب تركى ، وكانوا يخشون الارتباط بنا لسوء معاملتهم لنا طوال الرحلة . والواقع أن تاتيكيوس ، ذلك المشوه ، الذى كان يتلف على عذر يهرب به لم يلفق هذه الكذبة فحسب ، بل أضاف إلى ذنوبه الحنث باليمين ، وخيانة أصدقائه ، بأن أسرع هارباً بعد أن تنازل لبوهيمند عن مدينتين أو ثلاث ، هى طرسوس والمصيصة وأذنه . وهكذا ترك تاتيكيوس المعسكر بحجة الانضمام إلى جيش ألكسيوس ، وتخلّى عن أتباعه ، ومضى تصحبه لعنة الله . وجلب بهذا العمل الخسيس ، العار الأبدى على نفسه ورجاله ^(١٨) .

* * * * *

هوامش الفصل الرابع

(١) أنطاكية مدينة قديمة تقع على الضفة الجنوبية لنهر الأورنت في سهل يقع بين النهر وجبل حبيب النجار silpius . وترجع تحصيناتها إلى عهد جستنيان ، وقام كل من البيزنطيين والسلاجقة بترميم هذه التحصينات . واستولى السلاجقة على المدينة في عام ١٠٨٥ م . وحصنوا الأسوار بشدة . وقد وصل الصليبيون إلى أنطاكية في الفترة من ٢٠ إلى ٢٢ أكتوبر ١٠٩٧ م . انظر : Hagenmeyer, Chr., 203.

- كان يطلق على أنطاكية في العصور القديمة اسم ريلاتا Reblata ، ثم جاء أنطيوخوس أحد خلفاء الاسكندر المقدوني وأقام حولها سوراً وجعلها عاصمة له وأطلق عليها اسم أنطاكية نسبة إليه . ولُكُل بناءها سليوقس الذي بنى اللاذقية . وحلب وأقامية . ودخلها المسلمون لأول مرة عندما فتحها أبو عبيدة بن الجراح في سنة ٦٣٨ م / ٣٢ هـ أثناء فتح الشام . وبقيت أنطاكية في أيدي المسلمين حتى استولى عليها الامبراطور ثيوفيلوس في عام ٩٦٩ م / ٣٥٨ هـ . ثم عادت إلى أيدي المسلمين عندما فتحها سليمان بن قتلمش السلجوقي في عام ١٠٨٥ م / ٤٧٧ هـ . وبقيت في أيدي السلاجقة حتى قدم الفرنج إلى الشام . انظر : حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية ، ص ٨٢ - ٨٣ . (الترجمة العربية) .

(٢) إختلق المؤرخ هذا الحديث من العهد الجديد : وعلى سبيل المثال « لقد أنقذنا الرب من مهالك عديدة » . انظر : New Testament, 11 Corinthians, 1 : 10.

(٣) يتبع وصف أنطاكية هنا أسلوب المؤرخين . انظر وصف وليم الصوري لأنطاكية : William of Tyre, History of Deeds, vol. 1, pp. 200 - 204.

(٤) مدينة أنطاكية على شكل دائرة قطرها متصل بالجبل ، فتتم دائرة يبلغ محيطها اثني عشر ميلاً ، يمكن اجتيازها عدة أبواب . وتتم حراسة هذه الأسوار عن طريق ثلاثمائة وستين برجاً ، عدد شرفاتها حوالي أربعة وعشرون ألف شرفة . وفي أقصى الجنوب من المدينة توجد القلعة في أعلى جبل حبيب النجار ، حيث يرتفع عن المدينة بحوالي ألف قدم ، وهي قلعة حصينة لا يمكن اختراقها . ومن الملاحظ أن فتح أنطاكية على أيدي السلاجقة ثم على أيدي الصليبيين لم يتم إلا عن طريق الخيانة من داخل المدينة . حتى أن صلاح الدين الأيوبي في أوج قوته وجد أن أمرها يطول . ولم تسقط المدينة بالسيف إلا في عهد الظاهر بيبرس المملوكي في الوقت

== الذى لم يكن بداخلها من يدافع عنها . كل ذلك بسبب التحصينات الهائلة التى أحاطت بالمدينة . وللمزيد عن طبوغرافية أنطاكية وأهميتها ، انظر : حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية ، ص ٨٤ - ٨٥ .
(الترجمة العربية) .

(٥) الأرقام التى يوردها ريمونداجيل غير حقيقية . انظر :

Runciman, op. cit., vol. 1, pp. 336- 341.

ولا يعنى تحديد الفرسان من الدرجة الأولى أو الفرسان العاديين لنا الا القليل . انظر :

R.C. Smail, Crusading Warfare, passim.

(٦) كان يحكم حلب فى زمن الحملة الصليبية الأولى القائد السلجوقى الماكر رضوان ، الذى تلاعب بجمهور الشيعة القوى والعصبة الفاطمية .

- وكان يحكم فى دمشق دقاق شقيق رضوان . وهما ولدا تاج الدولة تتش عم السلطان السلجوقى بركياروق . وكان الأخوان فى صراع دائم ، يعتبر هو لب الموقف فى بلاد الشام عند قدوم الصليبيين إلى المنطقة ، ولجأهم فى اجتياحها دون مقاومة اسلامية فعالة . وفى صراعهما بحث كل من الآخرين عن حلفاء ، وكان ياغى سيان حاكم أنطاكية حليفا لدقاق . وعندما تخلص رضوان من اتاكة جناح الدولة صاحب حصص وعدو ياغى سيان ، انضم الأخير إلى رضوان وأقام نفسه أتابكا له ، وساعده فى الهجوم على أملاك أخيه . وعند قدوم الصليبيين عاد رضوان إلى حلب تاركا ياغى سيان ليواجه وحده الحملة الصليبية الأولى . وكان رضوان قد تحالف مع الفواطم ضد أخيه دقاق . وأقام الخطبة للخليفة الفاطمى المستعلى فى حلب فى ١٠٩٦م / ٤٩٠ هـ وحتى ١٠٩٨م / ٤٩٢ هـ . انظر : ابن القلائسى : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨م ، ص ١٣٣ . ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، ٣ ج ، تحقيق سامى الدهان ، دمشق ، ١٩٥١م ، ج ٢ ، ص ١٢٨ . راجع أيضا : حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ، الاسكندرية ، ١٩٨٩م ، ص ١١٢ .
(الترجمة العربية) .

(٧) ميناء سمعان simon ، مدينة ساحلية تقع عند مصب نهر العاص . وكان الجنوبية الذين رسوا فيه حلفاء لكونت تولوز . وقدموا له بد المساعدة بعد ذلك أثناء حصار الصليبيين لبيت المقدس .

- فى الحقيقة قدم الجنوية هنا المؤن وآلات الحصار للفرنج دون تمييز بين قادتهم . إلا أنهم سيدافعون عن دعاوى بوهيمند بعد أن تستقط أنطاكية فى أيدي الفرنج وبعد أن عقد معهم بوهيمند اتفاقية ١٤ يوليو ١٠٩٨ م . التى منحهم بمقتضاها امتيازات كثيرة . ثم نراهم يساعدون كونت تولوز فى حصار بيت المقدس . فالجنوية ينظرون إلى مصالحهم أولا قبل النظر إلى شخصية الخليف - ويطلق المسلمون اسم السويدية على ميناء سان سيمون .
(الترجمة العربية) .

(٨) يستعمل ريموند هنا اسم Hispania للتعبير عن بلاد المسلمين .

- خرج كل من بوهيمند وكونت الفلاندرز على رأس قوة قوامها عشرون ألف مقاتل فى ٢٨ ديسمبر ١٠٩٧ م / ١٣ محرم ٤٩١ هـ متجهين إلى حماة . ويحدد ابن القلاسى عدد الفرنج بثلاثين ألف مقاتل وأيده فى ذلك ابن العديم . ويبدو أن العدد الأول - الذى حدده مؤلف الجيستا - هو الأقرب إلى الصحة . انظر : ابن القلاسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٢٣ ، ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ . ص ١٣١ . راجع أيضا :

Gesta Francorum, p. 30.

راجع أيضا : F. Chalandon, Histoire de la Premiere Croisade, Paris, p. 187. وأما استعمال المؤرخ لكلمة Hispania ليعبر بها عن بلاد الوثنيين فيوحى بأن ناسخ المخطوط من سكان جنوب فرنسا واعتاد هذا الناسخ أن يرى الفرسان يعبرون البرانس لقتال مسلمى أسبانيا . كما نرى المؤرخ فى عدة مواضع يستخدم كلمة Chorazaim للتعبير عن بلاد الوثنيين أيضا . وهى إحدى المدن التى لعنها المسيح لإقامة المسيح الدجال فيها . وقد بحث الناشران عن اسم هذه المدينة فى الكتاب المقدس (Liber de Antichristo) . ومن الواضح أن هذا الاسم يشير إلى إقليم خراسان بشمال فارس وهو الإقليم الذى جلب منه ملك حلب تعزيزاته السلجوقية . انظر :

J. Richard, Raymond d'Aquillers, p. 207.

(الترجمة العربية) .

(٩) كان برنارد أوف بيزيه Bernard of Béziere ضمن رجال ريموندسان جيل . ويظهر اسمه كشاهد على منحه قدمها كونت تولوز لكنيسة القديس فيكتور بمرسيليا فى عام ١٠٩٤ م . وكان حامل لواء أدهيمار يدعى هرقل Heraclius . انظر :

J. Vaisette, HGL, 3, p. 732.

(١٠) يؤدي استخدام ريمونداجيل لكلمة البروفنساليين بشكل إجمالي إلى ارتباك المؤرخين .
وعلى أية حال فقد كتب فولشر أوف شارتر « ريموند كونت ، البروفنساليين ، مع القوط
وأهل جاسكوني » انظر :
Mc Ginty, op. cit., p. 22.
ويجب أن يدرك القارئ أن ريمونداجيل يطلق اسم البروفنسال على كل جنوب فرنسا
أكثر مما يطلقه على إقليم بروفانس .

(١١) يظهر ريمونداجيل احترامه لجسارة مكابيووس لكنه يتمنى لو أن جنوده المسيحيين
يتفوقون عليه . وهذا مثال للأرقام التي لا يمكن الوثوق فيها والتي يوردها المؤرخ .
انظر :

Berviarium Romanum, in 11 Nocturno, EX Libro Officiorum Sancti
Ambrosii Episcopi, Lib. 1, 40.

ومن المحتمل أن المؤلف يكرر صلوات القديس أمبرواز في فقرته هذه .
- والمقايين هم حكام إقليم يهودا من سنة ١٦٧ ق. م إلى سنة ٣٧ ق. م والإسم في
أصله كان يطلق بصفة خاصة على يهوذا ابن ماثياس ، ثم أطلق فيما بعد على أسرته
وأتباعه . ويطلق الآن على ذرية ماثياس فقط . وكان لماثياس خمسة أبناء هم حنا
وسمعان ويهوذا وإيلمازر وجوناثان . وهؤلاء قادوا الكفاح ضد قوات أنطيوخوس
Epiphanes الذي حاول صبغ بلادهم بالصيغة الهلينية . وقاد هؤلاء حركة الاستقلال
السياسي في عهد يهوذا الذي مات في عام ١٦٠ ق. م واستمر أسلافه في الكفاح ضد
الحكم اليوناني حتى عام ٣٧ ق. م حين قضى هيرود ، الذي اعترف به الرومان ملكا على
يهوذا ، كل بقايا هذه الأسرة . انظر :

Morris A. Gutstein, Maccabees, in CE, vol. 15, New York, 1984, pp.
151 - 152.

أما عن المعركة بين المسلمين والصليبيين فهي نتيجة لأول رد فعل إسلامي للوجود
الصليبي في بلاد الشام . وقام به دقاق ملك دمشق السلجوقي بعد ثلاثة أشهر من قدوم
الفرنج إلى شمال الشام ، مما يوضح انشغال حكام الشرق الأدنى الإسلامي آنذاك بمصالحهم
الشخصية دون الصالح الإسلامي العام ، فجاءت كل رودود الفعل الإسلامية إما
متأخرة ، وإما ضعيفة ، وإما تتسم بالجهل بطبيعة الحركة الصليبية . وفي هذا الموضع
يحاول ريمونداجيل أن يرجع انتصار الفرنج على دقاق وأتابكه جناح الدولة أمير
حمص وقواتهم ، إلى كونت الفلاندرز ، في حين أن المسلمين كادوا أن يقضوا على --

== روبرت لولا نجدة بوهيمند له . وطبيعى أن يبغض مؤرخنا الأمير النورماندى - بوهيمند -
- حقه فى هذا الإنجاز للعداوة القائمة بين الأخير وكونت تولوز الذى يدين له المؤرخ
بالولاء ، وقد وقعت هذه المعركة عند قرية البارة فى جنوب شرق أنطاكية فى ٣١
ديسمبر ١٠٩٧ م / ١٦ محرم ٤٩٢ هـ . انظر : ابن القلاسى : ذيل تاريخ دمشق ،
ص ١٣٤ ، ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ١٣١ . راجع أيضاً :

Albert d'Aix, p. 374.

(الترجمة العربية) .

(١٢) استعار المؤرخ فى وصفه للزلزال من كتاب سسلاوات القديس أمبرواز " Et ecce
"terraemotus factus est magnus" « وها هى هزة أرضية عظيمة تحدث » . وكتبها
ريمونداجيل " Interea terremotus factus est magnus " « فى تلك الأثناء ، حدثت
هزة أرضية عظيمة » ويضع هاجنمير هذه الهزة الأرضية فى ٣ ديسمبر ١٠٩٧ م.
انظر : Hagenmeyer, Chr. 221.

(١٣) تاتيكيوس Taticius هو القائد البيزنطى الذى اصطحب الصليبيين إلى أنطاكية . ويبدو
كره المؤرخ له أمراً غريباً إذا ما وضعنا فى اعتبارنا حقيقة أن كونت تولوز كان متعاطفاً
مع القضية البيزنطية .

(١٤) فى هذه الفقرة نرى تطبيقاً عملياً لفكرة الأخوة . وهو دليل واضح على أن الصليبيين
قد عقدوا المجالس واتخذوا القرارات التى تليها الضرورة . ومن الواضح أن كونت تولوز
قد استخدم ثروته لمساعدة المعدمين . انظر :

Edmund Bishop, Liturgica Historica, Oxford, 1918.

وهناك مناقشة بمتازة لفكرة الأخوة . انظر :

Thomas N. Bisson, The Military Origins of Medieval Representation, in
AHR, 17, 4 (1966), pp. 1199 - 1218.

- راجع أيضاً حاشية رقم (١٥) من الفصل الأول .
(الترجمة العربية) .

(١٥) يذكر أنسلم أوف ريمونت فى رسالته إلى مناسيس رئيس أساقفة ريمز أنه لم يتبق لدى
لدى الفرنج بصفة عامة سوى ٧٠ حصان . انظر : حسين عطية : إمارة أنطاكية ،
ملحق رقم ٢ ، ص ٢٩٩ .
(الترجمة العربية) .

(١٦) هذه الرواية تدفعنا إلى الاعتقاد بأن ريمونداجيل قد سبب الاضطراب في كتابه . فمؤرخ الجستا يورد رواية مشابهة ولكنه يضع تاريخ وعد الصليبيين باعطاء أنطاكية لبوهيمند في الليلة السابقة على سقوط المدينة . وحسب ما جاء في الجستا ، فإن تسليم أنطاكية لبوهيمند كان مرتبطا بفشل الكسيس كومنين في إمداد الصليبيين بالقوات المساعدة .
انظر : Yewdale, op. cit., pp. 60 - 61.

(١٧) التركبولية هم فرسان استخدمهم البيزنطيون في جيوشهم .
- والتركيلى كلمة يونانية معناها أبناء أو سلالة الترك . وهو مصطلح كان يطلقه البيزنطيون على فرقة من فرق جيشهم ، تلى في أهميتها فرقة الفرسان ، وينحدر أفرادها من أب تركى (أو عربى) وأم يونانية . ويذهب الدكتور الشيال إلى أن تكوين هذه الفرقة قد تم بعد اتصال البيزنطيين بالسلاجقة بعد وقعة ملاذكرد . وكان فرسان هذه الفرقة يتميزون بطريقة قتال تعتمد على الكر والفر والحرب السريعة . وقد أشار إليهم ألبرت دكس ووليم الصورى ، وابن الأثير وأسامة بن منقذ والعماد الأصفهاني . وقد كون المسلمون فرقا في جيوشهم تحمل نفس الاسم والصفات . انظر : ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب ، ٣ ج ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٦٠ م ، ج ٣ ، ص ١٤٩ ، حاشية رقم (١) التى تنتهى في ص ١٥٠ . وأول ذكر للتركبولية في جيوش المسلمين يأتى في رواية ابن واصل عن شروط صلاح الدين لعقد الصلح مع الفرنج في عام ١١٩٢م/٥٨٨ هـ بعد أخذ صلاح الدين لريض يافا أثناء وجود ريتشارد قلب الأسد في فلسطين . انظر : ابن واصل : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣٩٥ .
(الترجمة العربية) .

(١٨) جاءت الدوافع التى أدت إلى هروب تاتيكوس غامضة . فآن كومنين تقرر أن بوهيمند هدد القائد البيزنطى . ومؤلف الجستا أكد على الجبن الذى اتسم به تاتيكوس ، بينما قرر ألبرت دكس أن تاتيكوس قد خطط للهروب متى سنحت له الفرصة . وتفسيرات ريمونداجيل لأسباب هروب تاتيكوس تفتقر إلى الدقة ، وليس هناك دليل على أنه تغلى عن أذنه والمصبصة وطرسوس لبوهيمند . ومن الواضح أن ريمونداجيل لم تكن لديه المعلومات الكافية عن هذا الحدث ، واعتمد على الإشاعات أو على مصادر معلومات أخرى . وأذنة والمصبصة مدينتان في قيليقية وقد استولى عليها تنكريد من السلاجقة . ومن المحتمل أن Tursol (هكذا في الترجمة الانجليزية) تعنى

طرسوس . انظر : Krey, The First Crusade, p. 292.

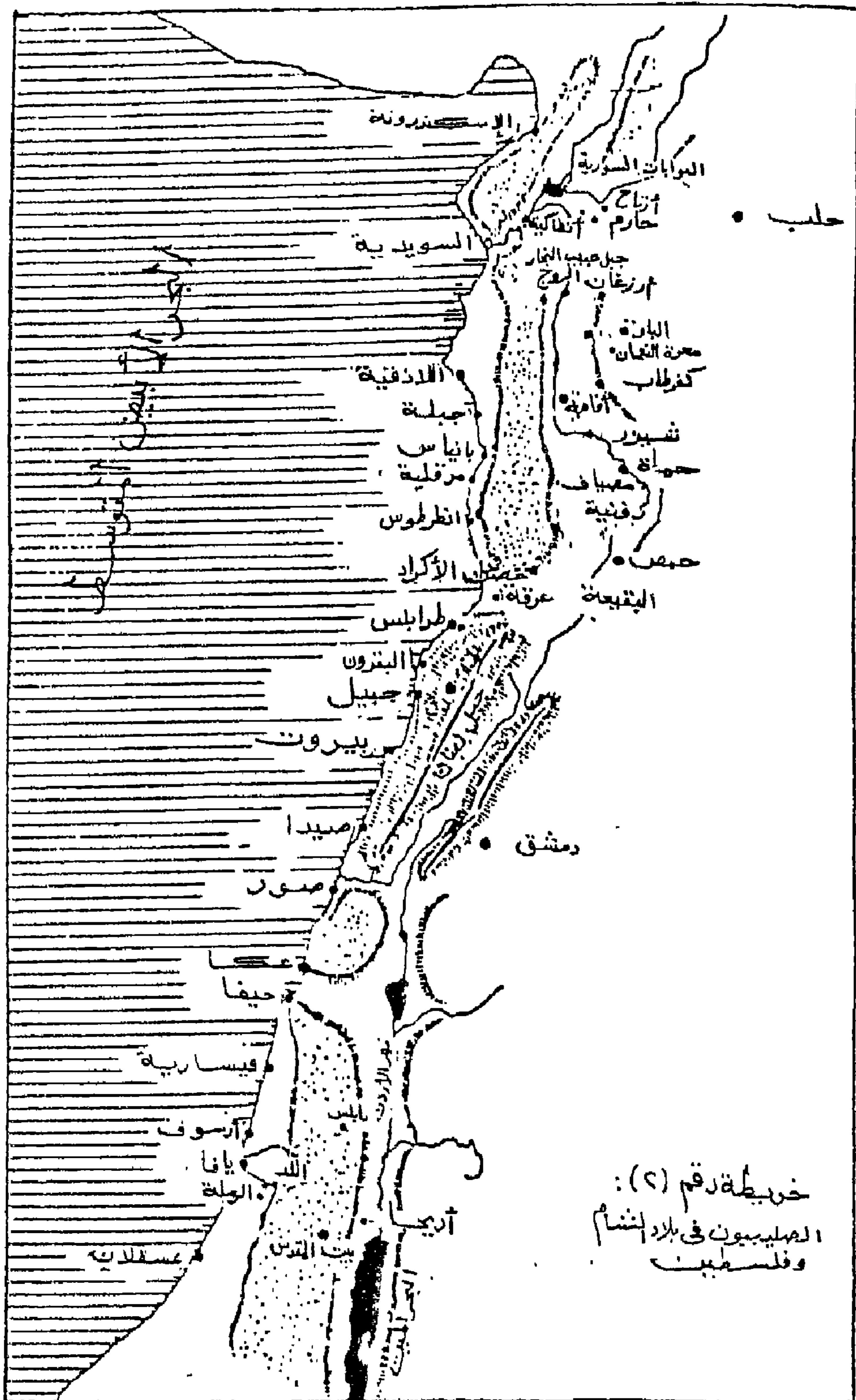
وعلى أية حال ، فإن استهجا ريمونداجيل يوحى بأنه يقصد بها تل باشر " Turbessel " وقد تخلى تاتيكوس عن الحصار الصليبي لأنطاكية فى نهاية فبراير ٩٨ . ١ م . انظر :

Hagenmeyer, Chr., 230.

— فى الحقيقة لم يكن رحيل تاتيكوس من المعسكر الصليبي خارج أسوار أنطاكية هروبا ، يرجع إلى الجبن الذى وصفه به المؤرخون اللاتين أو خيانة منه للفرنج ، وإنما اضطر الرجل إلى الرحيل لشعوره أنه غير مرغوب فيه بين الفرنج . ولا يتضح ذلك إلا بمعرفة تفاصيل رواية آن كومنين — فقد روت المؤرخة البيزنطية أن تاتيكوس رحل عن الفرنج نتيجة لتأمر بوهيمند الذى أخبره سراً بأن القادة الصليبيين قد علموا بأن الامبراطور البيزنطى قد حرض السلطان السلجوقى على الفتك بالصليبيين ، ولذلك فهم — الفرنج — قد اتفقوا على الشار من تاتيكوس ، وبذلك دفعه بوهيمند إلى الرحيل . وإذا تفحصنا كل الروايات التى قيلت بشأن هذا الحدث ، سنجد أن رواية آن كومنين أشد إقناعا . فأنى لتاتيكوس أن يعلم بنبأ قدوم السلاجقة كما يذكر مؤلف الجستا ، دون أن يعلم به الصليبيون أيضا ؟ . ثم كيف ينوى تاتيكوس عسكسدم العودة — بعد أن يأتى بالمؤن كما أخبر هو الفرنج — كما يذكر ريمونداجيل فى الوقت الذى ترك فيه جميع مساعديه مع الجيش البيزنطى فى المعسكر الصليبي كدليل على أنه سيعود بالمؤن ؟ ثم كيف يكون تاتيكوس جباناً يخشى قدوم الترك وقد لمس ريمونداجيل بنفسه شجاعة وحزم الرجل ؟ ولماذا لا يكون وجود تاتيكوس كنائب للإمبراطور البيزنطى مع الفرنج عقبة فى سبيل استئثار بوهيمند بأنطاكية لنفسه ، كما قرر ريمونداجيل من قبل ؟ ومن المؤكد أن تاتيكوس كان سيطالب بأنطاكية حسب اتفاقية القسطنطينية (مايو ٩٧ . ١ م) التى عقدها الفرنج مع الامبراطور البيزنطى . لذا تخلص منه بوهيمند . وإذا كان المؤرخون اللاتين قد تجابهوا ضد القائد البيزنطى ، فقد نصفه واحد من بنى جلدتهم وهو أوردريك فيتاليس الذى ذكر أنه عندما قسدم تاتيكوس تقريره للإمبراطور البيزنطى ، استعد الأخير واتخذ طريقه إلى أنطاكية لمساعدة الفرنج ، ولم يشنه عن المضى فى قراره سوى ما أخبره به ستيفن كونت بلوا ، الذى هرب من المعسكر الصليبي قبيل سقوط أنطاكية فى أيدى الفرنج بيوم واحد ، من أن السلاجقة قضوا على الفرنج ، فأثر الامبراطور العودة إلى بلاده للتصدي لما قد يقوم به السلاجقة من هجوم ضدها وهو بعيد عنها فى بلاد الشام . انظر :

Anne Comnen, *The Alexiad*, p. 287, *Gesta Francorum*, pp. 34 - 35, 44-45, Raimond d'Agiles, *Historia Francorum*, in *RHC*, vol. 111, pp. 245 - 246; Ordric Vitalis, *Historia Ecclesiastica*, vol. 5, p. 77. C.F. also, Chalandon, *Histoire de la Premiere Croisade*, pp. 192 - 193; Runciman, *A History of the Crusades*, vol. 1, p. 224; J. France, *The departure of Tatikos from The Crusading Army*, in *BIHR*, vol. 44, no. 110, 1971.

راجع أيضا : جوزيف نسيم : العرب والروم ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ ، حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ، الاسكندرية ، ١٩٨٩ م ، ص ١١٦ .
(الترجمة العربية) .



الفصل الخامس

المرحلة المتأخرة من حصار أنطاكية

تشديد الحصار

جاءت الآن أخبار بأن قائد الخليفة على رأس جيش كبير من كوروزان Corozan كان يجلب المعونة إلى أنطاكية^(١) . وبعد انعقاد مجلس الحرب في خيمة أدهيمار ، صدرت أوامر لرجال المشاة بالدفاع عن المعسكر وللفرسان بالخروج لملاقاة القوة الجديدة . وكان السبب في صدور هذا القرار أن الجبناء وغير اللاتقين في صفوف المشاة ، ربما أظهروا جبناً أكثر مما يظهرون من شجاعة إذا رأوا قوة كبيرة من الأتراك . ورحلت الجماعة التي ستقوم بالحملة تحت جنح الظلام ، واختبأت في بعض التلال على بعد فرسخين من المعسكر ، بحيث لم يستطع المدافعون عن أنطاكية أن يعلموا برحيلهم . والآن أود أن يستمع من حاولوا أن يحطوا من شأن جيشنا في الماضي ، إلى هذا : وليسمعوا فعلاً ، حتى إذا فهموا المثل الذي بضربه الرب على رحمته نيابة عنا ، عساهم أن يسرعوا بإرضاء الرب بدموع الندم .

فقد زاد الله من حجم الوحدات الست من الفرسان بحيث بدا أن كل وحدة زادت من أقل من سبعمائة رجل إلى أكثر من ألفين . وبكل تأكيد ، فإنه لما يشق على ، أن أتحدث عن شجاعة الجيش ، الذي كان فرسانه يغنون أغاني الحرب بكل ابتهاج حتى بدا وكأنهم ينظرون إلى المعركة القادمة كما لو كانت من الألعاب الرياضية . ويجدر بنا هنا أن نلاحظ أن موقع القتال القادم كان بالقرب من مكان يتدفق النهر عنده على بعد ميل من المستنقع ، وبذلك حالوا دون استخدام الأتراك لحركات الالتفاف المعتادة والتي كانت تعتمد على نشر قواتهم . وفضلاً عن ذلك فإن الرب الذي قدم لنا الميزات السابقة الذكر ، قد أمدنا الآن بستة أودية متاخمة

تستطيع قواتنا أن تتحرك فيها إلى المعركة . هكذا ، ففي خلال ساعة كنا قد زحفنا واحتلنا الميدان . وما إن سطعت الشمس على أسلحتنا ودروعنا حتى بدأت المعركة ورجالنا يندفعون إلى الأمام ، بينما كان الأتراك يتحركون جيئة وذهاباً ، ويطلقون سهامهم ويتراجعون ببطء ^(٢) .

ومع ذلك ، فقد نزلت بقواتنا خسائر فادحة ، حتى دفعت بالخط الأول من الأتراك إلى تشكيلات المؤخرة . وقد أخبرنا الذين تركوا مواقعهم فيما بعد ، أنه كان هناك على الأقل ثمانية وعشرين ألفاً من الفرسان الأتراك في هذا اللقاء . وعندما اختلطت خطوط الأعداء في النهاية صلى الفرنجة للرب ، واندفعوا إلى الامام ، وفي الحال فان الرب الحاضر أبداً « القوى القدير في المعارك » حمى أبناءه وأذل الوثنيين ^(٣) . بعد ذلك طاردهم الفرنجة لعشرة أميال تقريباً من مكان المعركة إلى قلعتهم شديدة التحصين . ولدى رؤية هذا السيل الجارف قام من كانوا بالقلعة بإحراقها ولاذوا بالفرار ^(٤) ، وأحدثت هذه النتيجة ابتهاجاً وغبطة في المعسكر ، لأننا اعتبرنا أن إحراق القلعة نصر آخر .

وفي نفس الوقت شب القتال بلا ضابط في كل مكان باتجاه أنطاكية ، لأن أعداءنا كانوا يخططون للقيام بهجوم ذي شعبتين - إحداها من المحاصرين (بداخل أنطاكية) ، والأخرى من القوات المساعدة التي لم تكن متوقعة . ولم يحاب الرب طرفاً على الآخر ، وحارب مع المشاة بينما كان يبتسم للفرسان بحيث لم يكن الانتصار الذي أحرزه المشاة على المحاصرين أقل قدراً من صد الفرسان للتعزيزات . وبعد أن كسبنا المعركة وفزنا بالغنائم ، حملنا رموس القتلى إلى المعسكر ، وعلقناها على أعمدة كتذكرة بائسة لحالة حلفائهم الأتراك ، وما ينتظر المحاصرين من مصائب . والآن حين نتأمل فأننا نستنتج أن ذلك كان أمر الرب ، لأن الأتراك كانوا قد ألحقوا بنا العار من قبل ، حينما غرسوا سن راية مريم المباركة ، التي استولوا عليها ، في الأرض . وهكذا قدر الله أن رؤية رموس الأصدقاء التي لا حياة فيها والمحمولة على عصي مدبية ، ستمنع المدافعين عن أنطاكية من معايرتنا بعد ذلك ^(٥) .

كان سفراء ملك مصر موجودين أثناء هذه الأحداث ، وعندما رأوا المعجزات التي صنعها الرب من خلال عبده ، أثنوا على يسوع ، ابن العذراء مريم ، الذي داس من خلال أولئك الشحاذين التعساء تحت قدمه أقوى الطغاة^(٦) . فضلا عن ذلك ، فقد وعدوا ب صداقتهم ومعاملتهم الطيبة ، وذكروا الأعمال الطيبة التي يقوم بها ملكهم للمسيحيين المصريين ولحجاجنا . وبالتالي فإن مبعوثينا المكلفين بالدخول في صلح ودي رحلوا معهم .

وقد تزامنت هذه الأحداث مع قرار أمرائنا بتحصين منطقة على التل تشرف على مخيمات بوهيمند ، بحيث يمكن فيها إحباط أي هجمات معادية محتملة على مخيماتنا . وعند اكتمال هذا العمل ، تقوّت تحصيناتنا حتى أصبحنا ، من كافة النواحي ، مدينة مغلقة هي نتاج العمل الجاد والتضاريس الطبيعية . وهكذا ، فإن هذه القلعة الجديدة الواقعة إلى الشرق منا ، بالإضافة إلى أسوار أنطاكية ، والمستنقع القريب الذي يحميها ، كانت تحرس معسكرنا ، وتحمي من هجمات المحاصرين على المناطق القريبة من الأبواب . بالإضافة إلى ذلك ، فقد كان هناك نهر يتدفق إلى الغرب ، كما كان هناك سور قديم يتلوى أسفل الجبل إلى النهر . كما أن خطة تقوية موقع آخر على الجبل الصغير الواقع أعلى الجسر التركي ، لاقت قبولا عاما ولكن آلات الحصار التي صنعت في المعسكر ثبت أنها غير ذات فائدة .

وفي الشهر الخامس من الحصار ، بينما كانت سفننا التي تحمل المؤن راسية في الميناء ، بدأ المحاصرون يسدون الطريق إلى البحر ويقتلون أطقم التمين^(٧) . وفي أول الأمر ، كان الأتراك يهددوننا دائما ، وكان السبب الأكبر في ذلك هو عدم ميل قادتنا إلى الرد عليهم بأعمال ثأرية ، فجرأهم ذلك . ولمواجهة هذه الأخطار ، قررنا في النهاية أن نحصن المعسكر بالقرب من الجسر . ونظرا لتغيّب جزء كبير من قواتنا في الميناء ، فقد تم اختيار بوهيمند والكونت لتأمين عودة المتغيّبين ، وأيضا لنقل المعاول والأدوات الأخرى اللازمة لبناء القلعة الجديدة . وعندما علم المحاصرون بمهمة ريموند وبوهيمند ، بدأوا هجماتهم المعتادة . فتقدمت قواتنا بدورها بتهور ودون نظام ، فتبعثرت وانهزمت بشكل مشين .

وفى اليوم الرابع ، وعندما كان الكونت وبوهيمند عائدتين مع جمع كبير من الميناء ، وهم يظنون أنهم فى أمان فى هذه المعصنة ، كان الأتراك يتجسسون عليهم . ولكن لماذا نطيل فى سرد هذه القصة ؟ لقد جرى قتال ، وهربت قواتنا وخسرنا حوالى ثلاثمائة رجل ، ولا أحد يعرف كم فقدنا من الغنائم والأسلحة . وبينما كانوا يقتلوننا كالمواشى فى الجبال والصخور ، تحركت المعونة القادمة من المعسكر لملاقاة الأتراك الذين توقفوا عن قتل الهاربين . يا إلهى ، يارب ، لماذا هذه المحن ؟ إن قواتنا داخل المعسكر وخارجه ممن كانوا يتمتعون بخدمات أعظم قائدين فى جيشك ، ريموند وبوهيمند ، تغلب عليهم الأعداء وانهزموا . هل نهرب إلى المعسكر أم يهرب حراس المعسكر إلينا ؟ « قم أيها الرب ساعدنا تمجيداً لاسمك » ^(٨) . ولو أن أخبار هزيمة الأمراء وصلت إلى المعسكر ، أو لو أننا علمنا بهزيمة كتائب الجيش لهرينا هروباً جماعياً . وفى اللحظة المناسبة ، ساعدنا الرب ، وبث الشجاعة فى قلوب الذين روعهم من قبل ، فجعلهم يتقدمون إلى أول صفوف المعركة .

وعندما رأى ياغى سبان ، قائد أنطاكية ^(٩) ، أمتعتنا المسروقة وانتصاره ، فضلا عن اندفاع قلعة من المسيحيين ، أرسل فرسانه ومشاته من المدينة . ولما كان واثقاً من نجاحهم ، فإنه أمر بإغلاق أبواب أنطاكية خلفهم ، فكأنه كان يطلب من جنوده أن ينتصروا فى القتال أو يهلكوا . وفى نفس الوقت فإن الصليبيين حسب الأوامر الصادرة إليهم ، تحركوا إلى الأمام تدريجياً ، إلا أن الأتراك راحوا يجرّون هنا وهناك ويطلقون السهام ، ويهاجمون رجالنا بجرأة . ولم توقف هذه المناورات التركية رجالنا ، ورغم أنهم عانوا من تلك المناورات فإنهم انتظروا الوقت المناسب لشن هجوم كبير . وكانت الدموع المنهمرة والصلوات الصاعدة تجعل المرء يعتقد بأن رحمة الرب قريبة .

وعندما حان وقت المواجهة ركع فارس بروفنسالى نبيل جداً ، وهو إيزوارد أوف جانجيز ، يصحبه مائة وخمسون من المشاة ، وطلب العون من الرب ، وحث رفاقه على التحرك صائحاً « اهاجموا يا جنود المسيح ! » ^(١٠) وألقى بنفسه على

الأتراك ، ومع اندفاع قواتنا إلى الهجوم ، تحطمت غطرسة العدو . كان الباب مغلقاً ، والجسر ضيقاً ، والنهر متسعاً ^(١١) . فماذا بعد ؟ لقد سُحق الأتراك المفزوعون سحقاً ، أو قُتلوا أو حطمتهم الأحجار فى النهر ، فلم يكن هناك مهرب . وكان يمكن أن يمر اليوم بسلام على أنطاكية ، لولا أن ياغى سيان فتح الباب على مصراعيه . ولقد سمعت بنفسى ، من كثيرين من المشركين فى هذا اليوم ، أنهم أوقعوا عشرين شخصاً أو أكثر من الأتراك فى النهر مع سور الجسر . وهناك برز جودفرى بشكل عظيم ، حيث سد الطريق على الأتراك المتزاحمين ليدخلوا من الباب ، وأجبرهم على الإلتقسام إلى صفين وهم يصعدون المرتفعات .

وبعد قداس دينى ، سار المنتصرون السعداء عائدين إلى المعسكر ، ومعهم غنائم عظيمة وخيول كثيرة . آه أيها الأخوة المسيحيون يامن تبعتمونا للوفاء بنذركم ، كم كنا نود لو أنكم شهدتم هذا الحدث الجدير بالذكر ، لقد أسرع فارس ، خوفاً من الموت ، بإلقاء نفسه فى أعماق النهر فتخطفه زملاؤه الأتراك ، وألقوا به من على حصانه ، وغرق فى النهر مع الطفمة التى تعلقت به ^(١٢) . لقد كان فى رؤيتنا للجموع العائدة مكافأة على أهوال ذلك اللقاء . فراح البعض يجرون هنا وهناك بين الخيام على خيول عربية وهم يعرضون على أصدقائهم كنوزهم الجديدة ، وأخذ البعض الآخر ، وهم فى حُلَّتَيْن أو ثلاث من الحرير ، يمدحون الرب ، الذى أنعم عليهم بالنصر والعطايا ، بينما راح آخرون ، وقد تسربلوا بثلاثة دروع أو أربعة ، يعرضون تلك التذكارات لانتصارهم . وبينما كان يمكنهم إقناعنا بهذه العلامات وغيرها من الغنائم الأخرى بعظمة قدراتهم القتالية ، فإنه لم يكن فى وسعهم إعطاؤنا أى معلومات دقيقة عن عدد الموتى ، لأن إبادة الأتراك انتهت ليلاً وبالتالى فإن رؤوس القتلى من الأعداء لم تجلب إلى المعسكر .

ومع ذلك فقد اُكتُشِفَتْ فى اليوم التالى فى موقع كانت ستقام عليه تحصينات أمام جسرهم ، اكتشفت جثث بعض أعدائنا فى خندق قريب من أحد الجبال استخدمه المسلمون كمقبرة . وأثارت رؤية غنائم الأتراك ، رجالنا الفقراء ،

معظمهم ، سيلوذون بالفرار ، ولكن ، على العكس من ذلك ، أحاط به أعداؤه ذات صباح عند بزوغ الفجر .

وقد تجلّت معجزة كبرى تدل على حماية الرب ، عندما تمكن ستون من رجالنا من صد هجمة قام بها سبعة آلاف من المسلمين ، وأروع من ذلك سيلاً من الأمطار أغرق في اليوم السابق الخندق المحيط بالقلعة وملاء بالماء . وهكذا ، فلم تكن هناك أى عقبة تعوق حركة الأعداء إلا قوة الرب . ومع ذلك ، فإننى أعتقد أن ذلك لايعنى أن نتجاهل الشجاعة العظيمة لكثير من الفرسان الذين كانوا يقومون بحراسة الجسر ، فانهزلوا ، ووجدوا أنفسهم عاجزين عن الهرب ، حيث المسافة بينهم وبين قلعتهم مرمى سهم . فاندفع هؤلاء الفرسان إلى الأمام فى مواجهة المسلمين فى تشكيل دائرى نحو ناصية بيت قريب ، حيث واجهوا بشجاعة وصمود ، الهجوم المحيط بهم فى شكل سيل منهمر من السهام وسحبا هائلة من الصخور .

فى الوقت نفسه جذبت جلبة القتال قواتنا ، وهكذا أنقذت القلعة من الذين هاجموها ، ومع ذلك فعلى الرغم من أن الأتراك توقفوا عن اندفاعهم عندما رأوا اقتراب التعزيزات ، وتم القضاء على من كانوا فى المؤخرة ، رغم أنهم كانوا على مقربة من جسرهم . وتم إصلاح خندق القلعة وأسوارها مرة أخرى ، بحيث يمكن لحاملى الطعام أن يعودوا بأمان من الميناء . وبالتالى ، هدأ الغضب الذى كان قد حل بالكونت إلى حد أن نادره باسم « أبو جيشنا والمدافع عنه » وفى أعقاب هذه الأحداث ذاع صيت ريموند لأنه واجه هجمات العدو وحيداً . وبعد سد طريق الجسر وباب الجسر ، قام الأتراك بطلعات من باب آخر يقع فى الجنوب وبالقرب من النهر . ومن هنا قادوا خيولهم إلى ركن ، كفل لهم مرعى رائعاً بين الجبال والنهر .

وبعد الاستطلاعات وتحديد الوقت ، دار بعض رجالنا حول المدينة بعبور جبل وعمر ، بينما خاض آخرون فى النهر ، وقاد هذا الفريق المشترك ألفى حصان بعيداً عن المرعى . ولم يكن يدخل فى هذا العدد البغال وإنائها التى أسترِدّت .

وجدبر بالذكر أن الكثير من اناث البغال كانت قد تعرضت للسرقة فى وقت سابق .
فى الطريق من البحر إلى أنطاكية ، وذلك على يد الأتراك ، وبعد استرداد هذه
الحيوانات الآن أعيدت إلى أصحابها بعد التعرف عليها .

بعد ذلك مباشرة حصّن تانكرد ديراً يقع على الجانب الآخر من النهر ونظرا
لأهميته فى سد طريق المدينة أعطى كونت تولوز لتانكرد مائة مارك فضى كما
أسهم الأمراء الآخرون كل حسب قدرته . وهكذا فانه يسعدنى أن أذكر أننا رغم
كوننا أقل عدداً فان نعمة الله جعلتنا أقوى من العدو كثيراً . وفى ذلك الوقت كان
حملة الأخبار الذين يصلون إلينا يبلغون عن تعزيزات للعدو . والواقع أن هذه
الشائعات لم تنتشر فقط من عند الأرمن واليونانيين ، بل أيضا من المقيمين فى
أنطاكية . وألفت نظركم إلى أن الأتراك قل احتلوا أنطاكية قبل أربعة عشر
عاماً ، ولعدم وجود خدم فإنهم استخدموا الأرمن واليونانيين لذلك الغرض ،
وزوجوهم من نسائهم . ومع ذلك فقد كانوا يميلون إلى الفرار إلينا بالخيول
والأسلحة بمجرد أن يتاح لهم الهرب . وهرب كثير من الصليبيين الجبناء مع التجار
الأرمن عندما انتشرت هذه الشائعات ، ولكن من ناحية أخرى ، فان الفرسان
الأقوياء من قلاع عديدة عادوا وجلبوا أسلحتهم وأصلحوها وعدلوا من شأنها .
وعندما اختفى الجبن المتخاذل بدرجة كافية أو عادت الجرأة ، التى كانت كفييلة فى
كل وقت وزمن لمواجهة كل الأخطار مع الأخوة ومن أجلهم ، فإن واحداً من الأتراك
المحاصرين وثق فى أمرائنا إلى حد أنه كان سيسلمنا أنطاكية ^(١٦) .

* * * * *

هوامش الفصل الخامس

(١) المقصود بكوروزان Corozan هو إقليم الموصل من العراق . وكانت هذه المنطقة في وقت من الأوقات هي الجزء الشمالي من إيران المعروف بخراسان . ونعتقد أن المؤرخ يستخدم هذه الكلمة ليصف بلاد الوثنيين كما جاء في إنجيل متى .

انظر : Matthew, 11 : 21 .

ويشير ريمونداجيل إلى رضوان صاحب حلب .

- في الحقيقة إلتبس الأمر هنا على ريمونداجيل ولم يفرق بين رضوان بن تتش صاحب حلب وبين كربوغا أتابك الموصل الذي سيأتي لنجدة أنطاكية بعد أن سقطت في أيدي الفرنج . أما عن محاولة رضوان مساعدة أنطاكية فتأتي كرد الفعل الاسلامي الثاني بعد محاولة شقيقه دقاق من قبل . وقد خرج رضوان من حلب في بداية فبراير ١٠٩٨ م / آخر صفر ٤٩٢ هـ بصحبة سقمان بن أرتق . وكالعادة جاء رد الفعل الاسلامي هذه المرة أيضا متأخرا وهزئياً . فلو أن رضوان كان تناسى خلافاته مع ياغي سيان وأخيه دقاق وهاجم الصليبيين أثناء أزمتهم الإقتصادية لحملهم على فك الحصار عن المدينة . انظر :

Duc de Castries, La Conquête de la Terre Sainte Par Les Croisés, Paris,

1973.

والعبارة التي بدأ بها المؤرخ حديثه في هذه الفقرة (جاءت الآن أخبار) ، تؤكد بأن مؤرخنا لم يكن يعرف من تفاصيل هذه الأخبار سوى قدوم رضوان لنجدة أنطاكية . بينما كان مؤلف الجستا تابع بوهمبند يعلم كل التفاصيل . مما يدل على أن وظيفة ريمونداجيل لدى سيده كونت تولوز كانت دينية بحتة على الأقل حتى الآن . فقد كانت خطة رضوان أن يهاجم الفرنج فجأة بينما يهاجم ياغي سيان المعسكر الصليبي من الخلف وبذلك يقع الفرنج بين شقي الرمح . إلا أن جواسيس الفرنج من السريان والأرمن قد أفشوا بهذه الخطة إلى بوهمبند الذي استعد تماماً . انظر :

Gesta Francorum, p. 35; William of Tyre, vol. 1, pp. 225 - 226.

(الترجمة العربية) .

(٢) جاء وصف ريمونداجيل للمعركة مشيراً للعواطف ولم يساعد على فهم الأحداث . وقد لاحظ أن السلاجقة لم يتمكنوا من القيام بحركة الالتفاف التي كانت تؤدي إلى هلاك الفرنج لو تمت . وفي هذه المعركة ، حصر الفرنج قوات رضوان في المنطقة الضيقة بين بحيرة أنطاكية ونهر العاصي .

(٣) (الرب الحاضر أبدا « القوى القدير فى المعسارك ») . هذه العبارة اقتبسها المؤرخ من العهد القديم . أنظر :
Psalm 23 : 8.

(٤) يتحدث المؤرخ هنا عن استيلاء الفرنج على حارم بعد هزيمة رضوان . وحارم تقع إلى الشرق من أنطاكية .

- وتقع حارم على بعد ١٦ ميلا من أنطاكية كما جاء فى معجم البلدان . وكان استيلاء الفرنج عليها يعتبر تهديدا مباشرا منهم لحلب . وكانت هزيمة قوات رضوان وسقوط حارم فى أيدي الصليبيين فى ٩ فبراير ١٠٩٨ م / ٤ ربيع أول ٤٩١ هـ . انظر : ياقوت الحموى : معجم البلدان - ٤ ج وفهرس - ليبزج ١٨٦٦ - ١٨٧٠ م . ج ٢ ، ص ١٨٤ . راجع أيضا
Albert d;Aix, pp. 381 - 382.
(الترجمة العربية) .

(٥) يمارس المؤرخ هنا فكرة العدالة الخيالية حين يجعل الرب يرغب فى ضرب أعناق الأتراك وتثبيت رؤوسهم فى أطراف العصي كعقاب لهم على قتلهم براءة مريم المباركة .

(٦) المقصود بملك مصر هو الأفضل شاهنشاه ، وزير مصر . وكان الفاطميون يرغبون فى مشاركة اللاتين ضد أعداءهم الأتراك . وكان الامبراطور ألكسيس مبالا إلى الفواطم وحث الصليبيين على التعاون معهم . ولكن الخليفة اقترح على الصليبيين أن تقسم بلاد الشام السلجوقية بين اللاتين والفواطم . ورفض اللاتين هذا المشروع لأنهم كانوا يهدفون إلى أخذ فلسطين . انظر :

Hamilton Gibb, The Caliphate and the Arab States, A History of the Crusades, 1, 1955, pp. 81 - 98.

- فى الحقيقة تعد هذه الرواية من أهم القضايا التي يتضمنها تاريخ الحملة الصليبية الأولى ، والتي لازالت تحتاج إلى قول فصل فيها . وقد عالجت هذه القضية فى رسالتى للماجستير إلا أن الظروف حالت دون طبعها حتى الآن ، لذا قمت بتلخيص هذه المعالجة فى رسالتى للدكتوراة . إلا أن فرصة ترجمة تاريخ ريمونداجيل - أحد شاهدى العيان لأحداث الحملة الصليبية الأولى بكل دقائقها - تقتضى مناقشة هذه القضية ، خاصة وأن مائقوم به الآن فى سبيله إلى أن ينشر خلال فترة وجيزة . وطالما أننا نتعامل - ونحن نعالج تاريخ الحملة الصليبية الأولى - مع مختلف القوى التى شدها الصراع الصليبي الإسلامى من بيزنطيين وأرمن وسلاجقة وعرب ولاتين . وطالما أننا نحاول الوصول إلى الحقيقة التاريخية كاملة ، دون محاباة طرف من هذه الأطراف على حساب

طرف آخر . فيجب عرض جوانب هذه القضية - الأمر الذى فشلت فيه الترجمة الانجليزية ، ربما عن عمد - حتى تستبين الحقيقة كاملة . فكل المؤرخين الحديثين أخذوا بما ذهب إليه هاملتون جب وهم فى ذلك مثله ، سلموا بما جاء فى روايات المؤرخين اللاتين المعاصرين للحملة الصليبية ، دون تمحيص ودراسة لنصوص هؤلاء .

فقد أيد مؤلف الجستا رواية ريمونداجيل عن وجود رسل الأفضل الوزير الفاطمى فى المعسكر الصليبي . كما ذكر ذلك كل من ستيفن كونت بلوا (فى رسالته التى بعث بها إلى زوجته أدिला والتى كتبها خارج أسوار أنطاكية بتاريخ ٢٩ مارس ١٠٩٨ م) وأنسلم راهب ريمونت (فى رسالته إلى مناسيس أسقف ريمز والتى كتبها فى يوليو ١٠٩٨ م) . ولا يتعد ما أورده هؤلاء أن الأفضل قد طلب من الصليبيين عدم التعرض لأمالك دولته فى بلاد الشام ويعنى بذلك فلسطين . إلا أن رواية ابن الأثير قد أعطت مدى أوسع للمؤرخين الحديثين . فإذا كانت روايات اللاتين شهود العيان قد أمدتهم بنصف البرهان على ما ذكره هاملتون جب ، وهو وجود رسل الفواطم فى المعسكر الصليبي خارج أنطاكية ، فقد أمدتهم رواية ابن الأثير بتفاصيل إتفاقية عقدت بين الطرفين . وهى اقتسام بلاد الشام بينهما . ثم عادت المصادر اللاتينية لتؤكد التفاهم بين الطرفين حين ذكرت عودة السفارة الفاطمية إلى مصر بصحبة بعض الرسل من اللاتين ، ربما لإتمام الإتفاق فى القاهرة . وكل ذلك يدين الوزير الفاطمى الأفضل - وليس الخليفة المستعلى - وهو وزير تفويض فى يده الحل والعقد فى الدولة الفاطمية . وربما يدين الفواطم بصفة عامة على موقفهم المتخاذل تجاه الصالح الاسلامى العام . إلا أن ذلك لا يعتبر نهاية المطاف فى هذه القضية . وتحليل النصوص والأحداث يثبت غير ذلك . فلم ترد فى أى من المصادر اللاتينية - أو الاسلامية - أية نصوص محددة لاتفاقية الأفضل مع اللاتين . وإذا كانت هناك اتفاقية محددة البنود كما أورد ابن الأثير ، لكان بوهيمند هو الذى وقعها مع الفواطم ، وهو الذى تولى أمر الفرنج منذ معركة حارم وحتى سقوط أنطاكية فى أيديهم ، ولكان أوردها مؤرخه الخاص - مؤلف الجستا - حتى يبرز دور سيده فى الأحداث . أما ابن الأثير فهو يكتب عن أحداث لم يشاهدها ، ولم يكن معاصرا لها (ولد ابن الأثير فى عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) . كما أن روايته تتسم بالاضطراب ، ونفهم منها أن اتصال الفواطم بالفرنج قد تم قبل خروج اللاتين من أوربا . وقيل أن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنتها

واستبلاها على بلاد الشام إلى غزة ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم ودخول الإقيس (أتسز) إلى مصر وحصرها فخافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ويملكوه ويكون بينهم وبين المسلمين والله أعلم . كما يبدأ عبارته بما يثبت عدم تأكده منها « وقيل » ، وكذلك فإنه ينهيها بما يشبه ذلك « والله أعلم » . كما أنه لم يحدد صراحة إقتسام الشام بين الفرنج والفواطم بل « ويملكوه ويكون بينهم وبين المسلمين » والمسلمين هنا تعنى السلاجقة والأمراء العرب في طرابلس وشيزر وحماة والفواطم أيضا . وإذا سلمنا بوجود رسل الأفضل لدى الفرنج ، الذى جعل وليم الصورى (الذى لم يكن شاهد عيان إلا للاحداث منذ عام ١١٦٢م / ٥٦٣ هـ فقط) يعتقد فى فرج وسرور الفواطم لما ألم بالسلاجقة على أيدي الفرنج ، فإن التفسير الوحيد لوجود هؤلاء الرسل لدى الفرنج هو أن الأفضل - مثله فى ذلك مثل كل حكام الشرق الأدنى الاسلامى فى ذلك الوقت - قد خدع ، ولم يتفهم طبيعة الحركة الصليبية والهدف من وجود الصليبيين فى بلاد الشام . وربما اعتقد أن الحملة الأولى ما هى إلا مجرد حملة بيزنطية أخرى لصد المد السلجوقى . إلى جانب ذلك فإن الفرنج استغلوا عدم دراية الفواطم بطبيعة حملتهم على بلاد الشام ، وبعثوا إلى دقاق ملك دمشق يفهمونه أنه لامطامع لهم فى أملاكه ، وأن هدفهم هو استعادة أملاك بيزنطة بالشام ، حتى يثنوه عن محبة أنطاكية ، كما راسلوا رضوان ملك حلب لمهادنته ، ليتفرغوا لفتح أنطاكية ، كما ذكر ابن الأثير نفسه « وكان الفرنج قد كاتبوا صاحب حلب ودمشق بأننا لا نقصد غير البلاد التى كانت بيد الروم لا نطلب سواها مكرأ منهم وخديعة حتى لايساعدوا أنطاكية » . وما من شك أن مراسلات الفرنج إلى أمراء وقادة المسلمين تعد عملاً سياسياً ناجحاً ساعدهم على ستر مقاصدهم وأهدافهم الحقيقية ، الأمر الذى أدى إلى خديعة بعض القوى فى المنطقة ، حتى استولوا على أنطاكية . ولما احتفظوا بها لأنفسهم ، اتضحت الصورة للأفضل ، الذى سارع بالاستيلاء على بيت المقدس من الأراتقة نواب تتش فيه ، كما أن موقف الأفضل من الحملة الأولى وتصديه لها فى عسقلان فيما بعد ، ثم حملاته ضد مملكة بيت المقدس المتوالية ، وتصادمه معهم فى حملات الرملة الثلاث توضح عدم تراخيه فى التصدى للوجود الصليبي قدر استطاعته . وتوضح أن الانشقاق فى الصف الاسلامى وعدم تضافر القوى الاسلامية فى المنطقة هو السبب الرئيسى فى النجاحات التى حققها صليبيو الحملة الأولى . ومن كل ما سبق =

== لانستطيع الأخذ بما يذهب اليه كثير من المؤرخين الحديثين باطمئنان تام . انظر :
ابن الأثير : الكامل ، ج ١ ، ص ١١٣ - ١١٤ . راجع أيضا :

Gesta Francorum, p. 37., Epistolae, ed. Hagenmeyer, pp. 149 - 152, 156 -
160; William of Tyre, History of Deeds, vol. 1, pp. 222 - 224. C.F. also,
Runciman, op. cit., vol. 1, p. 229.

راجع أيضا : سعيد عاشور: شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية ، مجلة
الجمعية التاريخية المصرية ، المجلد ١٦ ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ١٩ وما بعدها ، حسين
عطية : إمارة أنطاكية ، ص ١٠٥ - ١٠٧ .

(الترجمة العربية) .

(٧) تقع القلعة التي اقترح بناؤها في مواجهة باب الجسر . والأسطول الذي يشير إليه المؤرخ
هو الذي حضر على متنه بعض الحجاج (الصليبيين) الانجليز والاطالين . ولم
يتفق المؤرخسون الحديثون حول مشكلة حضور قائد الأسطول المدعو إدجار أثلينج
. Edgar Atheling

(٨) « قم أيها الرب ، ساعدنا نجيدا لإسمك » ، تستخدم هذه العبارة عادة للتأثير . انظر :
Psalm, 34 : 2.

لم تكن رواية ريمونداجيل عن نصب الكمين لقوات كونت تولوز وبوهيمند فرضية . وقد
أحجم المؤرخ عن القيام بوصفها بينما يستخدمها كوسيلة ينقل بها إلينا العلوم الكنسية
التي درسها هو . وقد كانت مهمة كونت تولوز وبوهيمند قد وقعت في ٥ مارس
١٠٩٨ م .

انظر : Hagenmeyer, Chr., 242.

ومن المحتمل أن الكمين قد نصب للفرنج في ٦ مارس . انظر : Ibid, 243.

(٩) كان ياغي سيان السلجوقي حاكما لأنطاكية (١٠٨٧ - ١٠٩٨ م) . ولم يكن في
استطاعة القادة الأتراك توحيد قواتهم ، ولم تفلح جهود رضوان ابن تتش المعوقة في فك
الحصار الصليبي حول أنطاكية .

(١٠) كلمة " Eia " كلمة عامة في الشعر . وقد ترجمناها ترجمة غير حرفية لأننا نعتقد أن
كلمة « إهجموا » " Charge " تعبر عن معنى كلمة Eia في هذه الفقرة .

(١١) من المحتمل أن المؤرخ قام باقتباس التعليقات على أخطار « الطريق الواسع والصعوبات التي تكتنف الطريق الضيق » من المجيل متى أو المجيل لوقا . انظر :

Matthew, 7 : 13; Luke, 13 : 24.

(١٢) يسعد ريمونداجيل هنا لفرق الأتراك . والمياه العميقة هي رموز عامة للبؤس . اقتبسها المؤرخ من مزامير داود (العهد القديم) .

Psalm, 106 : 24.

انظر :

(١٣) لدينا هنا مثال آخر للعدالة الخيالية . وفي هذه المرة أصبح قتلى السلاجقة طعاما للوحوش والجوارح التي تكونت وليمتها السابقة من جثث الفرنج الذين قتلهم السلاجقة . وهذا مقتبس من سفر إرميا (العهد القديم) .

Jeremiah, 16 : 4.

انظر :

(١٤) أطلق الصليبيون على الحصن الجديد اسم قلعة المنبر La Mahomerie . وقد قام كل من جاستون دي برن Gaston de Béarn وبطرس أوف كاستيلون Peter of Castillon وريموند إوف تورين Raymond of Turenne ووليام أوف مونتبلية William of Montpellier وجوفيه أوف لاستورز Gouffier of Lastours ووليام أوف سابران William of Sabran بمساعدة كونت تولوز في حماية الحصن . وجلبت الأحجار من مقبرة المسلمين لبناء الحصن ، وتم العمل فيه حوالي ٢٠ مارس ١٠٩٨ م .

- واسم قلعة المنبر La Mahomerie مشتق من كلمة فرنسية قديمة بمعنى مسجد Mosque . ولأن ريموند كونت تولوز هو صاحب فكرة بناء هذه القلعة ، وهو الذي تولى أمر الدفاع عنها فقد صارت تحمل اسم قلعة ريموند .

Runciman, op. cit., vol. 1, p. 228.

أنظر :

(الترجمة العربية) .

(١٥) استغل ريمونداجيل سيده كونت تولوز ليستعرض معلوماته عن شرور الكسل والشع ، والعودة إلى طريق القوة والحكمة . وعن تبعات الشع . انظر :

St. Ambrose, De officiis, in MPL, 16, Cols. 137 - 138.

(١٦) شيد الصليبيون قلعة في المكان الذي كان به دير القديس جسورج . وقرر المجلس الذي عقده الفرنج في ٥ أبريل ١٠٩٨ م بناء هذه القلعة واتفقوا على أن يدفعوا لتكريد

٣٠٠ أرعمائة مارك فضى لمماية القلعة . وقد ساهم كونت تولوز بررع هذا المبلغ . وإشارة المؤلف إلى التركي الذى وثق فى أمرائنا لها أشكال متعددة . فيتفق المخطوط GDEFG مع النسخة A ولا يستخدم تعبير « خلال بوهيمند » " Per Boamundum " .
ويستخدم المخطوط B هذا التعبير . حيث ورد فى هذا المخطوط كما يلى :
" quidem de Turcatis qui erat, per Boimundum in Civitate, principibus mandavit nostris " .
« ضلّ أحد أتراك المدينة ، بواسطة بوهيمند ، وكان سيعهد إلى أمرائنا بالمدينة » .
وهذه الجملة ليست واضحة وتدفعنا إلى الاعتقاد بأنه قد تم إقحام بعض الألفاظ فى النص .

الفصل السادس

الإستيلاء على أنطاكية

فى أعقاب إجتماع مشترك أرسل الأمراء بوهيمند وجودفرى وأيضاً كونت الفلاندر للتحقق من هذا العرض . وعند وصولهم إلى أحد تلال أنطاكية فى منتصف الليل أتى رسول من التركى الخائن وأمرهم « لا تتحركوا حتى يمر أمامكم مصباح »^(١) .

وكان من المعتاد أن يمر ثلاثة رجال أو أربعة حاملين المصابيح بحذاء الأسوار ، لايقاظ الحراس وتنبيههم . وعندما مرت المصابيح ، وضع رجالنا الرايضون فى ظلال الأسوار سلباً وبدأوا يتسلقون . واعتلى السور فرنجى يدعى فولجير . وهو بلا شك شقيق بوديللوس أوف شارتر ، بلا خوف وتبعه عن كثب كونت الفلاندر الذى أمر بوهيمند والدوق بأن يتبعاه^(٢) . وعلى أية حال ، انقطع السلم فى تعجلهم الصعود ، إلا أن الذين كانوا قد وصلوا إلى أعلى السور فعلاً نزلوا داخل المدينة وفتحوا أحد الأبواب بالقوة ، ودخل الصليبيون بهذه الطريقة ، وقتلوا كل من لاقوه ، وعند الفجر صاحوا صيحات مرعبة جداً حتى أن المدينة كلها اضطربت وبكى الأطفال والنساء .

وراح بعض المسيحيين فى قلعة ريموند القريبة ، وقد أيقظتهم الجلبة يرددون « لقد جاءت تعزيزات إلى العدو » . ورد عليهم آخرون « ان صرخات الأثم ليست كأصوات الفرح » .

ومع بزوغ الفجر رفرفت أعلامنا فوق التل الجنوبى لأنطاكية . وفرح الأنطاكيون لمراى قواتنا على التل الذى يشرف على المدينة ، فاندفع بعضهم من الأبواب وقفز بعضهم من الأسوار . فجعل الرب الفوضى تدب بينهم حتى أن واحداً منهم لم يقف ويقاتل . وبعد شهور كثيرة من الحصار المضنى تكشف أمامنا هذا المشهد السعيد وهو مشهد لم يستطع فيه المدافعون عن أنطاكية من فترة أن يهربوا من المدينة ولا أن يتجنبوا الموت إذا ما تجرأوا على الفرار^(٣) .

ووقع لنا هناك حادث سعيد رائع ، عندما لقي بعض الأتراك - فى محاولتهم للهرب دون أن يراهم أحد من خلال الشقوق التى تتخلل التلال من الشمال - مجموعة من الصليبيين . واضطر الأتراك الذين حبطت أعمالهم إلى التقهقر فهمزوا خيولهم بسرعة كبيرة حتى أنهم سقطوا جميعاً من فوق الهضاب الصخرية . لقد كان سقوط الأتراك القاتل مشهداً سعدنا له حقاً ولكننا حزنا لضياح أكثر من ثلاثمائة حصان لاقت حتفها هناك ^(٤) .

ولن نعلق على كمية الغنائم ، ولكن يمكنكم أن تصدقوا أى شىء يمكن أن يتبادر إلى ذهنكم وتحسبوا أكثر منه . فلا يمكننا تقدير عدد القتلى من الأتراك والمسلمين ، ومن السادية أن نحكى القصة وطرق الموت المختلفة . وفى الوقت نفسه فإن المدافعين كانوا يراقبون من موقعهم فوق تل أوسط مقتل زملائهم . وتوقف المعركة ، وبالتالى فإنهم اختاروا أن يدافعوا عن قلعتهم . ولكن ياغى سيان ، أثناء هروبه من أحد الأبواب ، وقع فى يد الفلاحين الأرمن ، الذين قطعوا رأسه وقدموه لنا بعد ذلك هدية . وأعتقد أن ياغى سيان الذى قطع رؤوس الكثيرين من الأرمن ، قد قُدِّر له بإرادة الله التى لا توصف أن تقطع رأسه على أيدي فلاحيهـم .

وقد سقطت مدينة أنطاكية فى اليوم الثالث من يونيو ، ولكنها كانت هدفاً للهجوم منذ حوالى الثانى والعشرين من أكتوبر من العام السابق . وأحجمت قواتنا عن مهاجمة القلعة ، بينما راح رجالنا يفحصون الغنائم ويضعون سجلاً وأمعنوا فى نسيان الله ، مانح كل هذه النعم ، فأفرطوا فى الأكل بنهم شديد وبذخ ، واهتموا بالراقصات .

وبعد ذلك بثلاثة أيام ، أى فى اليوم الخامس من يونيو ذاته ، حاصر المسلمون الصليبيين . وهكذا فإن الصليبيين الذين كانوا قد حاصروا أنطاكية التركية برحمة من الرب ، وجدوا أنفسهم الآن وقد أحاط بهم الأتراك حسب مشيئته . وما زاد من خوفنا أن الحصن الأكبر ، الذى كان بكل المقاييس قلعة

حقيقية ، كان في حوزتهم . ولذلك ، فقد وحدنا الخوف وحاصرنا القلعة . ولكن كريبوغا ، سيد الأتراك ، بعد وصوله بوقت قصير ، واعتقادا منه أن المعركة ستكون خارج المدينة ، عسكر على بعد نحو ميلين من أنطاكية ، وتقدم في صفوف منتظمة نحو جسر المدينة ^(٥) . وفي اليوم الأول ، دعم رجالنا الدفاع عن قلعة الكونت ، خشية أن يستولى من هم في القلعة على أنطاكية لو خرج المسيحيون للقتال . ومن ناحية أخرى فقد شعروا أنهم ، إذا تخلوا عن قلعة الجسر ، فإن العدو سيستولى عليها ويسد طريق الخروج للقتال ، لأنه كان يسيطر على مخارج المدينة .

وكان روجر آوف بارنيفيل ، وهو فارس شهير ومحبوب ، يتابع تقهقر الأتراك في أحد الأيام ، عندما وقع في أيديهم وقطعوا رأسه ^(٦) . فاستولى الحزن آنئذ والخوف على رجالنا ، ودفع بالكثيرين منهم إلى اليأس من القتال ^(٧) . ثم نزلت نكستان بأعدائنا في المعارك التي جرت بعد ذلك ، ولكنهم في اليوم الثالث هاجموا القلعة بقوة حتى بدا أن قدرة الرب فقط هي التي كانت تحميها وتوقف الأعداء ، لأن الأتراك - ولسبب مجهول - أصيبوا بالفرع الشديد أثناء عبورهم الخندق المائي المحيط بالقلعة وهدمهم للسور ، فأسرعوا بالفرار . وبعد أن انسحبوا لمسافة قصيرة ، رأوا أنه ليس هناك سبب للهروب غير خوفهم ، ولذلك عاودوا الهجوم . وشددوا هجومهم بعنف كما لو كانوا يريدون أن يحوا تراجعهم المشين ، ولكن الرب بث الخوف في قلوبهم مرة أخرى ، وبالتالي عاد رجال كريبوغا إلى معسكرهم في اليوم نفسه .

ولقد أحرق الصليبيون القلعة ، وانسحبوا إلى داخل أنطاكية بعد أن عاد أعداؤهم في اليوم التالي ومعهم معدات ثقيلة . وزاد قلق الفرنجة بينما ارتفعت ثقة الأعداء في أنفسهم إلى عنان السماء ، لأنه لم يكن لدينا أمل خارج المدينة ، بينما كان أعداؤنا يحتفظون بالقلعة الرئيسية داخل أنطاكية . ودفعت هذه العوامل المشجعة الأتراك إلى التقدم نحونا عن طريق القلعة ، ولكن المسيحيين ثقة منهم في مواقعهم الاستراتيجية وأراضيهم المرتفعة زحفوا على الأعداء

وهزموهم فى أول هجوم^(٨) . لكنهم غفلوا عن هجوم مضاد وقع عليهم ،
وانشغلوا بغنائم المعركة ، فنزلت بهم هزيمة مشينة . وعند أحد مداخل أنطاكية ،
لقى أكثر من مائة من المسيحيين وعدد كبير من الخيول مصرعهم . ونتيجة
لذلك ، أصبح الأتراك يحلمون عند دخولهم الحصن بمهاجمة المدينة السفلى .

كان هناك واد صغير يتميز بسهل وعين ماء ، ويقع بين جبلنا وقلعتهم .
ولهذا بذل الأتراك كل جهودهم لاكتساحنا وطرودنا من طريقهم ، لأن النزول إلى
أنطاكية لم يكن ممكناً إلا عن طريق جبلنا . واستمر القتال عنيفاً شرساً من الصباح
حتى المساء بشكل لم يسمع عنه أحد من قبل . وفى غمار وابل السهام والصخور
التي انهمرت ، وقعقة السلاح التي لم تتوقف ، ومقتل أعداد كبيرة من
المحاربين ، غطت قواتنا فى نوم عميق ، وهذه بكل تأكيد تجربة رهبة غير عادية
بالنسبة لنا . وإذا أردت أن تعرف ، فقد انتهى القتال ليلاً^(٩) .

وعند صلاة الليل ، وهو وقت الثقة فى رحمة الرب ، فقد الكثيرون الأمل ،
وربطوا أنفسهم بحبال ودلوها من أعالي السور ، وفى المدينة نشر الجنود العائدون
من القتال ، إشاعة بأن قتلاً جماعياً للمدافعين كان ينتظرهم . وما زاد الرعب أنهم
لاذوا بالفرار هم أيضاً بالرغم من حث البعض للمترددين على الصمود . ومع
ذلك ، كما قلنا ، فإن رحمة الرب كانت حاضرة ، حتى والمسيحيون فى محنة
وبأس ، فكان عقاب الرب للداعرين من أبنائه مواساة لهم فى المصائب^(١٠) .

* * * * *

هوامش الفصل السادس

(١) من الواضح أن فيروز ، الخائن ، كان في خدمة ياغي سيان . ويطلق عليه بيروس Pirus وبيرهوس Pyrrhus وفيروس Firous كما أن له عدة أسماء أخرى . ويسميه ريمونداجيل « التركي » ويذكر مؤرخون آخرون أنه أرميني .

انظر : Runciman, op. cit., 1, p. 231, n. 3.

ويبدو أنه اهتلى بسوء الحظ في صفقة تجارية وزوجة غير مخلصة .

انظر : Hagenmeyer, Chr., 64.

- ترحى رواية ريمونداجيل أن فيروز قد اتفق على تسليم أنطاكية مع قادة الفرنج بصفة عامة . دون توضيح دور بوهيمند في استدراج فيروز ودون ذكر تفاصيل وتطور العلاقة بين بوهيمند وفيروز . وربما قصد ريمونداجيل أن يسجل الرواية بمثل هذا الإيجاز حتى يهتس بوهيمند حقه في توفير الفرصة لدخول الفرنج أنطاكية بسهولة . إلا أنه من الواضح أن المؤرخ - مثله في ذلك مثل بقية قادة الفرنج - لم يكن يعلم شيئاً عن العلاقة بين بوهيمند وفيروز . كما لم يعلم أحد غير بوهيمند بنوايا فيروز . فلم يخبر بوهيمند قادة الفرنج عن وسيلة لدخول أنطاكية إلا عشية الهجوم عليها (٢ يونيو ١٠٩٨ م) . ومن الطبيعي أن نأخذ برواية مؤلف الجستا الذي أبرز دور بوهيمند في هذا الخصوص .

انظر : Gesta Francorum, p. 44.

(الترجمة العربية) .

(٢) فولجير Fulger ويوديللوس Budellus فارسين مغمورين من مقاطعة شارتر .

(٣) يكشف وصف ريمونداجيل لسقوط أنطاكية عن حساسية معينة لأحوال الهجوم الصليبي على المدينة وورطة سكان أنطاكية . ويستخدم كلمات من المزامير ليضخم من طبيعة الحدث .

(٤) تكشف سعادة المؤرخ لمصرع الأتراك وحزنه على فقدان الجياد ، عن مشاعر الؤاسد الجديد ، الذي جُبل على كره الأتراك .

(٥) كيوغا هو أتابك الموصل ، وقد أخطأ حين هاجم الرها وهو في طريقه إلى أنطاكية وبذلك أعطى الفرنج الفرصة للاستيلاء على أنطاكية .

= - استغرق حصار كربوغا للرها الثلاثة أسابيع الأولى من شهر مايو ١٠٩٨ م /
جمادى الآخرة ٤٩١ هـ . وبدأ حصاره للصليبيين في ٥ يونيو / ٣ رجب من نفس
العام . وكان خطأ كربوغا دليلاً جديداً على أن ردود الفعل الإسلامية ضد الوجود
الصليبي في بلاد الشام لم تأت في الوقت المناسب . وللمزيد عن حصار كربوغا
لأنطاكية .

Fulcher of Chartres, p. 101.

انظر :

(الترجمة العربية) .

(٦) روجيسر أوف بارنفيل Roger of Barneville - sur - mer . يذكره مؤرخ الجستا في
حديثه عن حصار نيقية .

(٧) « الحزن والخوف » تعبيرات توجد بشكل متكرر في الزامير .

Psalms, 7 : 15; 12 : 2, 54 : 6.

انظر :

(٨) كان أحمد بن مروان يحتل القلعة ، وهو مقدم قوات كربوغا ويديل شمس الدولة ابن
ياغى سيان .

- فور سقوط أنطاكية في أيدي المسلمين بعث شمس الدولة بن ياغى سيان إلى كربوغا
يطلب مساعدته فأجبره كربوغا على تسليم القلعة إلى أحمد بن مروان وهو أحد أتباعه
المخلصين . وبقي الأخير يدافع عن القلعة حتى سلمها إلى بهيمند بعد هزيمة كربوغا
في ٢٨ يونيو ١٠٩٨ م / ٢٦ رجب ٤٩١ هـ ، ورحيله إلى الموصل . انظر :
ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ١٣٦ .
(الترجمة العربية) .

(٩) لا يعرف ريمونداجيل من تفاصيل هذا الضماد إلا القليل ، ونجده يلجأ إلى كناياته
المعتادة . وقد ترجمنا هذه الفقرة لنعني أن الصليبيين قد غلبهم النعاس . والنعاس غير
الطبيعي لم يكن أمراً غير عادي في العلوم الكنسية . وربما قدم ريمونداجيل ذلك
التعبير ليفسر لنا نوم الروح ، لأنه يستشهد بالرؤية التي لابد أن يرد أصحاب الخطايا
إلى طريق النضيلة . انظر :

Halldor Hermannson, The Problem of Wineland, Islandica, 25, 1936,

p. 40.

وعن « نوم الرب » " Sopor Domini " أنظر : Samuel. 26 : 12.

- يبدو أن الكتب الدينية كانت المجال الرئيسى لقراءات ريمونداجيل ، ومنها استمد صياغاته وعناصر رواياته . وفيما يخص النوم غير الطبيعى فهو صورة لنوم الروح أكثر منه بخدر الجسد أو استرخائه . وهذا النوم عرفه كثير من المقاتلين ، فالتعود على القصف المدفعى (حديثا) يسمح للرجال المتعبين بالنوم تحت النيران . وهذا التفصيل يدل على أن الناشران تتبعوا بجهد كبير طبيعة ثقافة ريمونداجيل ومعارفه الفكرية ومدى استفادته منها . انظر :

Jean Richard, Raymod d'Aguilers, pp. 208 - 209.

(الترجمة العربية) .

(١٠) يشير ريمونداجيل هنا إلى الراقصين على الجبال ، الذين تخلوا عن حصار أنطاكية . وانضموا إلى ستيفن كونت بلوا عند الإسكندرونة ثم اسرعوا بإخبار الامبراطور ألكسيس كومنين عن محنة الصليبيين .

- من المعروف أن كونت بلوا قد ترك حصار أنطاكية قبل سقوطها فى أيدي اللاتين بيوم واحد (٢ يونيو ١٠٩٨ م) وتوجه إلى طرسوس . وفى ليلة ١٠ يونيو ، أى فور قيام كريوغا بحاصرة الصليبيين داخل أنطاكية ، هرب عدد من الفرنج بقيادة وليم وأوبرى كونتى جرات مسينل ولامبرت كونت كليرمونت ، ووصلوا إلى ميناء السويدية حيث توجد بعض السفن الجنوبية والبولونية ، فبادرت السفن بالإقلاع حين أعلن الفارون عن محنة الفرنج فى أنطاكية . ورحلت السفن وبها الفارون إلى طرسوس حيث ستيفن ومنها توجه الجميع إلى أسكى شهر حيث قابلوا الإمبراطور البيزنطى ، وأخبروه بأن الأتراك قد قضوا على القوات الصليبية . وخاطبه كونت بلوا قائلا « فكر فى فخرائك ولجأة جيشك » واقتنع الامبراطور - الذى كان فى طريقه إلى أنطاكية لمساعدة الفرنج - كما ذكر المؤرخ اللاتينى أوردريك فيتاليس - بكلام ستيفن ورأى أن يراعى مصالح دولته دون المخاطرة بالتوغل فى بلاد الشام . وبذلك ضاعت آخر فرصة للفرنج لنيل مساعدة البيزنطيين ، كما ضاعت آخر فرصة لقيام التعاون بين الطرفين ، وربما ضاعت بذلك أيضا أهداف البابا أوربان الثانى فى توحيد الكنيستين الشرقية والغربية . ومن شهادة فيتاليس يتضح أن اتهام المؤرخين اللاتين أمثال مؤلف الجستا - تابع بوهيمند عدوهم

== ألكسيس الأول - وغيره من المؤرخين ، بالحجبانة أمرا فيه تمجن على الامبراطور . فالمؤرخ
فيتاليس لاتيني ونورماندى فى نفس الوقت وهو بذلك يؤيد كلام آن كومنين التى
التست العذر لوالدها فى عدم وصوله إلى أنطاكية ، وإن كان ذلك قد مهد الطريق أمام
هوهيمند ليتخلى عن الارتباط ببنود اتفاقية القسطنطينية مايو ١٠٩٧ م ، وينكر حق
بيزنطة فى أنطاكية ، ويستأثر بها لنفسه . انظر : حسين عطية : إمارة أنطاكية
الصليبية والمسلمون ، ص ١٢٠ - ١٢١ .
(الترجمة العربية) .

الفصل السابع

حصار كربوفا لأنطاكية والعثور على الحربة المقدسة

هنا يبدأ العثور على الحربة المقدسة :

فى أعقاب الإستيلاء على أنطاكية ، أظهر الرب قدرته وإحسانه ، بأن اختار فلاحاً بروفنسالياً يعزينا ويسلم الرسالة التالية لريموند وأدهيمار ^(١) :

« لقد أنذرنى أندرو ، مبعوث الرب وسيدنا يسوع المسيح ، منذ زمن فى أربع مناسبات وأمرنى أن أبلغكم ، وأعيد إليكم ، عند سقوط أنطاكية ، الحرية التى اخترقت جنب مخلصنا . بل إنتى اليوم عندما انطلقت مع بعض الآخرين للمقتال خارج أسوار المدينة ، وقعت فى يد اثنين من الفرسان ، وكدتُ أسحق فى أثناء انسحابى . فدُفعت مفتعاً فاتر الهمة على صخرة ، وعندئذ ظهر لى القديس أندرو ورفيق له ، وأنا مذنب تعس ما أزال أترنج من العذاب والمخاوف ، وحذرانى من مزيد من الهموم إذا لم أُسرع بتسليمكم الحرية . »

وعندما طلب الكونت والأسقف تفاصيل طبيعة المكتشفات وتعليمات القديس أندرو رد البروفنسالى قائلاً :

« أثناء الحصار الفرنجى لأنطاكية فى زمن الهزة الأرضية الأولى ، استبد بى الرعب ولم أعد أنطلق إلا بقولى « أنقذنى يارب » . كنت وحدى فى الفراش فى كوخى . دون أصدقاء يبتئون الطمأنينة فى قلبى . كان الظلام مخيماً ، وكما قلت ، فإن الصدمات استمرت لوقت طويل بما زاد من قلقى . وفى هذه اللحظة ظهر لى رجلان فى ملابس زاهية . كان لأكبرهما شعر أحمر يتخلله البياض ، ولحية كثة بيضاء عريضة ، وعينان سوداوان ، ومظهر لطيف ، وكان مترسطة القامة . وكان رفيقه أطول منه و « أجمل هيئة من أبناء البشر » . وسألنى الرجل الأكبر : « ماذا تفعل ؟ » ، كنت رحيماً ، وشعرت بالرعب . فقلت بصوت مرتعش :

« من أنت ؟ » . فقال : « قم ، لا تخف واستمع إلى . إننى أندرو الرسول . فدبر لقاءً مع أسقف لى بويه وكونت سان جيل وپطرس ريموند من هوت بول Hautpoul^(٢) . واسألهم . لماذا لا يعظ أدهيمار بالكلمة ، ويحث الناس وباركهم بالصليب الذى يحمله كل يوم ؟ إن هذا سيكون بركة كبيرة لهم بكل تأكيد » .

ثم أمرنى قائلاً : « إتبعنى وسأكشف لك عن مكان حرية أبينا التى يجب أن تعطىها للكونت لأن الرب قد جعلها له عند مولده » .

« فتركت فراشى وأنا فى رداء نومى فقط ، وتبعته إلى داخل أنطاكية حيث كنيسة الرسول بطرس المبارك عن طريق الباب الشمالى ، والذى كان المسلمون قد بنوا أمامه مسجداً . وكان هناك مصباحان فى الكنيسة يضيئان المدخل كما لو كنا فى منتصف النهار . ثم إن أندرو أمرنى قائلاً : « إبق هنا » ، ثم أمرنى بأن أقف بجوار العمود الذى كان قريباً من الدرجات الجنوبية المؤدية إلى الهيكل . بينما بقى رفيقه على مسافة من درجات الهيكل ، مد القديس أندرو يده تحت الأرض ، وسحب الحرية ووضعها بين يدي » .

« ثم وجه القديس أندرو حديثه إلى قائلاً : « انظر إلى الحرية التى اخترقت جنب المسيح ، والذى كان السبب فى خلاص العالم » .

« وبينما جرت دموع الفرح على وجنتى ، قبضت على الحرية وخاطبت القديس أندرو وأنا مجهش بالبكاء » إذا كنت تريد ذلك فإننى سأخذها من الكنيسة وأضعها بين يدي الكونت » .

« وأجاب القديس أندرو : « انتظر إلى ما بعد الاستيلاء على أنطاكية ، ثم عد ومعك اثنا عشر رجلاً ، وابحث عن الحرية فى نفس المكان الذى كشفت عنها فيه وسأخفيها الآن » . ودفنوها فى الموضع ذاته . وبعد هذه التجليات ، قادنى من فوق أسوار المدينة إلى كوخى ثم اختفى بعد ذلك » .

« وباختصار ، فإننى لما تأملت فى حالتى الرثة وعظمتك لم أجرؤ على

المجىء إليك . وبعد ذلك ، وبعد أن رحلت إلى قلعة قريبة من الرها بحثا عن الطعام ، وفى اليوم الأول من الصوم الكبير عند صباح الديكة ، أتانى القديس أندرو فى نفس الهيئة ومع رفيقه السابق ، وسألتى وقد غمر البيت نور عظيم : « هل أت نائم ؟ » (٣) .

وأيقظتنى كلماته فأجبت « لا ياسيدى ومولاى أنا مستيقظ » .

« وسألتنى « هل أبلغت رسالتى الأخيرة ؟ » فأجبت : « سيدى ، ألم أتوسل إليك أن ترسل شخصاً أكثر جدارة إليهم ، لأتنى خشيت من حالتى الرثة فلم أجرؤ على المشول بين أيديهم ؟ » .

فسألتنى مرة أخرى : « ألا تعرف السبب الذى من أجله قادك الرب إلى هذا المكان ، وحببه الكبير لك ، واهتمامه الخاص باختيارك ؟ لقد طلبك هنا لكى يبرز احتقاره واحتقار من يختارهم . إن حبه لك كبير جدا لدرجة أن القديسين يرقنون الآن فى سلام وهم مدركون لنعمة الرغبة الإلهية ، ويودون لو عادوا لحماً ودماً ، وقاتلوا إلى جانبك . لقد اختارك الرب من بين كل الناس كما تجمع حبوب القمح من بين الشوفان ، لأنك تقف فوق كل من جاءوا من قبل ، أو من سيأتون بعدك فى جدارتك وبركتك كما يفوق ثمن الذهب ثمن الفضة » .

« وبعد رحيلهم وقعت فريسة لمرض هدد بصرى حتى أننى بدأت أتخلص من مواردى المحدودة عندما استنتجت فجأة أن هذه الأمراض داهمتنى لعصيانى أوامر الرسول . وهكذا عادت الطمأنينة إلى فعدت إلى الحصار . وفكرت مرة أخرى فى حالتى الرثة فلم أقل شيئا لأننى خشيت إذا أنا أبلغتكم أن تصيحوا بأنى رجُل يتضور جوعاً جئتكم بهذه الحكاية من أجل الحصول على الطعام . وبعد فترة من الوقت كنت أستريح مع سيدى وليام بطرس فى خيمة فى ميناء سان سيمون عشية أحد السعف عندما تجلّى لى أندرو المبارك فى نفس هيئته السابقة ، ومع رفيقه السابق ، وقال لى : « لماذا لم تسلم رسالتى إلى ريموند وأدهيمار ؟ » (٤) .

فأجبت قائلاً : « يا سيدى ألم أتوسل إليك أن ترسل بديلاً أذكى منى ، يعاون به ، كما أنه يجب أن تعرف أن الاتراك يقتلون أى شخص يسلك الطريق إلى أنطاكية » .

« وهنا رد القديس أندرو : « لا تخف . فلن يؤذيك الأتراك ، ولكن أبلغ الكونت ألا يغطس فى نهر الأردن عند وصوله ، بل عليه أن يجذف عبر النهر أولاً فى قارب ، وعندما يصل إلى الجانب الآخر ، يرش على نفسه الماء وهو مرتد قميصاً وسراويل من الكتان . وبعد ذلك يحفظ ملابسه المجففة مع الحرية المقدسة » . ويمكن لسيدى وليام بطرس أن يشهد بصحة هذا الحديث رغم أنه لم ير القديس أندرو » ^(٥) .

« فاطمأنت وعدت إلى المحاصرين لأنطاكية ، ولكنى لم أستطع أن أجمعكم كما رغبت ، وهكذا ذهبت إلى ميناء المصبصة ، وهناك ، وبينما أنا انتظر وقد نفذ صبرى لأبحر طلباً للمؤمن من قبرص ، واجهنى القديس أندرو بتهديدات خطيرة إذا لم أعد إلى أنطاكية وأعيد عليك تعليماته ^(٦) . وعندئذ وأنا أفكر فى طريق السفر الذى سيستغرق ثلاثة أيام من المصبصة إلى معسكر الصليبيين ، بدأت أبكى بشكل هستيرى لأتنبأ أدركت أن ذلك كان مستحيلاً . وأخيراً وبناء على إلحاح سيدى وزملائى ، أبحرنا وجدفنا ليوم كامل والريح تساعدنا حتى غروب الشمس ، عندما هبت عاصفة فجأة وأعادتنا إلى المصبصة خلال ساعة أو ساعتين . وهكذا بعد أن حبل بيننا وبين المضى إلى قبرص ثلاث مرات ، عدنا إلى ميناء سان سيميون حيث مرضت مرضاً شديداً ، ولكن بعد الاستيلاء على أنطاكية أتيت إليكم وأنا الآن أقدم شهادتى لتقبلوها . » .

واعتبر الأسقف هذه القصة زائفة ، ولكن الكونت صدّقها فى الحال ، ووضع بطرس بارثولوميو فى حراسة قسيسه ريموند (المؤرخ) .

وفى الليلة التالية تجلّى سيدنا يسوع المسيح لكاهن بدعى ستيفن كان يبكى وهو ينتظر الموت له ولأصدقائه ^(٧) . فقد أصابه الرعب عندما أبلغه بعض

الهاريين من القتال عند القلعة بنزول الأتراك من الجبل وهروب الصليبيين
وانسحابهم بغير نظام . وقبل موته الذى قد دخل ستيفن - رغبة منه أن
يشهد الرب عليه - كنيسة مريم المباركة ، واعترف ونال الغفران لذنوبه ، وبدأ
يرتل الترانيم مع أصدقائه . وظل يصلى بالليل بينما نام الآخسرون ، وهو
يردد « ياسيدى ، من سيعيش فى بيتك ؟ من سيجد الراحة على جبلك
المقدس ؟ » (٨) .

فى هذه اللحظة ظهر رجل وسيم ليس كهيثة البشر ، وسأل ستيفن : « من
دخل أنطاكية ؟ » .

ورد ستيفن « المسيحيون » . فسأل الرجل : « بم يؤمن هؤلاء
المسيحيون ؟ » . وأجاب الكاهن : « إنهم يؤمنون بأن المسيح قد ولد من العذراء
مريم وتحمل الآلام على الصليب ، ومات ، ودفن ، ثم قام من القبر فى اليوم
الثالث ، وصعد إلى السماء . فسأل الرجل : « وإذا كانوا مسيحيين ، فلماذا
يخافون جموع الوثنيين ؟ » واستطرد قائلاً : « ألا تعرفنى ؟ » .

فأجاب الكاهن ستيفن : « أنا لا أعرف إلا أنك بالغ الجلالة » . وهنا طلب
منه الرجل « انتبه لى جيداً » .

« وعندما راقبه ستيفن عن كثب ، رأى شكل صليب يخطف الأبصار أكثر
من الشمس يظهر تدريجياً فوق رأسه . وهنا رد الكاهن على الرجل الذى كان
يسأله : « سيدى ، إننا نسمى الصور التى تشبهك فى مظهرها صور يسوع
المسيح » (٩) .

وواصل السيد حديثه قائلاً : « لقد نطقت بالصواب لأننى يسوع المسيح .
أليس مكتوباً أننى السيد القوى القادر فى المعارك ؟ هل لى أن أسأل من هو
قائدك ؟ » .

ورد ستيفن قائلاً : « سيدى .. ليس لدينا قائد واحد ، ولكننا نشق فى
أدهيمار أكثر من الآخرين » .

فأمرنى المسيح : « أبلغ الأسقف أن هؤلاء الناس بأعمالهم الشريرة قد أبعادوني عنهم ، ولهذا فإنه ينبغي أن يقودهم ، « ابتعدوا عن الخطيئة وساعدوا إليكم » (١٠) . وفيما بعد عندما يذهبون للقتال سيقولون « لقد تجمع أعداؤنا وتباهوا بقوتهم ، فحطم قوتهم يارب واهزمهم حتى يعرفونك يا إلهنا . حارب معنا وحدنا » (١١) وزد هذه التعليمات « ستكون رحمتي معكم لو اتبعتم أوامري الخمسة أيام » .

وبينما هو يتكلم اقتربت امرأة ، هى مريم أم يسوع المسيح ، وقد أحاطت بوجهها حالة باهرة ، ونظرت نحو السيد وسألت : « ماذا تقول لهذا الرجل ؟ » .
ورد المسيح على مريم : « لقد سألت عن الناس الذين هم فى أنطاكية » .
فأعلنت السيدة : « آه : ياسيدى ! انهم مسيحيون يكونون دائماً فى صلواتى لك » .

وعندما أيقظ الكاهن رفيقه النائم على مقربة لبشهاد الرؤيا ، اختفى المسيح ومريم من أمامه . وفى الصباح التالى صعد ستيفن التل فى مواجهة البرج التركى حيث كان أمراؤنا ينتظرون ، باستثناء جودفرى الذى كان يحرس حصن الجبل الشمالى . وأبلغهم ستيفن فى اجتماع عقوده برؤياه المذكورة . وأقسم بالصليب على صحتها وأعرب أخيراً عن استعداده لاختراق النار أو إلقاء نفسه من أعلى برج إذا لزم الأمر لإقناع من لا يصدقونه .

وإزاء هذه الوقائع اعتقدت الجموع أن الأمراء كانوا يرغبون الآن فى الهروب إلى الميناء ، وأن قلة منهم فقط من راسخى الإيمان ، لم تكن تفكر فى الهرب أثناء الليلة السابقة ، فأقسم الأمراء أنهم لن يهربوا ولن يتخلوا عن أنطاكية إلا بناء على قرار مشترك ، وهكذا اطمأن الكثيرون وحتى ذلك الوقت فإن اغلاق أبواب أنطاكية بناء على أوامر بوهيمند وأدهيمار، منع الجلاء الكامل عن المدينة ، ورغم كل الاحتياطات فقد هرب وليام أوف جراند مسنيل مع أخيه وعدد كبير من رجال

الدين والعوام . إلا أن الكثيرين ممن هربوا من المدينة معرضين أنفسهم لأخطار شديدة ، واجهوا خطراً أكبر هددهم بالموت من رجال كربوغا .

وانتشرت قصص التجليات التي تظهر لزملائنا ، ورأينا نحن أيضاً إحدى العجائب فى السماء ، فقد رأينا نجماً كبيراً معلقاً فوق أنطاكية لوقت قصير ، ثم يتفتت إلى ثلاثة أجزاء ويسقط داخل المعسكر التركى . وتشجع الصليبيون إلى حد ما وترقبوا بلهفة اليوم الخامس الذى أعلن عنه الكاهن ، وفى ذلك اليوم ، حمل إثنى عشر رجلاً ومعهم بطرس باثولوميو الأدوات اللازمة ، وبدأوا يحفرون فى كنيسة بطرس المبارك ، بعد أن أبعدوا بكل المسيحيين الآخرين . وكان من بين الاثنى عشر أسقف أورانج وريمونداجيل ، كاتب هذه السطور ، وريموند سان جيل ، ويوتز أوف بالازون وقارالد أوف ثوارز (١٢) .

وظللنا نحفر حتى المساء ، ورش البعض من إخراج الحرية من تحت الأرض . وفى هذه الأثناء ، وبعد أن ذهب الكونت لحراسة القلعة ، أقنعنا عمالاً جدداً بأن يحلوا محل الحفارين الذين تعبوا ، وحفروا بجهد شديد ، ولكن بطرس بارثولوميو المتلىء شاباً عندما رأى الارهاق قد أخذ من رجالنا كل مأخذ ، تجرد من ملابسه الخارجية ، ونزل فى الحفرة حافى القدمين وليس عليه إلا قميص ، ثم توسل إلينا أن نصلى لله ليعيد حريته إلى الصليبيين ، لي جلب لشعبه القوة والنصر . وأخيراً أظهر لنا الله برحمته المباركة ، حريته وقبلت ، أنا ريموند مؤلف هذا الكتاب ، سن الحرية عندما برزت من الأرض ، ولا أستطيع أن أصف السعادة والابتهاج اللذين غمرا أنطاكية ، ولكن يمكننى أن أذكر أن الحرية قد أكتُشفت فى اليوم الثامن عشر قبل اليوم الأول من يوليو (١٤ يونيو) .

وفى الليلة التالية وقف أندرو المبارك أمام الشاب الذى كشف عن الحرية وقال له : « أنظر ، إن الله قد أعطى الحرية للكونت ، وفى الحقيقة ، أنه قد حفظها له وحده عبر العصور ، كما جعله قائداً للصليبيين ، على شرط أن يكرس نفسه لله » .

وعندما طلب بطرس بارثولميو الرحمة للمسيحيين ، أجاب أندرو المبارك :
« حقا أن الرب سيكون رحيما بشعبه » .

ومرة أخرى سأل بطرس زائره الليلي عن اسم رفيقه : « من كان الشخص الذي رأيتته يصاحبك بكشل متكرر ؟ » . وقال أندرو المبارك : « اقترب وقبل قدمه » . فإقترب البروفنسالى ورأى مابدا أنه جرح حديث ودام فى قدمه ، وعندما تراجع بسبب ذلك المنظر الدموى ، أمره أندرو المبارك : « أنظر إلى الأب الذى سُمّر على الصليب من أجلنا ، وتحمل منذ ذلك الوقت هذا الجرح . فضلا عن ذلك فإن الرب يأمرك بالاحتفال بتاريخ اكتشاف حريته ، فى ثامن أيام العيد من الأسبوع القادم ، لأن استخراج الحرية وقت صلاة المساء يمنع الاحتفال فى ذلك اليوم ، وبعد ذلك فإنك ستحتفل كل عام بيوم اكتشاف الحرية » . ثم أبلغ المسيحيين بأن يكبحوا جماح أنفسهم كما تعلمهم قراءة رسالة أخى بطرس (كانت هذه الرسالة تعلم : « تواضعوا تحت يد الرب القوية ») ^(١٤) . كما أن الكهنة سيترون كل يوم بالترنيمة التالية . "Lustra sex qui jam peracta tempus implens corporis".
وعندما يصلون إلى قولهم " Agnus in cruce levatus immolandus stipite " فإنهم يجثون على ركبتيهم وينحنون مختتمين الترنيمة ^(١٥) .

وفيما بعد ، عندما استفسرنا أسقف أورانج وأنا ، من بارثولوميو ، عما إذا كان يعرف خدمة القداس الكنائسى ، فإنه ، إحساساً منه بأن الاجابة بالإثبات لن تُقابل بالتصديق أجاب « أنا لا أعرف » . ورغم أنه كان يعرف بعض الطقوس فإنه كان مرتبكاً جداً حينئذ ، لدرجة أنه لم يتذكر القداس الكنائسى ، أو يذكر بالمرّة ماتعلّمه منها باستثناء Pater Noster, Credo in Deum, Magnificat, Gloria in excelsis Deo, Benedictus Dominus Deus Israel ونسى كل ما عدا ذلك تماما ، ولم يتذكر إلا فيما بعد عدة كلمات وبصعوبة ^(١٦) .

هوامش الفصل السابع

(١) الفلاح الفرنسالى هو بطرس بارثلميو Peter Bartholomew . ويعبر ريمونداجيل قصة الحرية المقدسة إهتماماً أكثر مما أعارها المؤرخون الآخرون . وقد أشرنا فى كتابنا Raymond IV, Count of Toulouse, p. 109, n. 3 أن المؤلف يتوسع فى رواية موجزة ويضيف إليها التفاصيل اللازمة لرواية صحيحة عن مثل هذه المعجزة . ويحبك الأحداث مع المعجزات ليلبس روايته ثوب الحقيقة . ونعتقد أنه اختلق معظم الرواية وليس الراوى الساذج نفسه (بارثلميو) . وقد ألقى المؤلف برذاذ من الكلمات التى وردت فى الزامير مثل انتظر Expecte وانظر ecce وكن متنبها Vigilasne على القصة كلها . ولا يتردد المؤرخ فى أن ينقل عبارات كاملة ليحرك روايته . وعلى سبيل المثال : « وأجمل شكلاً من أبناء البشر » فهذه العبارة مأخوذة من : 3 : 44 : Psalm . وعبارة « لا تخف » مأخوذة ومأخوذة من سفر الخروج .

انظر : Exodus, 20 - 20.

راجع أيضا : Steven Runciman, The Holy Lance Found at Antioch, in AB, 68, 1950.

ومن المفترض أن يكون بطرس بارثلميو قد روى قصته فى ١٠ يونية ١٠٩٨ م .
انظر : Hagenmeyerm Chr., 277.

وقد وقعت الهزة الأرضية فى الفترة ما بين ٣٠ ديسمبر ١٠٩٧ م وأول يناير ١٠٩٨ م .
- من هنا وحتى نهاية كتاب ريمونداجيل ، نلمس حرص المؤرخ على سرد كل الرؤى التى يروىها له - أو لغيره - أشخاص عديدون . وفى الحقيقة لم نجد أية قيمة تاريخية لهذه الرؤى ، بل إنها تضطر القارئ إلى أن يسترجع الأحداث التاريخية السابقة عليها إذا ما فاجأه المؤرخ بتوقف حدث الرؤيا واستثناؤه للحدث التاريخي الأصلي . وهذا يؤدى إلى الاضطراب فى سياق الأحداث .

وفى نفس الوقت ، فإن التشكك فى صحة هذه الرؤى ، الذى أبداه من استمعوا إلى أصحابها من المعاصرين ، قد تحول إلى عدم الأخذ بصحتها بالمرّة من قِبَل المؤرخين الحديثين . وهذا أمر طبعى وقد رفض الأخذ برؤى بطرس بارثلميو كل من المندوب البابوى أدهيسار الذى من المفروض أنه يمثل الجانب الروحى فى الجملة الصليبية ، وأن مثل هذه الرؤى ، خاصة إذا ما تمثل فيها المسيح عليه السلام وبعض حواريه لراوينا ،

تقوى جانب الكنيسة ومركز أدهيمار نفسه . كما رفض الأخذ بها كل من تنكريد وكثيرين من قادة الحملة ، وحتى ريموند كونت تولوز الذى خصّه بارثلميو بجزء من رؤياه . هذا بالرغم من محاولة بارثلميو - أو المؤرخ نفسه - إخافة كل من يتشكك فى صدق رواياته بمقابته لأدهيمار ، فى رؤى أخرى ، يجعله يتلظى نار الجحيم لتشككه فيه .

وإذا كانت حجتنا فيما يخص أية قضية تاريخية نتناولها بالتحليل والدراسة ، هي النصوص التاريخية - المعاصرة بالدرجة الأولى - فإن ما يهمنا فى هذا المقام هو عرض آراء مؤرخى الحملة الصليبية الأولى بشأن هذه الرؤى ، وبشأن صاحبها أيضا . فبينما يؤكد ريمونداجيل ثقته فى صحة هذه الرؤى خاصة رؤى مواطنه البروفنسالى بارثلميو ، نجد مؤلف الجستا يورد رواية الحرية فى ثلاثة أسطر دون ذكر لأى أسماء أوردتها ريمونداجيل ، دون أن يدلى فيها برأى . بينما تشكك فولشر أوف شارتر فى حقيقة الحرية ويعتقد أن بطرس بارثلميو كان كاذبا ودليله على ذلك أن بطرس احترق أثناء اختبار النار الذى مر به وعرف الناس « أنه كان مذنباً ، لأنه جلده احترق ، وعرفوا أنه أصيب بأذى مميت ، وقد اتضح هذا بعد ذلك ، فقد توفى فى اليوم الثانى عشر ، وأودى بالذنب الذى ارتكبه » . انظر : Fulcher of Chartres, op. Cit., p. 101 .
كما يعتقد فولشر أيضا أن بطرس دفن الحرية بنفسه ولم يعثر عليها « وجد حربه ربما أخفيت تحت الأرض سرا » " invenit lanceam fallaciter occultatam forsitan " . انظر : MPL, Vol. CLV, 843

أما رادولف أوف كان ، فلم يخف تشككه فى بطرس وفى رؤياه نفسها . وكان بطرس بارثلميو هو المتنفث الوحيد لرادولف كى يظهر كرهه للبروفنساليين بصفة عامة . وحين عاد بطرس يروى رؤيا أخرى أثناء حصار عرقة فقد ارتاب فولشر والهرت، دكس فى أمر الحرية المقدسة ، كما أكد رادولف تشككه فيها وعداءه لبارثلميو .

أما عن قادة الحملة ، فقد أظهر كونت تولوز إعتقاده فى حقيقتها ، ثم ما لبث أن أبدى ارتياحه فيما إذا كانت رؤى بطرس لازالت حقيقية . أما بوهيمند ، فبالرغم من أن بطرس بارثلميو قد قرر أنه لابد من السماح لبوهيمند بامتلاك أنطاكية ، وذلك بعد وفاة أدهيمار ببومين ، فإن بوهيمند أعلن إندهاشه وتشككه فى أن يظهر المسيح أو القديسين لرجل فاسق مثل بارثلميو ، أعناد « إرتيساد الحانات والتكع فى الطرقات ... » كما يتسائل بوهيمند أمام جموع الفرنج عن أى من المؤرخين قد كتب أن =

= الحرية التي طعن بها المسيح قد وصلت إلى كنيسة بطرس في أنطاكية . إلى جانب الكثير من الحجج التي قدمها بوهيمند دليلاً على تلفيق بطرس بارتلميو والتي أوردتها بالتفصيل رادولف أوف كان .

أنظر : Radulf of Caen, p. 678.

أما عن جموع الجيش الصليبي ورجال الدين فيه فكان من الطبيعي أن يؤيد البروفنساليون منهم رؤيات بطرس بينما أبدى فرنسيو الشمال وبقية الجيش تبرؤهم من بطرس ورؤاه .

ومهما يكن من أمر فإن روايات بطرس بارتلميو ورؤاه لم تكن إلا وسيلة لريونداجيل لإبراز الدور البروفنسالي في الحملة الصليبية ، وهو كرجل دين ، فقد عمل جاهداً على إثبات أن المشروع الصليبي كان من عمل الرب وإرادته Deus Volt دون أن يدري أن التمعن في الأحداث التي شملها كتابه - قبل كتب غيره من مؤرخي الحملة الأولى - والعلاقات التي سادت بين قادة الحملة وتضمنتها صفحات كتابه ، وأن سلوك الفرنج ، وعلاقاتهم ببعضهم البعض على مدار المائة وأربعة وتسعين عاماً التي عاشوها في بلاد الشام ، إنما تثبت أن هذا المشروع الصليبي لم يكن من عمل الرب ولا هي إرادته Deus Non Volt . أنظر :

Gesta Francorum, p. 57 - 60; Fulcher of Chartres, pp. 99 - 100. C.F. also, Runciman, The Holy Lance Found at Antioche, in AB, Vol. 68., 1950.

(الترجمة العربية) .

(٢) كان بطرس ريموند أوف هوتبول (Alto - Pullo) Peter Raymond of Hautpoul تابعاً لكونت تولوز وتقع القلعة التي تحمل اسمه في دوقية لافور Lavaur بالقرب من حدود ناربون Narbonne وكاركاسون Carcassonne . وكان لبطرس ريموند دوراً بارزاً في حصار أنطاكية ، ومات في نفس الفترة التي مات فيها أدهمار تقريباً . ومن المفروض أنه تم دفن بطرس أمام بوابة كنيسة القديس بطرس في أنطاكية . انظر :

HGL, 3 : p 517, 5 : p. 692; Tudebode, Historia, RHC - H, Occ., 3, p. 33.

(٣) الرها إحدى المعاقل الأرمينية ، وكانت في أيدي هولاك ، شقيق جودفري .

(٤) وليم بطرس William Peter عرفه انسيبان كأحد الحجاج الصليبيين .

(٥) يقرر المؤرخ في وقت لاحق أنه لم يفهم لماذا أبلغ بطرس بارثلميو هذه التعليقات لكونت تولوز . وربما أضاف المؤرخ هذه المعلومة لجعل قصته تبدو أقرب إلى الحقيقة ، انظر : Ezechiel, 44 : 17 - 19 . وربما أوحى هذه الأسطر بطبيعة ملابس ريموند عند نهر الأردن .

(٦) كانت قبرص بمثابة نقطة إمداد للصليبيين ، وكانت معروفة لهم جيدا .
- وعن دور قبرص في الحروب الصليبية انظر : سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، القاهرة ، ١٩٥٧ م .
(الترجمة العربية) .

(٧) في بعض الأحيان يدعى ستيفن باسم ستيفن فالنتين Stephen Valentine ومن المحتمل أنه قسيس من فالنس Valence وكان يظهر في رؤى عديدة .

(٨) يكرر المؤرخ على لسان ستيفن « من سيعيش في بيتك ؟ من سيجد الراحة على جبهك المقدس ؟ » . وهذا مأخوذ كلمة بكلمة من العهد القديم . انظر : Psalm, 14 : 1 .
وتعتبر رؤية ستيفن ممارسة ملحوظة في إحياء الأسفار . والمؤرخ حاذق في هذه الرواية .

(٩) يقدم لنا المؤرخ في هذا الموضع أوصافا لزواره السامريين ، تلك الأوصاف التي لا بد وأنه قام باقتباسها من الفن الدارج في هذه الأيام . وعندما يكتب وقد ظهر « رجل ، وسيم لبس كهنة البشر » . نعرف أنه يشير إلى المسيح ، وأنه حتى أشد الرجال جهلا يعرفون ذلك . انظر :

Saint Augustine, De Civitate Dei, MPL, 41, Col. 548 - 550. CF. also, Louis Réau, Iconographie de l'art Chrétien, Paris, 1955.

(١٠) التعليقات التي تقول « اهتمدوا عن الخطيئة وسأعود إليكم » مأخوذة من العهد القديم انظر :
Prophetia Zachariae, 1 : 3.

(١١) والتعليقات التي صدرت إلى الصليبيين ليقلوا « لقد تجمع أعداؤنا وتباهوا بقوتهم » وهذا رد يثلى في الصلوات . انظر :

Breviarium Autumnalis, October.

(١٢) كان وليم جراندمنسل William of Grand-Mesnil زوجا لشقيقة بوهيمند . وهو من مدينة جراندمنسل التي تقع جنوبي لياج Liege . وقد هرب وليم في مساء يوم ١٠ أو ١١ يونيو ١٠٩٨ م . انظر : Hagenmeyer, Chr., 278.

(١٣) جاء فارالد ثوارز Farald of Thouars من مدينة ثوارز التي تقع إلى الشمال الغربي من بواتيه Poitiers . وقد ذكر مؤلف الجستا أن ثلاثة عشر رجلاً قاموا بالحفر للعشور على الحرية المقدسة . ولم يحص ريمونداجيل بطرس بارثلميو وفضل استخدام الرقم ١٢ ، ربما نسبة إلى الإثنى عشر هواري . وقد تم العشور على الحرية في يوم ١٤ يونية ٩٨٠ م . انظر : Hagenmeyer, op. cit., 284.

(١٤) يبين المؤرخ هنا إعتياده على رسالة بطرس « تواضعوا تحت يد الرب القوية » انظر : I Peter, 5 : 6.

(١٥) لم نشأ ترجمة البيت الشعسرى Lustra Sex . وهذا البيت من شعر فينانتبوس فورتبونانوس . ولم يستخدم ريمونداجيل من هذا النشيد سوى أجزاء فقط . ونعتقد أن النص اللاتيني ، كما هو ، أصح من أي ترجمة .
- ولد فينانتبوس هنوريوس كليمنتيانوس فورتبونانوس

Venantius Honorius Clementianus Fortunatus

(٥٤٠ - ٦٠٠ م) بالقرب من مدينة Treviso بشمال إيطاليا . وتلقى تعليمه في مدينة رافنا . وفي عام ٥٦٥ م رحل إلى فرنسا وعاش في مدينة بواتيه Poitiers حيث أصبح أسقفاً . وكشاعر يكتب في مختلف الموضوعات ، كتب فينانتبوس قصائد عديدة في المسائل الدينية والدنيوية . كما صاغ بعض أعماله نثراً . ويعتبر فينانتبوس آخر الشعراء الرومان وأول شعراء العصور الوسطى . انظر :

Alun Hudson - Williams, Venantius fortunatus, in Oxford Classical Dictionary, p. 1112.

وفي الحقيقة ، فإنه من الصعب الحصول على معنى مستقيم للنقرات التي وردت هنا باللاتينية إذا ما ترجمت إلى لغة أخرى . ويرجع ذلك إلى أن ريمونداجيل اقتبس فقرات غير كاملة من نشيد فينانتبوس الأمر الذي يجعل المعنى مضطرباً إذا ما تمت ترجمتها . وعلى أية حال ، فإن الفقرات المذكورة تدعو إلى تحمل الصعاب والآلام في سبيل الرب ، وإلى البعد عن النزوات الحسية التي تشغل الجسد ، وإلى تمجيد الرب والايان به وتجييله .
(الترجمة العربية) .

(١٦) كان بطرس بارثلميو جاهلاً ، لأنه لم يتذكر إلا جزءاً من الصلاة . والمجد في الأعلى Gloria in excelsis كجزء من القداس . وهذا تفسير لفلسفة الجهل .

الفصل الثامن

هزيمة كربوغسا

فى تلك الأثناء ، أصبح الطعام نادراً جداً ، حتى أن رأس الحصان بدون لسان ، كانت تباع باثنين أو ثلاثة صولدى ، وأمعاء الماعز بخمسة صولدى ، والدجاجة بشمانية أو بتسع صولدى . وماذا يمكن أن أقول عن أسعار الخبز عندما يستمر الجوع بعد أكل ما قيمته خمسة صولدى ؟ . أما الأغنياء الذين يملكون الذهب والفضة والملابس ، فلم يكن غريباً عليهم ، أو مرهقاً لهم ، أن يدفعوا التكاليف الباهظة . هكذا فقد ارتفعت الأسعار لأن ضمائر الفرسان الشريرة كانت تفتقر إلى الشجاعة المسيحية . فكانوا يجمعون التين الفج ويطهونه وبييعونه ، ويسلقون جلود الماشية ، والخيول ، والنقايات الصالحة للأكل ، وبييعونها بأسعار مرتفعة جداً ، حتى أن أى إنسان كان يمكنه أن يأكل كمية تكلفه صولدين . ولكن أغلب الفرسان ، الذين كانوا يتوقعون رحمة الرب ، رفضوا أن يذبحوا خيولهم ، وتحملوا بدمائهم .

وبينما كانت هذه المصائب وغيرها مما لا تستطيع ذكره لما فيه من يؤس ، تقصّ مضجع المسيحيين ، فإن رجالنا لجأوا إلى الخيانة ، وأبلغوا الأتراك بحالة اليأس التى تعيش فيها أنطاكية ، فأرادوا بذلك من همومنا . وحفزت هذه الأنباء الأتراك إلى القيام بأعمال جريئة جعلتنا عرضة لتهديداتهم . ووقع أحدها فى ظهر أحد الأيام . فقد اعتلى نحو ثلاثين منهم أحد أبراجنا ، وخلقوا لفترة من الوقت ، حالة من الذعر ، ولكن قواتنا التى تعرضت للخطر ، قاتلت بتأييد من الرب ، فقتل رجالنا بعض الأعداء ، وأبعدوا الآخرين عن الشرفات . فى ذلك الوقت وعد كل الصليبيين باتباع أوامر بوهيمند لمدة خمسة عشر يوماً بعد القتال ، بحيث يمكنه أن يدبر أمر حماية أنطاكية ، ويضع خطط القتال . وكان سبب هذا القرار هو التهديد التركى ومرض الكونت ريموند وأدهيمار ، وهروب ستيفن أوف بلوا^(١) . وأذكركم بأن ستيفن ، رغم اختياره قائداً صليبياً قبل سقوط أنطاكية ، قد فر

هارباً نتيجة الشائعات بقرب وقوع المعركة . وكما ذكرنا فقد جاءتنا معونة السماء لمسيحيينا المهزومين المثقلين بالهموم والأحزان ، عن طريق بطرس بارثولوميو ، مكتشف الحرية ، الذى كان يسدينا النصح فيما نفعل قبل المعركة وأثناءها . فأخبرنا أن أندرو المبارك قد أمرنا :

« أن الجميع قد أغضبوا الرب إلى حد بعيد ، فوقع عليهم العذاب ، وأنت قد صليت للرب واستمع إليك الرب ، فليهجر كل منهم الآثام ويتجه إلى الرب ، ويقدم خمس صدقات ، بسبب جروح الرب الخمسة ، وإذا عجز عن ذلك فليردد « أبانا » خمس مرات Pater Noster . وبعد اكتمال تنفيذ هذه الأوامر ، إبدأوا المعركة باسم الرب ، ولتبدأ نهاراً أو ليلاً ، وفقاً لخطط المعركة التى وضعها الأمراء ، لأن يد الرب ستكون معكم . ومع ذلك فإذا ارتاب أحد فى نتيجة المعركة ، فلتفتحوا الأبواب ، وتدعوه بجرى إلى الأتراك حيث سيشهد كيف يحميه الله Allah . وأكثر من ذلك ، فليكن أى متخاذل لا يقدم على القتال ، مع يهوذا ، خائن يسوع المسيح ، الذى تخلى عن الرسل وباع المسيح لليهود .

« وبالصدق ، إجعلهم يتقدمون إلى المعركة . بإيمان بطرس المبارك ، متمسكين بوعد المسيح له عند قيامه وظهوره فى اليوم الثالث ، ودعهم يتقدمون إلى المعركة ، لأن هذه الأرض ليست وثنية ، بل تدخل فى اختصاص القديس بطرس . ولتكن صيحة التجمع بينكم « ساعدنا أيها الرب » ، وسوف يساعدكم الرب فعلاً . وسيقاتل معكم كل رفاق رحلتكم الذين ماتوا بقوة الرب ، وتحت قيادته ضد تسعة أعشار الأعداء ، بينما تقاتلون أنتم العشر الباقى . أسرعوا إلى المعركة حتى لا يقود الرب عدداً مساوياً من الأتراك ضدكم ، ويحاصر أنطاكية حتى يأكل بعضكم البعض . ولكن كونوا مطمئنين إلى أن الأيام التى تنبأ بها المسيح لمريم ولرسله قد جاءت ، الأيام التى سيطيح فيها بمملكة الوثنيين ، ويسحقها تحت قدمه ، ويرفع فيها الإمارة المسيحية . ولكن لا تتحولوا إلى خيام الأعداء طلباً للذهب والفضة . »

ثم تجلت يد القدرة الإلهية ، والذي أمرنا بالأوامر المذكورة أعلن لنا عن طريق القديس أندرو ، ما شجع كل القلوب بالآمال والإيمان ، حتى أن كل مسيحي شعر أنه قد أحرز نصراً . فعادت إليهم حماستهم للقتال عندما راحوا يشجعون بعضهم البعض . وأصبحت الجموع ، التي كان الخوف والفقر قد أصابها بالشلل منذ عدة أيام فقط ، تسأل عن السبب في تأخير المعركة وتنهر الأمراء . وبالتالي ، حدّد الزعماء تاريخ المعركة . ثم أرسلوا بطرس الناسك إلى كربوغا ، أتابك الموصل ، ومعه أوامر بأن يتخلّى عن حصار أنطاكية ، لأنها كانت تدخل في نطاق اختصاص القديس بطرس والمسيحيين . إلا أن كربوغا المتغطرس ، أجاب بأنه سواء كان على حق أو خطأ ، فإنه يرغب في أن يصبح سيداً على المدينة وعلى الفرنجة ، وجعل بطرس الناسك يركع أمامه رغماً عنه ^(٢) .

في ذلك الوقت ، ثارت مسألة اختيار بعض القوات لحراسة أنطاكية من الهجمات التي تتم من القلعة ، بينما تخرج قوات أخرى إلى ميدان القتال . وهكذا ، أقاموا سوراً حجرياً وتحصينات فوق تل يواجه العدو ، وحصّنها بالصخور ، وجعلوا عليها حامية بها ريموند كونت تولوز ، الذي كان مصاباً بمرض خطير ، ومعه مائتان من الرجال . وأتى اليوم المحدّد للمعركة ، وتناول الجميع العشاء الرباني ، في ذلك الصباح ، وخضعوا لإرادة الرب ، وحتى للموت إذا شاء ذلك ، ولشرف الكنيسة الرومانية وجنس الفرنجة .

وقام تنظيم القتال على أساس وجود طابورين مزدوجين من البروفنساليين من قوات ريموند وأدهيمار ، مع مشاة في المقدمة ، يهاجمون أو يتوقفون طبقاً لأوامر قادتهم ، ثم يتبعهم الفرسان كحرس مؤخرة . وسارت قوات بوهيمند بنفس النظام القتالي ، وكذا قوات تانكرد وكونت نورماندى ، والفرنجة ، والدوق والبرجنديين . وانطلق المنادون في أنطاكية بحثون كل رجل على القتال مع قائده . وكان نظام الزحف كما يلي : هيو العظيم ، وكونت الفلاتندر وكونت نورماندى أولاً ، ثم الدوق والأسقف ، وأخيراً بوهيمند ^(٣) . وبهذه الطريقة وقفوا في صفوفهم الفعلية تحت المدينة وأمام باب الجسر .

آه ! كم هى مباركة تلك الأمة التى يكون سيدها هو الرب ، والشعب الذى اختاره ليرثه !! وكم تغير مظهر هذا الجيش ، من حالة الكسل والتراخى ، إلى النشاط والحركة ^(٤) . فقبل أيام قليلة ، كان القادة والنبلاء يسرون فى شوارع أنطاكية يسألون الرب العون ، وكان العامة يسرون فى المدينة حفاة ، وهم يصرخون ويضربون صدورهم ، وبلغ من بؤس حال المسيحيين أن الأب وابنه ، والأخ وأخاه ، لم يكونوا يتبادلون التحية ولا النظرات ، وهم يمرون فى الشوارع ، ومع التغير المفاجئ فى الروح ، صار المرء يرى المسيحيين يخرجون كجياد نشطة ، ويقعقعون بأسلحتهم ، ويلوحون برماحهم ، ويحتفلون فى صخب بالسلوك والكلام . ولكن لماذا تؤخر هذه القصة ؟ إن الرغبة فى القتال كانت الآن أمراً مفروغاً منه ، وخطط القادة كانت تنفذ .

فى الوقت نفسه وبينما كان كريوغا يلعب الشطرنج فى خيمته ، فقد تواتر إليه أن الفرنجة كانوا خارجين للقتال . فاضطربت نفسه لهذا التحرك المفاجئ ، واستدعى ميردالين Mirdalin وهو لاجئ تركى من أنطاكية وتبيل شجاع معروف وسأله : « ماذا يجرى ؟ » ^(٥) ألم تخبرنى بأن المسيحيين الأقل عددا منا لن يقاتلوا أبداً لأن عدد الفرنجة كان صغيراً ؟ .

ورد ميردالين على هذا السؤال قائلاً : « لا ياسيدى إنى لم أبلغك بشيء من هذا القبيل ، ولكن اتبعنى فسوف أراقبهم وأنصح لك إذا كان يمكنك التغلب عليهم بسهولة » .

وعندما تقدم الصف الثالث من صليبينا ، استطلع ميردالين صفوفنا وأبلغ كريوغا : « أن المسيحيين سيموتون قبل أن يهربوا » .

وسأل كريوغا بدوره : « الا يمكن دفع بعض المسيحيين إلى الخلف قليلاً ؟ » .

ورد ميردالين : « لو اندفع العالم كله ضدهم ، ما تحركوا قيد أنملة » .

ورغم خوف كربوغا ، فإنه وضع جيشه العظيم في تشكيل قتالي ، وسمح للمسيحيين أن يخرجوا من أنطاكية دون مضايقات ، رغم أنه كان يستطيع سد الطريق عليهم . وخشية أن تتعرض قواتنا لتكتيكات الإلتفاف من الخلف ، فإن قواتنا نقلت خطوطها القتالية نحو الجبال التي كانت على بعد ميلين كاملين من الجسر . وتقدمنا في موكب يشبه تماما موكب رجال الدين ، ولعلنا أضيف ، أنه كان موكب حقاً . فسار الكهنة والكثير من الرهبان وهم يرتدون القمصان البيضاء أمام صفوف فرساننا ، وهم يتشدون ويطلبون العون من الرب وحماية القديسين ، ومع ذلك فقد هاجمنا الأتراك وأطلقوا علينا سهامهم ، ولكن كربوغا ، الذي لم يعد يتجاهل العروض المسيحية ، اقترح على قادتنا أن يقاتل خمسة أو عشرة من الأتراك نفس العدد من الفرجة ، على أن يغادر الجيش الذي انهزم مملوءاً من الفرسان ميدان المعركة في سلام .

وأجاب رجالنا ، « لقد رفضت ذلك عندما أردناه ، ولكن لما كنا على استعداد للقتال فليقاتل كل إنسان في سبيل حقوقه » .

وكما أوضحنا ، فقد كنا مصطفىين على السهل عندما هاجمت كتيبة من الأتراك ، جاءت من خلفنا ، فرقة من المشاة الذين داروا وقابلوا الهجوم بشجاعة . وعندما عجزت قوات الأعداء عن القضاء على المشاة ، أشعلوا ناراً حولهم حتى تحصد النيران من لا يهرب السيف . ولما كانت الأعشاب بالغة الجفاف فقد جرى إنسحاب إجباري .

ومع جيشنا خارج أنطاكية ، وقف الكهنة حفاة يرتدون الملابس الكهنوتية ، فوق الأسوار يبتهلون إلى الرب أن يحمي شعبه وينصر الفرجة نصراً يكون دليلاً على العهد الذي قدسه بدمه . إلا أننا عند التقدم من الجسر إلى الجبل ، قاتلنا قتالاً شديداً لإحاطة الأتراك بنا . وفي هذه الأثناء ، اندفع الأعداء مهاجمين الذين كانوا منا في صفوف أدهيمار . ومع التفوق العددي فإنهم لم

يجرحوا أيًا من رجالنا أو يطلقوا سهامهم علينا ، لاشك ، بسبب حماية الحرية المقدسة لنا . وقد كنت شاهداً على هذه الحوادث ، وحاملاً للحرية المقدسة . أكثر من ذلك فاذا كانت الشائعة قد انتشرت ، بأن هرقل حامل راية الأسقف ، قد أصيب في القتال ، فليكن معلوماً أنه أعطى رايته لشخص آخر وكان بعيداً عن صفوفنا .

ولما صار كل جنودنا خارج أنطاكية ، كَوْنُ أمراؤنا ، كما ذكرنا من قبل ، ثمانية صفوف . ولكن ظهرت في صفوفنا خمسة أخرى ، فصار عدد الصفوف بذلك ثلاثة عشر صفاً . ولن نمر بالكلام على هذا الحدث الجدير بالذكر ، حين أنزل الرب على المسيحيين المتقدمين للقتال . مطراً خفيفاً إبتهجوا لسقوطه فكانت قطرات هذا المطر تجلب لمن تمسُّهم خفة وقوة ، حتى أنهم صاروا يحتقرون العدو ، وهاجموه كما لو كانوا قد تربوا على الطريقة الملكية ، وكان لهذا الوابل من المطر تأثير على خيولنا لا يقل إعجازاً . ودليل ذلك اننى أسأل : أى حصان انهار قبل نهاية القتال ، رغم أنه لم يكن قد أكل إلالحاء الشجر وأوراقه لمدة ثمانية أيام ؟ ولأن الرب قد أضاف جنوداً إلى جيشنا ، فقد تفوقنا عددياً على الأتراك رغم أننا كنا نبدو قبل ذلك أقل عدداً^(٧) .

وعند اكتمال تقدمنا وتشكيلنا القتالى ، هرب العدو دون أن يعطينا الفرصة للقتال ، ثم طاردتهم قواتنا حتى غروب الشمس . وعمل الرب بشكل مدهش مع الرجال والخيول ، فلم يكن الجشع يعوق الرجال ، وإذا بهذه الخيول التى لم تأكل منذ فترة ، والتى قادها أصحابها بعيداً عن العلف القليل ، إلى ميدان القتال ، تطارد أسرع الخيول التركية . وأعد الرب لنا حدثاً سعيداً آخر ، وهو أن المدافعين عن القلعة عندما رأوا هروب رجال كربوغا ، يثسوا واستسلم بعضهم بعد ضمان حياتهم ، بينما لاذ آخرون بالفرار على وجه السرعة . ورغم هذه المعركة الفظيعة الرهيبة ، فإن قلة من الفرسان الأتراك قد هلكوا ، ومن ناحية أخرى فلم ينجح بحياته أحد من المشاة . فضلاً عن ذلك فإن الغنائم كانت تتضمن كل خيام

الأثراك والكثير من الذهب والفضة ، والكثير من الأسلاب ، وكهيات لا تقدر من
الحبوب ، وأعداداً لا تحصى من الماشية ، والجمال . فذكرتُنا بهروب السوربان في
سامرة عندما كان صاع الدقيق والشعير يشتري بشيكيل SHEKEL (٧) ، وقد
وقعت هذه الأحداث في ليلة عيد القديس بطرس والقديس بولس ، وكان ذلك
ملائماً ، لأنه من خلال هذين الشفيعين المقدسين ، جلب الرب يسوع المسيح هذا
النصر إلي كنيسة الحاج الفرنجية . حقاً لقد كان ربنا الرحيم هو الذي يعيش مع
خدمه ويسكن معهم إلى أبد الأبد .

* * * * *

هوامش الفصل الثامن

(١) كان ستيفن كونت بلوا وشسارتر صليبيًا عاق . وكانت زوجته أديلّا Adela ابنة وليم الفاتح ، قد حثته على الاشتراك في الحملة الصليبية . وقد زال أثر هروبه والخزي الذي سببه بمصرعه في عام ١١٠٢م أثناء هجوم بلدوين الأول ملك بيت المقدس (. . ١١ - ١١١٨م) الفاشل وفرسانه على القوات الفاطمية في الرملة . انظر :

James Brundage, An Errant Crusader Stephen of Blois, in *Traditio*, 16, 1960, pp. 380 - 395.

(٢) بعث الفرنج مع بطرس الناسك بترجم يدعى آرلوين Arluin لمساعدته في التفاهم مع المسلمين ، وذلك في ٢٧ يولية ١٠٩٨م / ٢٥ رجب ٤٩١ هـ . ولا نعرف ما هو أكيد مما جرى على لسان كربوغا و بطرس . ويبدو أن الأخير حاول في أول الأمر اخافة كربوغا وتهديده بالكلام عن إمكانيات الصليبيين وأسلحتهم وتمسكهم بأنطاكية . وربما جرت اقتراحات بإجراء مبارزات فردية لحسم الأمر ، إلا أن السفارة الصليبية اصطدمت بعناد كربوغا الذي رأى أن يستسلم الصليبيون دون قيد أو شرط ، أو أن السيف هو الذي يحسد من تكون له المدينة . انظر :

Albert d'Aix, p. 420; Gregory Beshada, *chanson d'Antioche en provençal*, French Trans. by Meyer, in *AOL*, vol. 2, pp. 496 - 498.

ويذكر المؤرخ الانجليزى وليم مالمسبرى أن كربوغا رفض الرد على بطرس واستمر في لعب الرد ، وصرّ على أسنانه وصرف بطرس كما جاء . انظر :

William of Malmesbery, *Gesta Regum Anglorum*, 2 vols, ed. W. Stubbs, in RS, London, 1889, vol. 2, p. 419.

(الترجمة العربية) .

(٣) هيو العظيم Hugh the Great ابن هنرى الأول ملك فرنسا وعرف بكونت فيرماندوا . واشترك أيضا في صليبية ١١٠١م . وكما جاء في بعض الروايات ، فقد لقي حتفه في طرسوس لإصابته بسهم جرحه جرح قاتل .

(٤) يبدأ وصف معنويات الصليبيين المتغيرة بعبارة « آه ! كم هي مباركة تلك الأمة التي يكون سيدها هو الرب » . وقد اقتبس المؤلف هذه العبارة من : 12 : 32 . Psalm .

= وفي الحقيقة ، فقد حل النشاط محل التراخي ، ولم يتردد ريمونداجيل في استخدام معلوماته عن التصرف السديد الذي سلكه الفرنج في هذه اللحظة . كما يبين أيضا التباين بجعل كريوغا مضطرب النفس وهو يلعب الترد .

(٥) لم يتم التعرف على من يحمل لقب ميردالين Mirdalin من رجال كريوغا . وربما كان في الاسم تحريفا قائما على الكلمة الفرنسية القديمة أميرال Amiral ، من كلمة أمير العربية . وقد نصح وثاب بين محمود وهو قائد عربي ، نصح كريوغا بأن ينتفض على الفرنج بمجرد خروجهم من المدينة . واختار كريوغا أن يهاجمهم جميعا دفعة واحدة على أمل أن يحقق نصرا كاملا .

- ربما اغتر كريوغا بضخامة قواته حيث أمر كاتبه أن يرسل إلى الخليفة العباسي وإلى السلطان السلجوقي يخبرهما بحصاره للفرنج ، ويؤكد انتصاره عليهم . وربما أكد له فكرته هذه ما سمعه عما سببته المجاعات للفرنج من متاعب . انظر : ابن الأثير : راجع أيضا :

Monitum in Balduini III, Historia Nicenae vel Antiochenae Prologum, in RHC - H. Occ., vol. 5, p. 163.

(الترجمة العربية) .

(٦) لم يكن وصف ريمونداجيل للمعركة ثريا بالمعلومات التاريخية . وفضل المؤرخ أن يكتب عن مواكب الفصائل الصليبية مقارنا إياها بالمواكب الكهنوتية . ويستخدم الحرية المقدسة كأثر نافع في المعركة ، ولم يقاوم نفسه في جعل المطر الخفيف المحبب يسقط على الصليبيين . وهرقل هو فيكونت بوليغناك Polignac وهو الأخ الأصغر لبونز . ومدينة بوليغناك تقع بالقرب من لى بويه مقر أسقفية أدهمار . ولقد عارض بونز وهرقل إصلاحات أدهمار .

(٧) يذكرنا انتصار الصليبيين « بهروب السريان في السامرة » . وهذا التشبيه مقتبس من سفر الملوك . انظر
Liber Quartus Regum, 7 : 18.

وقد وقعت المعركة في صباح يوم ٢٨ يونية ١٠٩٨ م / ٢٦ رجب ٤٩١ هـ .

الفصل التاسع

موت أدهيمار والإبلاغ عن رؤى

فى أعقاب الإنتصار استولى بوهيمند ، والكونت والدوق ، وكونت الفلاتندر على القلعة من جديد ، ولكن بوهمند أضر شرا دفعه إلى الإثم ، فاستولى على الأبراج العالية ، وطرده بالقوة أتباع جودفرى وكونت الفلاتندر وكونت سان جيل من القلعة متعللاً بأنه كان قد أقسم للتركى الذى سلمهم أنطاكية أنه هو فقط الذى سيمتلكها ^(١) . وتشجع بوهيمند بهذا العمل الذى مرّ دون عقاب ، فجاء يطالب بالقلعة وبأبواب أنطاكية ، التى كان يحميها ريموند وأدهيمار وجودفرى من أيام حصار كربوغا . واستسلم الجميع باستثناء الكونت . فرغم حالة الضعف التى كان عليها ريموند فإنه لم يشأ أن يتنازل عن باب الجسر ، ولم تشنه عن عزمه الصلوات ، والوعود ، والتهديدات .

وقلق قادتنا بسبب الصراع الداخلى الذى قوَّض أسس العلاقات الودية ، بحيث أن قلعة فقط هى التى كانت تتجنب النزاعات مع الزملاء أو الخدم على السرقة أو العنف . وفى غيبة قاض يمكنه أن يناقش القضايا ، فإن كل شخص أصبح قانوناً فى حد ذاته . وفى هذه الظروف لم يكن الكونت المريض والأسقف يقدمان حماية كبيرة لأتباعهما . ولكن لماذا نشغل أنفسنا بمثل هذه التفاصيل الصغيرة ؟ فالصليبيون الذين كانوا يرفلون فى خمول وثراء ، وخلافاً لأوامر الله ، أجلوا الرحلة حتى أول نوفمبر . ونحن نعتقد ، أن الفرجة لو تقدموا ، فإنه لم تكن هناك مدينة بين أنطاكية وبيت المقدس تلقى عليهم حجراً واحداً ، فقد كانت مدن المسلمين فى ذلك الوقت تعيش فى رعب وضعف شديدين بعد هزيمة كربوغا ^(٢) .

فى هذه الأثناء ، انتقل إلى الرب فى سلام - فى الأيام الأولى من أغسطس أدهيمار ^(٣) اللورد أسقف لى بويه المحبوب من الرب والناس ، والذى كان بلا خطأ فى تقدير الجميع . وكان حزن كل المسيحيين عليه عظيماً عندما

مات ، حتى أننا ، وقد كنا شهود عيان له ، لم نستطع أن نصف ردود الأفعال عندما شرعنا فى تسجيل عظمة الأحداث . ولقد أثبت تشتت القادة فى أعقاب موت أدهيمار ، وعودة بوهيمند إلى قيليقية ، ورحلة جودفرى إلى الرها ^(٤) كم كان أدهيمار نافعاً لجيش المسيح Militia Christi ولقاداته .

وفى الليلة التالية لدفن الأسقف فى كنيسة بطرس المبارك فى أنطاكية ، ظهر الرب يسوع وأنדרو المبارك وأدهيمار فى كنيسة ريموند لبطرس بارثولوميو ، وهو الرجل الذى كان قد حدد موقع الحربة فى أنطاكية . ثم قال أدهيمار لبطرس :

« الشكر للرب ولبوهيمند ولكل أخوتى الذين خلصونى من الجحيم . فبعد اكتشاف الحرية ، أمعنت فى الآثام ، وألقى بى لذلك فى الجحيم . وجُلدت بقسوة ، وكما يمكنك أن ترى ، فقد احترق رأسى ووجهى . وبقيت روحى فى الجحيم منذ الساعة التى غادرت فيها جسدى ، حتى أعيد جسدى التعس إلى التراب . أما الثوب الذى تراه الآن فهو ثوب أعاده الرب إلى فى اللهب المشتعل ، لأننى عند ترسيمى أسقفاً كنت قد أعطيته لأحد الفقراء . شكراً للرب ورغم أن جهنم كانت تغلى وكلاب جهنم تزمجر فى وجهى ، فإنها لم تصب منى أى شيء . تحت الثوب ، ولم ينفعنى من كل الأشياء التى حملتها من وطنى ، كما أفادتنى شمعة قدمها أصدقائى مقدمة لى ، والدنانير الثلاثة التى قدمتها للحرية ، فقد أحبتنى هذه الصدقات عندما خرجت من الجحيم . وقال سيدى بوهيمند أنه سيحمل جسدى إلى بيت المقدس . ومن أجل خاطره ، فإنه لن ينقل جثمانى من مقره لأن بعض دم الرب الذى أصبحت الآن مرتبطاً به مازال هناك » .

« ولكن إذا كان يشك فى أقوالى فليفتح قبرى ، وسيرى رأسى ووجهى المحترقين . وقد عهدت باتباعى إلى سيدى ، الكونت ، فليعاملهم ريموند بعطف حتى يكون الله رحيماً وفى بوعوده . كما أن إخوتى لا ينبغي لهم أن يحزنوا لموتى ، لأننى سأكون أكثر نفعاً ، وأنا ميت ، مما كنت حياً ، إذا شاعوا المحافظة

على قوانين الرب . قسأعيش أنا وكل إخوتى الراحلين معى ، وسوف أظهر وأقدم نصحاً أفضل مما كنت أقدمه حيا ، فاهتموا يا إخوانى بالآلام الجحيم الثقيلة المخيفة واعبدوا الرب ، مُخلص الإنسان من هذه الآلام وغيرها . فالسعيد حقاً من ينجو من عقوبات الجحيم . فالمخلص سيستطيع أن يمنح عفوه لمن حافظوا على وصاياہ . كما عليكم أن تُبْقُوا على هذه النقاط المتساقطة من هذه الشمعة والمتبقية عند الفجر . ولما كنت ميتاً فلينتخب الكونت ورجاله المختارون أسقفاً بدلاً منى ، حيث أنه لا يلىق أن يبقى كرسي أسقفية لمريم المباركة بدون أسقف ، واعطوا إحدى عباأتى لكنيسة القديس أندرو » ^(٥) .

ثم قدم أندرو المبارك احتراماته واقترب وأمر : « اهتموا بكلمات الله التى أنطق بها . تذكر يا ريموند الهدية التى سلّمها لك الرب ، وليكن ما تفعله باسمه حتى يرشدك الرب فى كلامك وأفعالك ، ويقبل صلواتك . فإن نيقية أول مدينة منحها لك الرب ، إنما حولها هو إليك . لقد أعطاك الرب مدينته ، وانتزعها من أعدائك ، لكى تتنكر له بعد ذلك فى هذا المكان لأن أعمال الرب لم تكن معروفة هناك ، وإذا طلب أحد معونة الرب كان يعاقب . ومع ذلك فإن الرب بخيره وإحسانه لا يريد أن يتخلى عنكم : وسيمنحكم ما تطلبون ، بل وأكثر مما جرؤتم على طلبه ، لأنه سلّم لكم الحرية ، التى اخترقت جسمه الذى جرى منه دم إفتدائنا ^(٦) وتذكروا أن الرب لم يعطكم هذه المدينة لتدنسوها كما فعلتم فى الأخرى ، وتستطيعون بكل تأكيد أن ترون أن الرب لم يعطها لمزايأ فيكم » .

« إن الرب يأمرك ، يا ريموند ، أن تعترف من يطمح أكثر إلى حكم أنطاكية ، وتستفسر عن دور الرب فى حكمه . لذلك فإذا وجدت أنت وإخوانك ، وأنتم الحراس على أنطاكية ، من يقوم بإخلاص على عدالة الرب ، فاعطوه المدينة . ولكن إذا كان يخطط للاحتفاظ بأنطاكية بالقوة ، محتقرا بذلك العدالة والحكم ، فاطلب أنت وإخوانك المشورة من الرب ، وسوف يقدمها لك . ولن يخذلك الأتقياء والذين يعبدون الرب حقاً ، أما غير الأتقياء فيمكنهم أن يعودوا إلى من

هو عدو للعدالة ، وسترون كيف سينقذهم الرب ، ستنزل بهم حقاً نفس اللعنة التي أنزلها الرب وأمه إبليس الذي هوى . فإذا كنتم متفقين ، فاطلبوا النصع فى الصلاة ، وسيقدمه لكم الرب . »

« وإذا كنتم متفقين : فاعقدوا مجلساً بخصوص بطريك لقانونكم . ولا تمنحوا الغفران للأسرى الراغبين فى التمسك بوصاياكم . ولا تسمحوا لهؤلاء الذين اتبعوا القرآن لكى يعبدوا الله الذى يعبد الأتراك Allah^(٧) . أنظروا إليهم كأتراك . وأرسلوا اثنين أو ثلاثة إلى السجن وسيدلونكم على الآخرين . وبعد الانتهاء من هذه المهمة ، اطلبوا مشورة الرب بخصوص الرحلة الصليبية ، وسيحضكم النصع . ولكن إذا لم تنفذوا هذا الأمر ، فإنكم لن تصلوا بيت المقدس فى عشر سنوات ، رغم أنها لا تبعد عنكم إلا عشرة أيام ، وسأقود الكفار إلى بلادهم من جديد ، وسينتصر مائة منهم عليكم . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن عليكم يا خدم الرب ، أن تستعطفوا الرب كما فعل الرسل ، وكما استجاب لصلاتهم فانه سيستجيب لصلاتكم . »

« أما أنتم ، يا ريموند وبوهيمند ، فاذهبوا إلى كنيسة أندرو المبارك . وسيعطيكم أفضل نصيحة من الرب . واتبعوا ما يضعه الرب فى قلوبكم . وبعد هذه الرؤيا لأندرو المبارك تذلّلوا أمامه ، لا أنتم فقط ، بل اجعلوا اخوانكم يفعلون ذلك أيضا . وبكل وسيلة ، اجعلوا السلام وحب الرب يسود بينكم ، باريموند وبوهيمند ، لأنكما إذا اتفقتما ، فلن يستطيع شيء أن يحطمكما . ويليق بكما أن تعلنا العدالة التى يجب أن تقيمانها . فاجعلا كل الرجال الموجودين عن طريق أسقف كل منهم يعلنون على الملأ قيمة ثرواتهم ، ويساعدون الفقراء حسب قدرتهم والحاجة إلى هذه المساعدة . وتصرفوا طبقاً لاتفاق عام . وإذا لم يريدوا مراعاة هذه القاعدة وغيرها من القواعد العادلة ، فاكبحوا جماحهم . وإذا رغب أى شخص فى امتلاك أى مدينة » اعطاها له الرب من أجل المسيحيين ، فيسلك المسلك الذى يتفق مع الوصايا المذكورة . وإذا لم يفعل فليعاقبه الكونت وأبناء الرب . »

ولقيت تحذيرات القديس أندرو تصديقا في أول الأمر ، ولكن سرعان ما كان نصيبها التجاهل ، فقد قال بعض الصليبيين « فلنرُدَّ أنطاكية إلى الكسيوس » ، ولكن آخرين اعترضوا .

وفيما بعد ، وأثناء حصار عرقة ، وبينما كان بطرس بارثولوميو يرقد رقاد الموت ، استدعى الكونت وأوصاء قائلا : « عند وصولك إلى بيت المقدس مر الجيش أن يصلى للرب ليطيل حياتك وسوق يضاعف الرب عمرك . وعند عودتك ضع الحرية على بعد خمسة فراسخ من كنيسة سان تروفيموس ومر ببناء كنيسة هناك : وانذر - بقسم - مالا كثيرا ، ولا تسمح بارتكاب أى باطل فى هذا المكان ^(٨) . وسيسمى هذا المكان جبل البهجة ، ولعل هذه الأشياء تنفذ فى بروفانس لأن بطرس المبارك وعد تلميذه تروفيموس أن يسلمه الحرية المقدسة » ^(٩) .

وأهملت مصالح الفقراء بسبب الصراع والشقاق ، ولم يحدث شئ بخصوص المشورة التى تلقاها القادة من القديس أندرو فى ذلك الوقت ، حاصر أتراك حلب قلعة تسمى عزاز Azaz ^(١٠) . وقلق الأتراك المحاصرين داخلها ، فطلبوا من جودفرى ، الذى كان فى منطقة قريبة منهم ، أن يسلموه قلعتهم ، لأنهم يفضلون سيداً فرنجياً . وبالتالي استدعى الدوق عند عودته إلى أنطاكية ، ريموند الذى كان قد شفى من مرضه ، وكل فرسانه ومشاته الذين كان الكونت قد قادهم إلى أراضى المسلمين لنهب الريف من أجل الفقراء .

كما جدّ فى طلبه من ريموند أن يسرع الأخير من أجل الرب ، ومن أجل شرف جيش الفرنجة - لمساعدة الأتراك المرتدين الذين كانوا الآن يستصرخون الرب . كما أوضح أن الأتراك المحاصرين رسموا علامة الصليب فى مواجهة آلات المحاصرين . ونتيجة لهذه الإلتماسات وغيرها ، سار الكونت مع جودفرى ، إلا أن الأتراك تخلوا عن الحصار لدى سماع هذا النبأ . وبالتالي فعند وصول جيشنا إلى عزاز ، أخذ الدوق رهائن من القلعة ليضمن ولاء أهل عزاز فى المستقبل ، وعاد

ويعود إلى أنطاكية وقد تكبد جيشه نفقات كبيرة . وهنا ، استدعى فرسانه لكي يقود الناس الفقراء ، الذين انخفضت معنوياتهم بسبب الجوع والتعب إلى أملاك المسلمين ^(١١) .

وفي نفس الوقت ظهر القديس أندرو لبطرس بارثولوميو في خيمة في قلعة الراج Castel - Rouge التي كان يحتلها أسقف أبت Apt ، وريمونداجيل ، كاهن الكونت ، وكان يدعى سيمون . وعندما سمع سيمون الحديث بين القديس أندرو وبطرس ، غطى رأسه ، وكما قال فيما بعد ، سمع كثيراً مما دار ، ولكنه لم يذكر إلا « سيدى ، إننى أقول ... » ^(١٢) .

ومع ذلك فقد أضاف أسقف أبت « إننى غير متأكد ما إذا كنت قد رأيت حلماً أو لم أر . ولكن رجلاً كبيراً في السن يرتدى عباءة بيضاء ويمسك في يديه حرية الرب المقدسة ، وسألنى : « هل تؤمن بأن هذه حرية يسوع المسيح ؟ » .

فأجبت قائلاً : « إننى مؤمن بذلك ياسيدى ! » وعندما كرر السؤال مرة ثانية وثالثة أجبت قائلاً « حقاً اننى اعتقد أن هذه هي الحرية التى استنزفت الدم من جنب يسوع المسيح الذى افتدى به الجميع » .

ثم هزنى أسقف أبت ، وريمونداجيل ، وأنا نائم على مقربة . وعندما استيقظت لاحظت الضوء غير العادى ، وكما لو كانت النعمة الإلهية قد دخلت روحى ، استفسرت من أصدقائى الحاضرين عما إذا كانوا يشعرون كما لو كانوا فى مجموعة تحركها عاطفة عظيمة ، وردوا جميعاً : « لا ، حقاً » . وبينما كنت أردد ما سبق ، إجاب بطرس متلقى الوحي السماوى « إنك رأيت فعلاً نوراً مبهجاً لأن الرب ، صاحب كل النعم ، كان يقف فى هذه البقعة لفترة طويلة » .

وعندما طلبنا منه أن يحكى كلمات زواره السماويين ذكر بطرس لنا وللكونت ما يلى :

« الليلة جاء هنا الرب وأندرو المبارك فى شكلهما المعتاد ، فى صحبة

رفيق صغير ، ذى لحية طويلة ويرتدى ثوبا من الكتان . ثم أن أندرو المبارك ،
وقد أسخطه أننى تخلّيت عن رفاته الموجودة فى الكنيسة فى أنطاكية ، هدد فى
عنف واستأنف قائلاً « بعد أن ألقانى الكفار من فوق الجبل بدون احترام ، إنكسر
لى إصبعان ، وبعد موتى حفظهما هذا الرجل ثم نقلهما إلى أنطاكية . ولكنك لم
تهتم كثيراً ببقاياى بعد أن عثرت عليها ، فسمحت بسرقة أحدهما ، ورميت الآخر
بشكل مشين : « ثم أرانى يده التى كان ينقصها إصبعان » .

واستأنف بطرس قائلاً : « أيها الكونت ، لقد انتقدك القديس أندرو
بقسوة ، لأنك لا تحشى ارتكاب الآثام الخطيرة الشريفة ، رغم أنك تلقيت الهدية
التي لا توصف التي حفظها الرب لك وحدك . وهذا هو السبب فى أن الرب أعطاك
هذه العلامة : وهى على وجه التحديد ، أنك فى عيد القديس فيديس منذ خمسة
أيام قدمت مقدمة هى شمعة كبيرة تستغرق ثلاثة أيام وثلاث ليال لتحترق .
ولكنها سرعان ما ذابت ، وهوت إلى الأرض . وهذه الليلة على العكس من ذلك
قدمت شمعة صغيرة لاتكاد تكفى لأن تحترق تماماً قبل صباح الدكية ، وهى تلقى
ضومها ولم يذب إلا ثلثها الآن ، رغم أن النهار قد طلع الآن ^(١٣) .

لذلك فإن الرب يطلب منك هذه الأشياء : لا تقم بشيء حتى تكون قد
كفرت عن ذنوبك ، لأنك إذا لم تفعل ذلك ستكون أنت ومشروعاتك كشمعة ذائبة
تهوى إلى الأرض . ولكن الرب سيجعل كل أعمالك تامة ناجحة باسم الرب ، إذا
كفرت ، وسيضخم الرب جهودك الصعبة ، كما جعل هذه الشمعة الصغيرة التى
تراها تبقى وقتاً طويلاً » .

ورغم أن ريموند أنكر جسامه آثامه ، فإنه اعترف وكفر عنها بعد أن واجهه
بطرس بارثولوميو بذنبه .

واستمر بطرس فى توجيه كلامه إلى الكونت : « أيها الكونت إن أندرو
المبارك يعترض على مستشاريك لأنهم قدموا لك نصيحة سوء لغرض ما ، ولهذا

فإنه يأمر أن تتجاهل نصيحتهم . إلا إذا أقسموا على ألا يعطوك نصيحة غير
طيبة وهم يعلمون ذلك » .

« استمع جيداً يا ريموند . إن الرب يأمرك بالألا تضيع الوقت ، لأنه
سيساعدك فقط بعد الاستيلاء على بيت المقدس ، ولا تجعل صليبياً يقترب أكثر
من فرسخين عندما تقترب من بيت المقدس . وإذا اتبعت التعليمات ، فإن الرب
سيسلمك المدينة » .

« وبعد هذه الأوامر شكرنى القديس أندرو كثيراً لأننى حققت تكريس
الكنيسة التى شيدت باسمه فى أنطاكية . ولم يتكلم فى هذه الأمور فقط بل فى
أمور أخرى لاتخصنا الآن . وبعد ذلك صعد هو ورفيقاه إلى الفضاء » .

* * * * *

هوامش الفصل التاسع

- (١) قام أحمد بن مروان ، متولى القلعة ، بتسليمها للفرنجة بعد تأكده من هزيمة كربوغا .
وسمح الفرنج لحامية القلعة بالخروج منها ، وارتد أحمد بن مروان . ويقرر ريمونداجيل أن
الصلبيين اشتركوا فى امتلاك القلعة . بينما يقرر مؤلف الجستا أن ابن مروان قد عدل
عن رأيه ولم يسلم القلعة لكونت تولوز ، وأعطاهها لبوهيمند . انظر : Gesta, p. 158.
ويذكر ريمونداجيل أن بوهيمند كان « يضر الشر الذى دفعه إلى الإثم » ، انظر :
Psalm, 7 : 5 . وفى ذلك الوقت أصبح العداء بين كونت تولوز وبوهيمند صريحا .
- (٢) يعكس المؤرخ سوء فهم رجال الدين حين تتأزم الأمور العسكرية . وقد فرضت مشاكل
الجيش المجهد ، والإمدادات ، وظروف الطقس (الصيف) على الفرنج تأجيل المسير
إلى بيت المقدس والبقاء عند أنطاكية .
- (٣) كان موت المندوب البسابوى نتيجة لولاء نفشى فى أنطاكية لكثرة الجثث التى لم يتم
مواراتها التراب . انظر :
Albert d'Aix, p. 435.
(الترجمة العربية) .
- (٤) إلتبس زعماء الفسرنج ملاذا لهم بعيدا عن أنطاكية تجنبا للولاء المنتشر فى المدينة .
فاجتاز بوهيمند جبال طوروس إلى قيليقية حيث أكد سلطانه فيما استولى عليه
تشكريد من أملاك . كما توجه جودفرى إلى تل باشر والراوندان حيث سلمهما له أخوه
بولدوين . بينما توجه روبرت النورماندى إلى اللاذقية . انظر :
Ibid, pp. 440 - 441.
(الترجمة العربية) .
- (٥) مات أدهمار فى أول أغسطس ٩٨٠ م . وقد مدحه المؤرخ بالرغم من أنه كان غاضبا
منه لتشككه فى الحرية المقدسة . وروايته عن عودة أدهمار فى رؤيا كانت بشكل
خبرى . وهناك رواية مشابهة فى عودة القديس فيورسى Fursey . انظر :
Benjamin Thorpe, The Homilies of the Anglo - Saxon church, London,
1844 - 46, 2, pp. 322 - 439.
ولقد أنقذ أدهمار من العقاب لأنه كان إنسانا طيبا . وعن المقالات المتعلقة بإسهامات
أدهمار ، انظر مقدمة الترجمة الانجليزية ، حاشية رقم (١٩) . ويذهب جيبس برونديج =

== أننا ننقص من قدر الدور الذي قام به أدهيمار . ولقد أوضحنا أن المصادر الأولية محدودة للغاية ، وأن مؤيدى أدهيمار يجب أن يتناقشوا بسبب هذا الصمت . ونحن أيضا نبحث سبب هذا الصمت في المصادر . واعترافا بحقيقة أن أدهيمار قد مات في وقت حرج ، فإننا لا نستطيع القول بأنه استطاع أن يلم شمل الصليبيين . فبمجرد أن زال الخطر المشترك ، فمن غير المحتمل أن يكون أدهيمار قد استطاع أن يمنع الإشتاق بين التورمان والبروفنساليين . وقد عبر ريمونداجيل أحسن تعبير عن ذلك حين قال على لسان أدهيمار أنه « سيكون أكثر نفعا وهو ميت منه وهو حي » .

(٦) رواية المؤرخ عن تعليقات أندرو إلى ريموند جاءت مسهبة ، وفيها يعد أندرو بأن « الرب لا يريد أن يتخلى عنكم ، وسيمنحكم ما تطلبون » وربما نلاحظ هذا التعبير في العهد القديم (المزامير وسفر التثنية) . انظر : Psalms, 24 : 5-6; Deuteronomy, 31:8.

(٧) يستعمل المؤلف كلمة Corozanam (خراسان) لوصف بلاد الوثنيين . انظر ماسبق من الفصل الخامس ، حاشية (١) ، انظر أيضا :

Matthew, 11 : 21; Lukem 10 : 13 .

وقد تجاسرنا على استعمال كلمة « القرآن » نظرا لحقيقة أن معنى تبليغ ريمون واضح .

(٨) وعرة مدينة اسلامية تقع على بعد خمسة عشر ميلا من طرابلس . ويقدم المؤرخ الأحداث في روايته ويكشف عن مهارته في كتابة التاريخ بعد الأحداث .

(٩) كان تروفيموس Trophimus أسقفاً أسطوريا لأرلس Arles ومن المفروض أنه تابع للقديس بطرس ، انظر : Acts, 20 : 4, 21 : 29.

وقد تأصلت التعاليم الخاصة بكنيسته في الأسطورة . وكان مصلى النبي صموئيل يسمى جبل البهجة Montjoie .

(١٠) عزاز Azaz أو Hazart مدينة من مدن العصور الوسطى تقع إلى الشمال الشرقي من أنطاكية . وكانت الحملة على عزاز في ١٤ - ١٧ سبتمبر ١٠٩٨ م .

- « عزاز » بلدة بها قلعة ، تقع على بعد أربعين كيلومترا شمالي حلب ، على الطريق الرئيسى بين أنطاكية من ناحية ، والرها وتل باش من ناحية أخرى . انظر : ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٦٦٧ .

ومن الواضح أن الترجمة الإنكليزية لم تهتم بتحديد المواقع التي لم يرد لها وصف في كتب المؤرخين اللاتين المعاصرين . إلا أنه من الواضح أن الترجمة الإنكليزية كان جل

== الاهتمام خلالها بترجمة النص اللاتيني فالمعلومات عن هذه الموانع متوفرة في كتب الرحالة اللاتين ، الذين تزخر بأعمالهم مجموعة نصوص حجاج فلسطين وبيت المقدس .
(الترجمة العربية) .

(١١) موضوع ارتداد بعض المسلمين عن الاسلام ، الذي يرد في المصادر اللاتينية يحتاج لدراسة منفردة حيث تكتنفه الشكوك . وهنا ما سنقوم به في بحث منفصل إنشاء الله .
أما مايورده ريمونداجيل هنا فتتفحص الدقة ويعيد عن الحقيقة . فكل ما حدث أن ابن عمر صاحب عزاز كان قد خرج عن طاعة سيده رضوان ملك حلب السلجوقي . واستتجد بالفرنجة بعد أن قام رضوان بحصار عزاز . ويحضر الفرنجة اضطر رضوان أن يرفع حصاره عنها . وأقر الفرنجة ابن عمر في أملاكه ، واتخذ ريموند كونت تولوز فصلا من أفصاله . انظر : ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ١٤١ . راجع أيضا :

Albert d'Aix, pp. 435 - 449.

وهذا الحدث يدل على أن الأمراء المسلمين - المنقسمين على أنفسهم - بدأوا يستعينون بالفرنجة في منازعاتهم ، كما يدل على أن الفرنجة أنفسهم بدأوا يميلون إلي أن ينتمى إليهم أتباع مسلمون ، مما يسهل لهم تحقيق أطعاهم في المنطقة . انظر :

Runciman, op. cit., vol. 1, p. 257.

(الترجمة العربية) .

(١٢) قلعة الروج (القلعة الحمراء) Chastei Rouge قلعة من قلاع الفسرنج وكانت تسمى روجيا Rugia . وتقع جنوبى أنطاكية . وكان أسقف أبت Apt ضمن معبة ريموند كونت تولوز . وأبت إحدى مدن إقليم بروفانس . وسمعان Simon هو قسيس إقتصرت التعريف به على الإشارة القصيرة التي أوردها ريمونداجيل عنه .

- والروج كورة من كور حلب في غربها بينها وبين المعرة . انظر : ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٨٢٨ .
(الترجمة العربية) .

(١٣) حشرت قصة الشمعة الذائبة في ثنايا معلومات المؤرخ عن العلوم القديسية . كلما استفرقت الشمعة وقتا أطول في الإحتراق ، كلما زادت طهارة من قدمها . وعندما تحترق شمعة ريموند بسرعة فهو يتوقع عقابا دينيا . أنظر :

Patrick F. Moran, Acta Sancti Bernard, Dublin, 1872, pp. 107 - 136.

وكان يحتفل بعيد القديس فيديس Fidis في ٦ أكتوبر من كل عام .

الفصل العاشر

الاستيلاء على البارة ومعة النعمان

وبعد ذلك بوقت قصير تقدم رموند ، يصحبه الحجاج الفقراء وقلة من الفرسان ، داخلين الشام حيث استولى بشجاعة على البارة ، ، أول مدينة إسلامية في طريقه ^(١) . وهنا قتل الآلاف ، وأعاد آلاف غيرهم لبيعوا كعبيد في أنطاكية ، وأطلق سراح الجبناء الذين استسلموا قبل سقوط البارة . وبعد ذلك ، وعملا برأى كهنته وأمرائه ، اختار الكونت بطريقة صحيحة تستحق الشناء ، كاهنا ليكون أسقفا ، وبعد اجتماع عام تسلق أحد كهنة الكونت الأسوار ، وأعلن على كل الناس رغبات رموند . ولما كان الناس يطالبون بالانتخاب ، فقد سأل الكاهن المذكور عما إذا كان هناك رجل دين يمكن أن يتلقى ولاء المؤمنين ، ويساعد الرب وإخوته بالتصدي للوثنيين بقدر ما يستطيع .

ووسط الصمت الذي تلا ذلك ، استدعينا بطرس ، وهو من مواطن ناربون وأوضحنا له على الملأ ، عبء الأسقفية ، حثنا على تولي المنصب إذا كان عازما على الاحتفاظ بالبارة حتى إلى أن يموت . وعندما وعد بقيامه بذلك ، وافق عليه الناس بالإجماع ، وشكروا الرب كثيرا لأنهم كانوا يريدون أسقفا رومانيا في الكنيسة الشرقية ^(٢) . وأعطى رموند لبطرس الناربوني نصف البارة والمناطق المحيطة بها .

واقترب أول أيام شهر نوفمبر ، وهو الوقت المحدد لتجمع الصليبيين من جديد لمواصلة زحفهم . وكانت البارة على مسيرة يومين من أنطاكية . ونتيجة لذلك ترك رموند جيشه في البارة ، ورحل إلى أنطاكية مع بطرس ، أسقفه الجديد ، وأسرى كثيرين وغنائم كثيرة . وهنا تجمع كل الأمراء باستثناء بولدوين شقيق جودفري . واتجه بولدوين هذا ، بعد أن انفصل عن الجيش الصليبي الرئيسي ، إلى الفرات قبل الاستيلاء على أنطاكية ، واستولى على مدينة الرها الغنية المشهورة وخاض عدة معارك ناجحة ضد الأتراك .

وقبل أن انتقل إلى أحداث أخرى يجب أن أحكى لكم هذه الحكاية .
فعندما كان جودفرى فى طريقه إلى أنطاكية مع اثنى عشر فارساً قابل مائة
 وخمسين من الأتراك ، فلم يتردد أبداً ، وأعد أسلحته ، وحث فرسانه ، وهاجم
 العدو بشجاعة ، ولكن المسلمين الذين آثروا - مجبرين - الاختيار الأهوج
 للموت على النجاة بالفرار ، اختاروا أن يترجل بعض رجالهم حتى يطمئن الأتراك
 الراكبون إلى أن أصدقائهم المترجلين لن يتخلوا عنهم ويلوذوا بالفرار . ونتيجة
 لذلك ، فأثناء القتال الطويل العنيف ، هاجم فرسان جودفرى العدو بشجاعة ،
 وكان عددهم مساوياً للإثنى عشر رسولاً ، وكانوا شديدي الإيمان بأن الدوق هو
 كاهن الرب . ووهب الرب الدوق نصراً عظيماً جداً ، حتى أنه قتل حوالى ثلاثين
 من المسلمين ، وأسر مثل هذا العدد ، وطارد الهاربين ، فقتل كثيرين آخرين أو
 جعلهم يفرقون فى المستنقع والنهر القريبين . وعاد جودفرى إلى أنطاكية ظافراً
 فى نصر بهيج ، وقد حمل الأسرى من الأعداء وعوس زملائهم القتلى^(٣) .

بعد ذلك بدأ الأمراء فى اجتماع ضمهم فى كنيسة بطرس المبارك ،
 يخططون لاستئناف الزحف إلى بيت المقدس . ثم سأل بعض من يحتفظون بقلاع
 أو أملاك مؤجرة فى المناطق المحيطة بأنطاكية : « ماسيتم بشأن أنطاكية ؟ من
 سيحرسها ؟ إن ألكسيوس لن يأتى ، تذكروا أنه هرب عندما سمع أن كربوغا قد
 حاصرنا ، لأنه لم يكن لديه ثقة فى قوته أو فى جيشه الكبير . هل سننتظره أكثر
 من ذلك ؟ من المؤكد ، أن من أجبر إحوتنا ومن جاءوا لمساعدة الرب على
 التراجع ، لن يأتى لمساندتنا . ومن ناحية أخرى فإننا إذا تخلينا عن
 أنطاكية واستردها الأتراك ، فإن النتيجة ستكون أكثر خطورة من الاحتلال
 الأخير . فلنعطها لبوهيمند وهو رجل حكيم بخشاء المسلمون ، وهو رجل
 سيحميها جيداً .

ولكن الكونت وآخرين اعترضوا على ذلك قائلين : « لقد أقسمنا على
 صليب الرب ، وإكليل الشوك وآثار كثيرة ، على أننا لن نحتفظ ، دون موافقة
 الامبراطور ، بأى مدينة أو قلعة فى مناطق نفوذه »^(٤) .

وهكذا اتقسم الأمراء بسبب هذه الخلافات وتكلموا بعنف شديد حتى كادوا يستخدمون أسلحتهم . والواقع أن جودفري وروبرت كونت الفلاندر لم يهتما كثيرا بمسألة أنطاكية ، وكانا يؤيدان ، سرّاً ، قملك بوهيمند لها ، ولكنهما خفا من عار الحنث باليمين ، لم يجرأ على التوصية له بها ^(٥) . ونتيجة لذلك ، تم تأجيل الرحلة وكل مايتعلق بها من مسائل ، وكذلك الاهتمام بالفقراء .

وبدأ الناس بعد أن راقبوا هذه الضجة بين الأمراء ، يقترحون بشكل سرى فى أول الأمر ثم علنا بعد ذلك : « واضح أن قادتنا لا يرغبون فى قيادتنا إلى بيت المقدس إما بسبب الجبن أو بسبب القسمة الذى أقسموه لألكسيوس ، فلماذا لا تختار نحن فارساً شجاعاً يمكن أن نأمن على أنفسنا ونحن فى خدمته ، وسنصل إن شاء الله إلى القبر المقدس معه كقائد لنا . يا إلهى ! عام مضى فى أرض المسلمين ، وفقدان مائتى ألف جندى ، ألا يكفى هذا ؟ ^(٦) فلندع أولئك الذين يطمعون فى ذهب الإمبراطور ، أو ريع أنطاكية ، يحصلون على ما يريدون ، أما نحن الذين تركنا أوطاننا من أجل المسيح ، فلنستأنف مسيرتنا معه قائداً لنا . وليت الطامعون فى أنطاكية فى بؤس كما مات سكانها حديثاً . وإذا استمر النزاع حول أنطاكية فلنهدم الأسوار ، فعندئذ سيعود زمن حسن النوايا بين الأمراء ، كما كان الحال قبل الاستيلاء على المدينة ، وذلك مع تدميرها . وإلا فإن علينا أن نعود إلى بلادنا قبل أن ينهكنا الجوع والتعب » .

وأثرت هذه الآراء وغيرها فى ريموند وبوهيمند ، فعملاً على تسوية الخلاف ، وفى تاريخ محدد صدرت الأوامر إلى الناس بالاستعداد لاستئناف الحملة الصليبية . وعند اكتمال كافة تفاصيل الاستعداد لهذا الزحف ، تقدم كونت سان جيل وكونت الفلاندر مع الناس فى اليوم المحدد إلى داخل الشام ، حيث حاصروا مدينة معرة النعمان الغنية ذات التعداد الضخم من السكان ، وكانت تقع على بعد ثمانية أميال من البارة ^(٧) . وسبب قتال سابق جرى معنا وتكبدنا فيه خسائر فادحة ، فقد عير أهل المدينة المتعجرفون قادتنا وسبوا جيشنا ودنسوا صلبانا مثبتة على أسوار المدينة ليثيروا حفيظتنا . وفى اليوم التالى لوصولنا اشتد

غضبنا من السكان الوطنيين ، حتى أننا داهمنا الأسوار بشكل سافر وكنا - دون شك - سنستولى على معرة النعمان لو كان لدينا أربعة سلالم أخرى . ومع ذلك فقد صعد رجالنا سلمينا القصيرين الضعيفين ، بخوف ، وكان قرار المجلس بناء الآلات وحواجز العيدان ذات الشوك والمتاريس الترابية التي يمكن منها أن نصل إلى السور ونهدمه ونسوِّية بالأرض . وبينما كان هذا يحدث ، أتى بوهيمند وحاصر قطاعا من معرة النعمان . وكما ذكرنا من قبل ، فإن استعدادنا لم يكن كافيا ، إلا أن ظهور الوافد الجديد شجعنا على أن نفكر في شن هجوم جديد عن طريق ردم الخندق المائي المحيط بالسور . ولكن هجومنا الجديد ، الذي كان أكثر تعاسة من الأول ، لم يكن مجدياً .

وإنه لما يحزننى أن أذكر أن المجاعة التي تلت ذلك جعلت أكثر من عشرة آلاف رجل يتناثرون كالماشية في الحقول ، ينبشون وبيحثون عن حبوب القمح أو الشعير أو الفول أو أى خضروات ^(٨) . وعلى الرغم من استمرار العمل في آلات الهجوم ، فإن بعض رجالنا بلغ من تأثرهم بالبؤس المحيط بهم وجرأة المسلمين ، أن فقدوا الأمل في رحمة الرب وولوا الأدبار .

ولكن الرب حامى عباده ، أشفق الآن على شعبه عندما رأهم في حماة اليأس والقنوط . وهكذا استخدم الرسولين الباركين بطرس وأندرو ليبلغنا بمشيئته ويسبل تلطيف أمره القاسى . ففي منتصف الليل ، دخلا كنيسة الكونت الخاصة وأيقظا بطرس بارثولوميو ، وهو الرجل الذي كانا قد أظهرنا له الحرية . ولكن بطرس بارثولوميو ، الذي تيقظ فجأة ، عندما رأى شخصين قبيحين في ملابس قذرة يقفان بجوار الإناء الثمين الذي يضم البقايا المقدسة ، اعتقد بالطبع أنهما من الصعاليك اللصوص ، كان القديس أندرو يرتدى قباء كهنوتياً قديماً ممزقاً عند الأكتاف ، فعلى الكتف الأيسر رقعة من القماش بينما كان الكتف الأيمن عارياً وكان يرتدى حذاء رخيصاً . وكان بطرس يرتدى قميصاً خشناً من الكتان يصل إلى كاحله .

وسألهما بطرس بارثولوميو : « من أنتما ياسيدى وماذا تريدان ؟ » .

وأجاب بطرس المبارك : « إننا مبعوثا الرب . أنا بطرس وهذا أندرو .
ولكننا اخترنا هذا الملبس حتى ترى المكاسب العظيمة التى ينالها من يخدم الرب
باخلاص . لقد أتينا فى هذه الحالة وعلى هذه الهيئة بالضبط كما ترانا أنت ، إلى
الرب . والآن أنظر إلينا » .

وبعد هذه الكلمات أصبح بطرس وأندرو أكثر تألقاً وأجمل مما يمكن أن تعبر
عنه الكلمات . وخرّ بطرس بارثولوميو إلى الأرض كما لو كان ميتاً ، وقد استبد
به الرعب للوميض المفاجئ من الضوء . ومن شدة خوفه تصبّب منه العرق حتى
بلل الحصيرة التى وقع عليها . فساعده القديس بطرس على الوقوف وقال له :
« لقد وقعت بسهولة » .

ورد بطرس بارثولوميو « نعم يا سيدى » ثم شرح القديس بطرس الأمر :
« وهكذا سيقع كل الكفار والمعتدين على أمر الرب ، ولكن الرب سيرفعهم كما
رفعتك بعد سقوطك ، إذا ندموا على أعمالهم الشريرة واستغاثوا بالرب أكثر من
ذلك ، فطالما عرّك على الحصيرة ، فإن الرب سيرفع ويمحو ذنوب من يستغيثون
به ، ولكن أخبرنى ، كيف يدبر الجيش أمره ؟ » .

وأجاب بطرس بارثولوميو : « بالتأكيد لقد أثارت المجاعة قلقهم وهم فى
تعاسة بالغة » .

وهنا انفجر القديس بطرس قائلاً : « إن من تركوا الرب وراء ظهورهم لا يد
أن يخافوا ، لأنهم نسوا الأخطار التى أنقذهم الرب منها . ولم يقدموا له الشكر .
ولكنك ناديت الرب عندما كنت راكعاً ، وعند أنطاكية ، حتى أننا سمعناك فى
السماء . لقد سمعك الرب ، وقدم لك حريته كدليل انتصار لك ، ومنحك انتصاراً
رائعاً ومجيداً على المحاصرين وعلى كربوغا . لقد أذيت الرب كثيراً ، والآن ، أى
رب تؤمن به أنت نفسك لكى تأمن على نفسك ؟ هل تستطيع الجبال الشاهقة أو

المغارات الخفية أن تحميك ؟ إنك لا تستطيع أن تكون فى مأمن حتى فى أشد المرتفعات منعة ومنعك كل ضروراتك ، لأن مائة ألف خصم سيهددون كل واحد منكم . ففى صفوفكم القتل والنهب والسرقة فضلا عن انعدام العدالة . كما أن هناك زنا ، وإن كان مما يسعد الرب أن تتزوجوا . وفيما يختص بالعدالة فإن الرب يأمر بأن تكون كل السلع ، الموجودة فى مسكن الشخص الظالم المستبد بالفقراء ، ملكية عامة . وإن تؤدوا عشوركم ، فإن الرب على استعداد لأن يعطيكم ما تحتاجون ، لكنه سيعطيكم معرة النعمان بسبب رحمته لا لأعمالكم . فحاصروها فى أى وقت تشاءون ، وافعلوا ذلك لأنكم بدون شك ستأخذونها .

وبعد أن سمع الكونت بهذه الأحداث فى الصباح التالى ، استدعى هو وأسقف أورنج والباراة ، كل الناس إلى الاجتماع وتصدّق المؤمنون ، تحدوهم الآمال الكبيرة فى الاستيلاء على المدينة ، بسخاء وقدموا الصلوات للرب القدير ، ليحرر شعبه المسكين من أجل اسمه فقط . وعند إكمال هذه الاستعدادات الروحية ، صنعت السلالم بسرعة ، وأقيم برج خشبى ، ووضعت الحواجز ، وعند نهاية اليوم ، بدأ الهجوم ، وأطلق المحاصرون فى معرة النعمان الأحجار من المجانيق ، والنبال والنيران ، وخلايا النحل ، والجير ، على رجالنا الذين قوّضوا أسوارهم ، ولكن أحدا لم يصب تقريبا بفضل قدرة الرب ورحمته . ومن ناحية أخرى فإن الصليبيين هاجموا الأسوار بجراًة ، مستخدمين الصخور والسلالم فى هجوم استمر من طلوع الشمس حتى غروبها ، حقا لقد كان قتالا كبيرا لم يسترح فيه أحد ، ولم يشك أحد فى نتيجة الظافرة . وأخيراً ابتهل الجميع إلى الرب أن يكون رحيما بشعبه وينفذ وعود مبعوثيه .

وسلّمنا الرب الحاضر أبداً المدينة كما تنبأ مبعوثوه . وكان أول من اعتلى السور جوفيه أوف لاستورز ، ثم تبعه مسيحيون آخرون هاجموا التحصينات والأبراج ، إلا أن الليل أنهى القتال ومازالت بعض أبراج المدينة وأجزاء منها فى أيدي المسلمين (٩) . وتوقع الفرسان وقفة مقاومة أخيرة فى الصباح التالى ، فحرسوا الأسوار الخارجية للقضاء على أى شخص يحاول الهرب . ولكن بعض

الصليبيين ، ممن لم يعبأوا بحياتهم ، لأن الجوع جعلهم يحتقرون الحياة ، استمروا في مقاتلة أهل المعرة في جتح الظلام . وهكذا حصل الفقراء على نصيب الأسد من الغنيمة والبيوت في معرة النعمان ، ولم يبجد الفرسان الذين انتظروا حتى الصباح ليدخلوا ، إلا بقايا لا قيمة لها . في هذه الأثناء كان المسلمون يختبئون في كهوف تحت الأرض ، وبالفعل ولم يظهر منهم أحد في الشوارع . وسرق المسيحيون كل السلع التي كانت فوق الأرض ودفعهم الأمل في الحصول على ثروات المسلمين المخبأة تحت الأرض ، فأطلقوا الدخان على الأعداء لإخراجهم من كهوفهم باستخدام النار والأبخرة الكبريتية . وعندما خيَّب نهبهم للكهوف آمالهم عذبوا المسلمين الذين تصل إليهم أيديهم حتى الموت . ومر بعض رجالنا بتجربة إقتياد المسلمين في الشوارع على أمل معرفة أماكن الغنائم ، فكان أسراهم يقودونهم إلى الآبار ثم فجأة يلقون بأنفسهم في الآبار ليلقوا حتفهم ، مؤثرين الموت على كشف النقاب عن مكان المتاع المملوك لهم أو لغيرهم . ويسبب عنادهم لاقوا حتفهم جميعاً . وألقيت جثثهم في المستنقعات والمناطق الواقعة وراء الأسوار . وهكذا ، لم تقدم معرة النعمان الكثير للنهب (١٠) .

ورغم أن فرسان بوهيمند كانوا فاترى الهمة في تشديد الحصار ، فقد فازوا بعدد أكبر من الأبراج ، والخيول ، والأسرى ، وأدى ذلك إلى شعور بالاستياء بين النورمان والبروفنساليين . وأراد الرب في ذلك الوقت أن يرينا حدثاً معجزاً ، وكما ذكرت من قبل ، فرغم أننا شرحنا للناس قبل الاستيلاء على معرة النعمان الأوامر الرسولية لبطرس وأندرو ، إلا أن بوهيمند ورفاقه سخروا منا . والواقع أن بوهيمند وأتباعه النورمان كانوا يشكلون عقبة أكثر منهم عوناً ، وبالطبع ، فإن حاشية ريموند كانت ساخطة لأن النورمان استولوا على النصيب الأكبر من الغنائم . وفي النهاية اختلف السادة ، فقد أراد ريموند أن يعطى المدينة لأسقف البارة ، وتمسك بوهيمند ببعض الأبراج التي استولى عليها وحذر قائلاً : « إننى لن أتفق مع ريموند على أى شيء إلا إذا تنازل لى عن أبراج أنطاكية » .

وفي غمار هذا الاضطراب ، راح الفرسان والناس يسألون متى سيتفضل

الأمراء بالبده فى الزحف ، لأنه رغم أن الزحف قد بدأ منذ زمن طويل ، فإن كل يوم بدا كما لو كان بداية حملة صليبية جديدة ، لأن الهدف لم يتحقق بعد ، وأجاب بوهيمند بأنه لن يذهب قبل عيد الفصح ، وقد حل الآن ميلاد سيدنا المسيح ، وفقد الكثيرون الأمل ، وتحولوا راجعين بسبب ندرة الخيول وغياب جودفرى وهجرة الكثير من الفرسان إلى بولدوين حاكم الرها .

وأخيراً اجتمع أسقف البارة وبعض النبلاء بالفقراء وطلبوا العون من ريموند . وعندما انتهى الأسقف من عظته انحنى أمام الكونت الذى تلقى الحرية المقدسة وطلبوا منه والدموع تملاً أعينهم أن يجعل نفسه قائداً للجيش وسيداً عليه . كما قالوا أنه نظراً لما تسبغه عليه حيازته للحرية المقدسة من مزايا ، ولكونه محل إنعام الرب ، فإنه لن يخشى الاستمرار فى الرحلة فى أمان مع جمهور الفرنج . وإذا لم يستطع ريموند أن يفعل ذلك فإن عليه أن يسلم الحرية للجماهير . وسيواصل هؤلاء مسيرتهم إلى الأراضى المقدسة تحت قيادة الرب . وسائرهم الكونت وهو يخشى ألا يتبعه الأمراء المتغيبون ، الذين كانوا ينظرون إليه بعين الحسد ، إذا هو حدد يوم الرحيل .

ولماذا لا ننهى تلك القصة الكثيرة ؟ لقد تغلبت دموع الفقراء ، وحدد ريموند تاريخ الرحيل باليوم الخامس عشر ، بينما أعلن بوهيمند ، الذى أثار ذلك غضبه ، فى كل أرجاء المدينة أن تاريخ الرحيل هو اليوم الخامس أو السادس ، وعاد إلى أنطاكية بعد ذلك مباشرة . والتفت ريموند وأسقف البارة إلى تجهيز حامية ، وحددا عدد الأشخاص واختاراهم . وفى الوقت نفسه ، طلب الكونت من جودفرى والمتغيبين من معرة النعمان ، أن يتجمعوا فى مكان واحد ويقوموا بالاستعداد اللازم لاستئناف الرحلة . واجتمع الأمراء وعقدوا مؤقراً فى قلعة الراج التى تقع فى منتصف الطريق تقريباً بين أنطاكية ومعرة النعمان ، إلا أن الاجتماع لم يسفر عن شيء ، لأن القادة وكثير من حذوا حذوهم قدموا أسباباً لعدم استئناف الرحلة . ونتيجة لذلك عرض ريموند على جودفرى وروبرت النورماندى عشرة آلاف صولدى

لكل واحد ، وستة آلاف لروبرت كونت الفلاندر ، وخمسة آلاف لتانكرد ، ومبالغ مناسبة للآخرين ^(١١) .

فى هذه الأثناء ، وعند تلقى أنباء بأن ريموند خطط لوضع حامية فى معرة النعمان تضم فرسانا ومشاة من الجيش ، دار الكلام بين الفقراء : « إذن فهذه المسألة ! صراع فى أنطاكية ، وصراع فى معرة النعمان ! هل سيثور النزاع بين الأمراء ، وتدمر جيوش الرب فى كل بقعة يمتحنها الرب إياها ؟ لنضع حداً للصراع هنا ، ومن أجل أن يسود الهدوء بين القادة ، ويهدأ خاطر ريموند الذى يقلقه أن يضيع ذلك الجيش ، فهيا نقوض أسوارها » .

وهكذا ، أتى الجميع حتى المرضى والضعفاء ، وقد قاموا من فراشهم وساروا متكئين على العصي طوال الطريق حتى الأسوار . وكان الرجل الأعرج النحيل يدرج إلى الأمام وإلى الخلف ويدفع من السور أحجاراً فى حجم لايكاد ثلاثة ثيران أو أربعة يحزونها . وطاف أسقف البشارة وأصدقائه ريموند بالمدينة وهم يحذرونهم ويرجونهم الإمتناع عن مثل هذا التخريب . ولكن الرجال الذين كانوا يهرولون يغيصداً عن الأسوار ، ويختبئون عند اقتراب الحراس ، كانوا سرعان ما يستأنفون عملهم بمجرد ابتعاد هؤلاء ^(١٢) . أما المتخرفون والذين كانت تشغلهم أمور أخرى ، فقد كانوا يعملون ليلاً بحيث لم يكن هناك أى شخص يمنعهم الضعف أو المرض عن المساعدة فى ذلك الأسوار .

أصبح نقص الطعام حاداً إلى درجة أن المسيحيين كانوا يأكلون ، فى تلذذ ، جثث المسلمين المتعفنة ، التى كانوا قد ألقوا بها فى المستنقعات قبل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع . وأثار هذا المنظر اشمزاز الكثيرين من الصليبيين والغرباء ، ونتيجة لذلك ، فقد الكثيرون الأمل فى وصول تعزيزات فرنجية ، وقفلوا

عائدين ، كان رد فعل المسلمين والأتراك هو : « إن ذلك الجنس العنيد الذي لا يعرف الرحمة ولا يحركه الجوع أو السيف أو أى أخطار ولمدة عام ، عن أنطاكية ، يتلذذ باللحم البشرى ، لذا فإننا نسأل « من يستطيع أن يقاومهم ؟ » ونشر المسلمون قصصاً عن هذه الأعمال وغيرها من الأعمال التى تخلو من الإنسانية ، والتى ارتكبتها الصليبيون ، ولكننا لم نكن ندرك أن الرب قد جعل منا سبباً من أسباب الهلع ^(١٣) .

فى ذلك الوقت كان ريموند ، لدى عودته من معرة النعمان ، ساخطاً أشد السخط على أتباعه ، إلا أنه اعترف بالجميل للرب ، وأمر بتقويض أسس الأسوار عندما علم أن تهديدات أسقف البارة والقادة الآخرين وقوتهم لم تكن الرعاع عن عزيمتهم . ولكن نقص الطعام كان يزداد يوماً بعد يوم ، وأمرنا بإعطاء الصدقات ، والصلاة من أجل الرحلة ، لأن اليوم المحدد كان يقترب . فى هذه الأثناء تأثر كونت تولوز لغيبة القادة الكبار ، وأثر المجاعة فى إضعاف الرجال ، فأمر المسيحيين بأن يبحثوا عن الطعام فى أراضى المسلمين ، ووعد بأنه سيكون فى الطليعة مع فرسانه . ولكن بعض أتباعه الساخطين اشتكوا قائلين : « إذا كان كل ما لدينا أقل من ثلاثمائة فارس وحفنة من المشاة ، فهل نقسم قواتنا فيمضى البعض داخل أراضى المسلمين ، ويبقى البعض الآخر فى انقاض معرة النعمان بلا دفاع ؟ وأفاضوا فى الحديث عن عدم استقرار ريموند التمام .

ومع ذلك فقد سار الكونت فى النهاية ، وبالنسبة عن الفقراء إلى أراضى المسلمين ، واستولى على بعض الحصون والأسرى وقام بالكثير من أعمال النهب ، وعند عودته مبتهجاً ظافراً بعد أن قتل الكثيرين من المسلمين ، قتل الكفار ستة أو سبعة من قومنا . ومن الغريب جداً أن تلك الجثث كان بها صلبان على الكتف الأيمن ^(١٤) . وشعر الناظرون ومعهم ريموند براحة كبيرة لهذا المنظر ، وقدموا

الصلوات للرب القادر على كل شيء ، الذى تذكر فقراءه . وإقناع المتشككين الذين بقوا مع المتاع بالقرب من معرة النعمان ، حملوا معهم أحد الجرحى المصابين إصابة قاتلة ، ولكنه كان لا يزال يتنفس . وقد رأينا معجزة في هذا الرجل المسكين ، الذى كان قد مُزَّق ، حتى أن جسمه المطحون لم تكد توجد به بقعة تخفى روحه . ومع ذلك فقد عاش سبعة أو ثمانية أيام بدون طعام شاهدا طوال ذلك الوقت على أن يسوع الذى سيمضى إلى حكمه بكل تأكيد ، كان هو الرب خالق الصليب الذى كان يحمله على كتفه .

* * * * *

هوامش الفصل العاشر

(١) البارة Albara (al - Barah) مدينة تقع إلى الجنوب الغربي من أنطاكية . وقد كانت

حملة الفرنج عليها في ٢٥ سبتمبر ١٠٩٨ م انظر : Hagwmeyer, Chr., 316.

- وذكر ياقوت الحموي أن بالبارة حصنا وأنها ذات بساتين . انظر : ياقوت الحموي :

معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٦٥ . لذا لم تكن غارة الفرنج عليها أمرا عشوائيا . فهم

بدأوا استراتيجيتهم بفتح البلدان التي لا يستغرق فتحها وقتا طويلا . إلى جانب ما

ستوفره البارة وبساتينها من مؤن للجيش .

(الترجمة العربية) .

(٢) بطرس أوف ناربون Peter of Narbonne كان قسيسا في جيش ريموند . وقد رسمه

البطريك اليوناني لأنطاكية (حنا) ، أسقفا للبارة ، لكن بطرس كان على عداوة مع

رجال الدين اليونانيين .

- مع أن الفرنج لم يجرؤوا على تغييرات في هيئة الكنيسة في أنطاكية بينما كانوا في

انتظار الكسيس كومنين ليرد على دعوتهم له بالحضور إلى أنطاكية ، فقد بدأوا في

تعيين أساقفة لاتين في بلاد الشام . وكان تعيين ريموند لبطرس الناربوني هو أول هذه

المناسبات . ومنحه ريموند نصف المدينة وإقليمها . وكان تعيين بطرس تعيينا غير عادي

في حدود القانون الكنسي . ويبدو أن تعيينه كان لسبب سياسي واجتماعي أكثر منه

لسبب كنسي . ففي أواخر القرن الحادي عشر الميلادي / الخامس الهجري ، كان حكام

غرب أوروبا يعتمدون على خدمات رجال الكنيسة لتنفيذ عمل الحكومة العلمانية .

وفوضوا الأساقفة سلطات علمانية واسعة . ولكن الأساقفة اليونانيين لم يكن في

استطاعتهم تحمل مسئوليات علمانية من هذا القبيل ، لأنهم لم يألوا ذلك من قبل . فلم

تكن هناك حاجة بالعالم البيزنطي . لأن يقدم رجال الدين في عمل الحكومة ، لأن

الإمبراطورية البيزنطية كان لديها طبقة من الإداريين العلمانيين لم يكن هناك ما ينافيها

في غرب أوروبا . لذلك ، فبمجرد أن بدأ الصليبيون في فتح أقاليم الشام ، وفي إقامة

إدارة مشابهة للإدارة في غرب أوروبا ، فقد كانوا مضطرين إلى تعيين بعض الأساقفة

اللاتين لمساعدوا في أعمال الحكومة . ومن الواضح أن بطرس الناربوني قد قبل ليدبر

البارة نيابة عن كونت تولوز أكثر منه لأن يتعامل مع الاحتياجات الروحية لسكانها .

== لأن الحامية التي تركت في المدينة هي فقط التي كانت من المسيحيين اللاتين ، وكان
القس سيؤدى المهام الروحية بنجاح . انظر :

Hamilton, The Latin Church, p. 10.

(الترجمة العربية) .

(٣) يعتمد ريمونداجيل هنا قليلا عن الأحداث ليذكر أعمال بولدين . انظر :

Fulcher of Chartres, (ed. Hagenmeyer), pp. 209 - 243.

وإدعاءات بوهميند التي عبر عنها أتباعه (والتي سيذكرها المؤرخ بعد قليل) تقوم
على أن بوهميند قائد مقتدر وسيحى أنطاكية . والمناوشة التي قام بها جودفري حدثت
حوالي نهاية أكتوبر ٩٨ . م (Hagenmeyer, Chr. 320) . انظر :

William of Tyre, VII, 4.

(٤) تبين هذه الفقرة احترام ريموند للقسم الذي أداه في القسطنطينية . وكانت المناقشة في
أول نوفمبر ٩٨ . م . أما اجتماع الأمراء في كنيسة القديس بطرس فقد تم في ٥
نوفمبر ٩٨ . م . انظر : Hagenmeyer, Chr., 321 - 323.

- حتى رحيل الفرنج من أنطاكية في أواخر نوفمبر ٩٨ . م ، كانت كل تصرفات كونت
تولوز تدل على حرصه على مصالح بيزنطة وعلى القسم الذي أداه أمام الامبراطور
ألكسيس كومنين وعلى عهده له بأن تعود إلى بيزنطة كل أملاكها التي سبق وانتزعتها
منها السلاجقة . إلا أن ما قام به بعد ذلك وحتى استيلاء الفرنج على بيت المقدس
(يوليو ٩٩ . م) كان يدل على أنه بدأ يعمل لصالحه هو . ويرى المؤرخ اللاتيني
البرت دكس أن ريموند في نزاعه مع بوهميند حول ملكية أنطاكية كان يبغيها لنفسه ،
ولم يكن ذلك حرصا على مصالح الامبراطور البيزنطي . ويبدو أن ريموند ، في حقيقة
الأمر ، كان ينتظر مكافأته من ألكسيس . وعندما فشل في الاحتفاظ له بأنطاكية ،
وعندما خرج من الحملة على فلسطين خالي الوفاض بعد أن فشل في الحصول على
عرش بيت المقدس ، وبعد فشل جملة ١١ . م التي شارك فيها لصالح بيزنطة أيضا ،
وجد أنه لم يجن شيئا من نضاله من أجل بيزنطة ، فراح يعمل مرة أخرى على تأسيس
إمارة لنفسه في بلاد الشام . انظر :

Albert d'Aix, p. 434. CF. also, J. Hugh Hilland Laurita Hill, Raymond IV

== Cout of Toulouse, Passim.

= وعن موقف ريموند من أطماع بوهيمند في أنطاكية وعلاقته بالكسيس كومتين . انظر :
جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم ، ص ٢٤٤ وما بعدها .
(الترجمة العربية) .

(٥) أعلن كل من روبرت كونت الفلاتندز وجود فرى أنهما لا يرغبان في العداء المكشوف مع
الكسيس .

(٦) يقدم لنا ريمونداجيل ، مرة أخرى ، الآراء غير العملية لصغار رجال الدين والفرنج . انظر :
Walter Porges, The Clergy, the Poor, and the Non - Combatant on the
First Crusade, in Speculum, 21, 1946, pp. 21 - 23.

(٧) تقع معرة النعمان إلى الجنوب الشرقي للباوة وأنطاكية . وقد رحل الصليبيون من البارة
في ٢٣ نوفمبر ١٠٩٨ م . وحاصروا المدينة في ٢٨ نوفمبر . وفي اليوم التالي ساعدتهم
بوهيمند في محاولة عقبة لدخول المدينة . انظر :
Hagenmeyer, Chr., 324, 325, 327.

(٨) كان وصف ريمونداجيل لعملية جمع بقايا الحصاد في الحقول وصفا إنشائيا ممتازا . وعلى
أية حال ، فقد تهكم رادولف أوف كان ، الذي كان لايميل إلى البروفنساليين ، قائلا أنهم
« عاشوا على الكفاف ، وعرفوا بأكل جذور النباتات » . انظر :
Radulphus Cadomenis, Gesta Tancredi in expeditione Hierosolymitana,
RCH - H. Qcc, 3, p. 651.

(٩) جوفيه لاستورز Gouffier of Lastours هو لورد لاستورز بالقرب من نكسون Nexon
(أعالي فيينا) . وموطنه الأصلي ليموزين Limousin . انظر :
Notitiae duae Lemovicenses de praedicatione crucis in Aquitania, RHC - H.
Occ., 5, p. 351.

وقد سقطت معرة النعمان في أيدي الصليبيين في ١١ ديسمبر ١٠٩٨ م / ٩ محرم
٤٩٢ هـ .

(١٠) جاء سرد ريمونداجيل لرواية ذبح سكان المعرة وصفيها ، ويبدو أنه خال من الاشارات التي
ترد في الكتب الدينية .

= - لقد أبدى سكان معرة النعمان مقاومة وبأساً شديدين أمام الهجوم الصليبي على مدينتهم . إلا أن رواية ريمونداجيل تركزت على إبراز جهد الفرنج في دخول المدينة . وهي عاداته في وصف المعارك بين المسلمين والصليبيين ، وإن كان هو يغالى في ذلك عن غيره من مؤرخي الحملة الأولى . وهنا يفتقد القارىء أسلوب مؤرخ نموذجي مثل وليم الصوري ، ويشعر بأهمية وقيمة رواياته . فلم ير وليم الصوري غضاضة في إبراز بطولات المسلمين وانتصاراتهم على الفرنج في كثير من المعارك . بينما كانت روايات غيره من المؤرخين اللاتين تقتصر على عدة أسطر فقط إذا ما كان النصر في المعركة التي يتحدثون عنها من نصيب المسلمين . وعلى أية حال . فقد عمد ريمونداجيل هنا أيضا إلى إغفال الوعد الذي منحه الفرنج لسكان المعرة بالأمان إذا ما أقبلوا عن المقاومة ، وغدروا بهم ، ولم ينفوا بشيء مما قرروه ، ونهبوا ما وجدوه ، وطالبوا الناس بما لا طاقة لهم به . انظر : ابن القلاسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٦ . ونلمس شدة المقاومة الإسلامية في معرة النعمان من وصف رادولف أوف كان للمعركة . انظر :

Radulph of Caen, p. 679.

وقدر ابن الأثير عدد قتلى المسلمين بمائة ألف قتيل ، بينما قدره ابن العديم بعشرين ألف رجل وامرأة وصبي . انظر : ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ١١٥ ، ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ١٤٢ . وأحجم المؤرخون اللاتين عن تحديد عدد ضحايا المسلمين .
(الترجمة العربية) .

(١١) من المحتمل أن تكون المفاوضات الأولية بين بوهيمند وكونت تولوز قد تمت في ٢٩ ديسمبر ١٠٩٨ م ، وكان رحيل ريموند عن المعرة في ١٣ يناير ١٠٩٩ م . وكان اجتماع الفرنج في قلعة الروج في ٤ يناير ١٠٩٩ . وبعد فشل الاجتماع الذي عقد لتهدئة بوهيمند ، عاد القادة النورمان إلى أنطاكية . ويعتقد رنسيما أن عرض كونت تولوز كان مجرد رشوة . ويرى جروسبه أن ريموند طمع في بيت المقدس في ذلك الوقت ، ورغب في نيل المساعدة من زملائه الفرنج . ونعتقد أن العرض قد قبل وأن التباين في المبالغ التي عرضها ريموند على القادة تعبر عن أهلية القادة . ومازال نوعا النقود التي استخدمها كونت تولوز موجودين . أحدهما الملبجورين Melgorien الذي سكه كونتات مبلجويل Melgueil . والثاني هو عملة سان جيل التي أدعى أن الذي أصدرها هو =

= رموند الخامس . وكان الحصان الجيد يساوى مائتى ميلجورين أو حوالى أربعة ماركات
(جنبهان من الفضة) . انظر :

Jean Pierre Papon, Histoire générale de Provence, Paris, 18778, 2, pp.
538, 541, 551, 552. Cf. also Mirelle Castaing - Sicard, Monnaies féodales
et Circulation monétaire en Languedoc (Xe - XIIIe siècles), cahiers de
l'association Marc Bloch de Toulouse, etudes d'Histoire méridionale
(Toulouse, 1961), 4.

ويخصص التواريخ المذكورة . انظر : Hagenmeyer, Chr., 334 - 335, 339.

(١٢) استعمال كلمة ناهضين (من فراشهم) surgentes لوصف قيام الموضى والضعفاء يشير
إلى التجيل متى (٩ : ٦ - ٨) . ومن المحتمل أن المؤرخ اقتبس هذا الوصف من كتاب
خدمة القداس . انظر :

Rituale Ecclesiae Dunelmensis, ed. J. Stevenson, surtees society, London,
1839, 10, p. 37., Rabanus Maurus, On Ezechiel, MPL, 110, Col. 872.

ومن المفروض أن تدمير معرة النعمان كان فى ٥ يناير ٩٩٠ م ، أو بعد ذلك بقليل .
أنظر : Hagenmeyer, Chr., 336.

(١٣) لم يكن خبر أكل لحوم البشر خبراً فريداً هنا . وفى أنشودة أنطاكية نجد من يجلس من
الفرنج (يدعى تافور Tafurs) ليشرى لحم موتى المسلمين . انظر :

L.A.M. Sumberg, The Tafurs and the First Crusade, MS, 21, 1959;
La Chanson d'Antioche, ed. Paulin Paris, 1842, 2, pp. 5 - 6.

(١٤) تعكس رواية المؤلف عن جثث الصليبيين المشوهة رغبته لإظهار علامة الصليب . وهناك
روايات قديمة عن رجال عليهم علامة الصليب . فهناك رواية فى الحرب الميقابية التى
تؤكد وجود (هبات الآلهة المعبودة) donariis idolorum التى تدل على أن الجثث كان
عليها علامات . انظر : Maccabees, 11, 12 : 38 - 41.

الفصل الحادى عشر

استئناف الزحف وبداية حصار عرقة

تشجع الباحثون عن الطعام بحسن طالعهم وإشارات الصليب الطيبة ، فتركوا غنيمتهم عند كفر طاب على مسيرة أربعة فراسخ من معرة النعمان ^(١) ، وعاد مع ريموند من كان لهم أصدقاء فى معرة النعمان . وفى اليوم المحدد ، رحل الكونت وكهنته وأسقف البارة ، وساروا حفاة الأقدام يطلبون رحمة الرب وحماية القديسين ، بينما راح اللهب الذى أشعله المسيحيون يعلو أنقاض معرة النعمان ، وفى المؤخرة ، سار تاتكرد مع أربعين فارساً وكثير من المشاة . وعندما سمح حكام المناطق القريبة أنباء استئناف الحملة الصليبية ، أرسلوا نبلاء العرب إلى ريموند بالالتماسات والعروض الكثيرة والوعود بالاستسلام فى المستقبل ، بالإضافة إلى السلع التى يمكن ابتياعها أو الحصول عليها مجاناً ^(٢) .

واصلنا سيرنا فى أمان معتمدين على وعودهم وتسليمهم رهائن لنا كضمان . ولكننا نعتقد أن الأدلاء الذين أرسلهم لنا حاكم شيزر ^(٣) أساءوا إرشادنا فى اليوم الأول لأننا كنا فى حاجة إلى كل شىء ، باستثناء الماء ، عند موقع المعسكر ، ولكن فى اليوم التالى ، قادنا نفس الأدلاء خطأ إلى واد جُمعت فيه ماشية الحاكم وكل المناطق المجاورة ، بسبب الخوف الذى أشعرناهم به . كان حاكم شيزر يدرك منذ زمن طويل اعتزامنا الزحف ، فأمر المسلمين بالهرب . ومع ذلك ، فلو أنه أمر الإقليم كله بوقف زحفنا ما استطاعوا ذلك ، لأننا أيضاً كانت لدينا معلوماتنا ، وفى ذلك اليوم قام ريموند أوف إيل ورفيق له بأسر رسول الملك ومعه رسائل تحث كل المواطنين على الهرب ^(٤) . وعند سماع الملك خبر أسر رسوله قال : « يارجالى ، بدلا من الهروب بسرعة أمام الفرنجة كما أمرت ، تقدموا إليهم ، ولما كان الرب قد اختار هذا الجنس فلن أقف فى طريق رغباتهم » . ثم بارك هذا الحاكم الرب الذى يرزق من يخشونه بحاجاتهم .

وكان منظر هذا القطيع الضخم غير المتوقع من الماشية ، ثم الاستيلاء

عليه ، سبياً فى أن فرساننا وميسورى الحال من الناس ، ذهبوا إلى شيزر وحمص ، بأموالهم لشراء الخيول العربية متعللين بأنه : « لما كان الرب قد تولى أمر إطعامنا ، فلنتول نحن أمر الفقراء والجيش » . وهكذا حصلنا على نحو ألف من أفضل جياد الحرب ^(٥) ، ويوما بعد يوم ، استرد الفقراء صحتهم ، وأصبح الفرسان أكثر قوة ، وبدأ أن الجيش يزداد عدداً . وكلما زحفنا قدما زادت أنعم الرب علينا . ورغم توفر المئون فقد حاول البعض إقناع ريموند بالتوقف عن الزحف قليلاً ، للاستيلاء على جبلة Gibellum ، وهى مدينة ساحلية ^(٦) . إلا أن تانكره وبعض الرجال الشجعان الطيبين الآخرين ، حاولوا دوين ذلك قائلين : « لقد زار الرب الفقراء وزارنا ، فهل يجب علينا لذلك أن نتحول عن الرحلة ؟ . أما كفتنا الصعوبات السابقة التى صادفتنا فى معركة أنطاكية ، والبرد والجوع ، وكل ما عاتيناه من البؤس الاتسانى ؟ لماذا يكون علينا وحدنا أن نحارب العالم كله ؟ فكروا قليلاً . فمن بين مائة ألف فارس لم يكذب بقى إلا أقل من ألف ، ومن بين مائتى ألف من الرجال المسلحين ، لم يتبق للمقاتل إلا أقل من خمسة آلاف . هل سنظل نتلكأ حتى تتم تصفيتنا جميعاً ؟ هل سيأتى المسيحيون من الغرب إذا سمعوا عن سقوط أنطاكية وجبلة وغيرها من المدن الإسلامية الأخرى ؟ لا . ولكن لنزحف إلى بيت المقدس المدينة التى نسعى إليها ، ومن المؤكد أن الرب سيسلمها لنا ، وعند ذلك فقط فإن المدن الأخرى التى تقع فى طريقنا مثل جبلة وطرابلس وصور وعكا سيجلو عنها سكانها خوفاً من موجة الصليبيين الجديدة القادمة من العالم المسيحى » ^(٧) .

وفى نفس الوقت ، كان الأتراك والعرب الذين كمنوا فى المؤخرة ، يقتلون الفقراء الضعفاء ويسطون على أمتعتهم . وبعد حادثتين من هذا النوع كمن الكونت فى كمين بينما مر الصليبيون . ومن ناحية أخرى اندفع المسلمون الذين لم ينالوا عقاباً ، والذين كان يحدوهم الأمل فى الغنائم ، من خلف جيشنا كما فعلوا من قبل ، لكنهم فى هذه المرة عندما مروا بخيولهم أمام الكمين ، اندفع ريموند وفرسانه مهاجمين إياهم فأوقعوا الخيل فى صفوفهم ، وقتلوهم وعادوا سعداء إلى

بقية الجيش بخيولهم . وبعد هذه التجربة سار ريموند وعدد كبير من الفرسان المسلحين لحراسة المؤخرة . وهكذا ترقف الأعداء عن اصطبياد الفقراء ^(٨) . وفضلاً عن هذا الإحتياط ، فقد سار فرسان مسلحون آخرون مع كونت نورماندى ، وتانكرد وأسقف البارة ، فى الطليعة ، بحيث لا يستطيع العدو أن ينالنا من الأمام أو من الخلف .

وجدير بالذكر أن أسقف البارة ترك حامية من سبعة فرسان وثلاثين من المشاة تحت إمرة وليام ابن بطرس أوف كونيلىكوم ، فى البارة ، وبناء على نصيحة الكونت ، الذى كان يريد زيادة عدد الفرسان الذين كانوا يزحفون من معرة النعمان إلى بيت المقدس ، انضم إلى الجيش الصليبي . واستطاع وليام ، وهو رجل مؤمن مخلص ، فى وقت قصير ، ويعون من الرب أن يجعل اهتمام الأسقف يزداد عشرة أضعاف ، وبدلاً من ثلاثين من رجال المشاة أصبح لديه سبعون وأيضاً ستون أو أكثر من الفرسان .

ووافقنا فى الإجتماع على التحول عن دمشق والزحف إلى ساحل البحر لأنه كان يمكننا الإلتجاء مع قبرص والجزر الأخرى إذا انضمت إلينا سفننا من أنطاكية ^(٩) . وعندما سلكننا هذا الطريق وجدنا أن الوطنيين هجروا مدنهم وتحصيناتهم ومزارعهم ذات المخازن المستلثة . ثم وصلنا إلى واد خصب جداً بعد أن قمنا بالالتفاف حول جبال عظيمة ، لنجد بعض المزارعين مزهوين بأعدادهم وقلعة منيعة ^(١٠) . وهكذا فإنهم لم يُبدوا نوايا سلمية ، ولا إشارة إلى أنهم سيتخلون عن قلعتهم . على العكس من ذلك ، فإنهم اندفعوا من أعلى جبلهم وهاجموا بعض الأتباع المسلحين والرجالة الذين كانوا يبحثون عن الكلاء هنا وهناك وسط الحقول ، وقتلوا عدداً منهم ، وحملوا الغنائم إلى قلعتهم . وسار رجالنا الذين أغضبهم ذلك إلى سفح الجبل ، الذى بُنيت عليه القلعة . ولكن الوطنيين لم ينزلوا لملاقائنا ، وبعد انعقاد مجلس حرب ، شكّل فرساننا ومشاتنا صفوفاً ، وتسلقوا الجبل من ثلاث جوانب ودحروا المزارعين ، وكان ثلاثون ألفاً من المسلمين يحتلون

القلعة مما أتاح لهم ، بالإضافة إلى الموقع ، الفرصة للهروب إلى الحصن أو أعلى المنحدرات ، لذلك ، أعاقونا لفترة .

ولكن عندما صحننا صيحة الحرب « ساعدنا يارب ، ساعدنا يارب ! » مات حوالي مائة من المسلمين الذين دب في قلوبهم الرعب ، إما لخوفهم الشديد ، أو لضغط زملائهم عند أبواب القلعة ، وبالطبع . فقد جرى خارج السور حيث كنا نحارب ، نهب شديد للماشية والخيول والأغنام ^(١١) . وبينما كان الكونت وفرسانه يجدون في القتال ، طمع الوضعاء منا في الغنائم وبدأ الفقراء ، الواسد بعد الآخر ، ثم المشاة الفقراء ، وأخيرا الفرسان الفقراء ، يتركون ميدان المعركة ليعودوا إلى خيامهم على بعد نحو عشرة أميال .

وفي الوقت نفسه ، أمر ريموند فرسانه ورجاله بأن يتخذوا مواقعهم ، ولكن المسلمين ، اللذين نزلوا من أعلى الجبل ، مع من كانوا في القلعة ، رأوا صفوف الصليبيين وقد بدأت تخلو من المقاتلين ، فبدأوا ينظمون صفوفهم المفككة تعزيزا لقوتهم ، ولم يتنبه ريموند إلى هذه الاستراتيجية ، وفقد الاتصال تقريبا بفرسانه ، على ممر صحراوي شديد الانحدار مشته فيه الخيول في طابور فردي . وفي مواجهة هذا الخطر ، تظاهر بالتقدم برجالهم كما لو كان سيهاجم الهابطين من أعلى الجبل ، وفي اللحظة الفاصلة التي تردد فيها المسلمون ، استدار الصليبيون وتحولوا إلى المنطقة الآمنة ظاهريا في الوادي ، وعندما رأت كتبتنا الأعداء هذه الخدعة ، وكانت إحداها على الجبل ، والأخرى في القلعة وشاهدونا نهبط من الجبل ، ضموا قواتهم واندفعوا مهاجمين رجال الكونت ، وتحت وطأة الهجوم ، وقع بعض الصليبيين من على خيولهم ، بينما اندفع آخرون فسقطوا عبر أماكن منحدرية ، وهكذا أفلتوا من الموت بأعجوبة ، ولكن البعض ماتوا ميتة بطولية .

وبالتأكيد ، فإن ريموند لم يتعرض أبدا لمثل هذا الخطر الذي كاد أن يفقده حياته ، وهكذا فإنه حنق على نفسه ، وعلى قواته إلى درجة أنه عند عودته إلى الجيش اتهم فرسانه في المجلس بالتخلي عن المعركة بدون إذن وتعريض حياته

للخطر . وهنا اقسام الجميع على استمرار الحصار حتى يجعلوا القلعة دكاً ببركة من الرب ، ولكن الرب مرشد المسيحيين وحاميهم من كل الكوارث ، ألقى الرعب فى قلوب المدافعين ، حتى أنهم فى تعجلهم الفرار ، تركوا موتاهم بدون أن يدفنوهم . وفى الصباح لم يكن فى انتظارنا إلا غنائم الحرب وقلعة يسكنها الأشباح .

وتأثر مبعوثو أمير حمص^(١٢) وملك طرابلس ، الذين كانوا فى المعسكر فى ذلك الوقت ، بمنظر شجاعتنا وقوتنا ، حتى أنهم توسلوا إلى ريموند أن ينصرفوا على وعد بالعودة سريعاً . وبعد رحيلهم بفترة قصيرة مع مبعوثينا ، عادوا بهدايا فخمة وخيول كثيرة . وكان ذلك يسبب الخوف الذى سيطر على المنطقة كلها بعد استيلائنا على القلعة التى لم يكن أحد يستطيع اختراقها من قبل . فضلاً عن ذلك ، فإن سكان الإقليم بعثوا برسالة إلى ريموند مع هدايا والتماسات يطلبون منه أن يرسل راياته وأختامه حتى يتسلم مدنتهم وقلاعهم . وأذكر أنه كانت هناك عادة فى جيشنا تقتضى باحترام راية أى إفرنجى وعدم الهجوم بعد ذلك . وهكذا وضع ملك طرابلس رايات الكونت على قلاعه .

ونتيجة لهذا التحول بدا أن شهرة كونت تولوز لم تكن تفوقها شهرة أى قائد قبل ذلك . وفى رحلة فرساننا إلى طرابلس بصفتهم مبعوثين ، انبهروا من الشراء الملكى والممتلكات الغنية والمدينة المزدهمة بالسكان . لذلك فإنهم أقنعوا ريموند بأن ملك طرابلس سوف يمنحه خلال أربعة أو خمسة أيام الذهب والفضة بما تقر به عينه ، إذا حاصر عرقة . وهى موقع يتمتع بدفاع قوى ولا يمكن أن تتغلب عليه القوة البشرية . وبناء على رغباتهم ، حاصرنا عرقة فجعلنا رجالاً شجعاناً يعانون متاعب لم يعرفها أحد . ويحزننى أن أقول أننا تحملنا خسائر فادحة منها الكثير من الفرسان البارزين وقد مات أحد هؤلاء الفرسان هو بونز أوف بالازون بسبب صخرة أطلقت عليه من مقذاف للحجارة ، وكانت توصلاته هى التى جعلتنى أواصل هذا العمل الذى تجشمت عنه ، كتابته لكل مستقيم العقيدة ، خاصة من يعيشون عبر جبال الألب ، ومن أجلك أنت ، يا أسقف فيفييه المبجل .

وسأحرص بوحى الرب الذى هو الصانع الحقيقى لهذه الأحداث ، على أن أكمل بقية روايتى بنفس الحب الذى بدأت به داعيا وراجيا أن يثق كل من سيسمع هذه الأشياء فى حقيقتها وليثقلنى الرب بأهوال الجحيم ، ويمحو اسمى من سجل الأحياء ، إذا أضفت - بدافع من التحمس أو الكراهية لأي شخص - أى شيء إلى هذا الكتاب ، غير ماصدّقه أو رأيته ^(١٣) . ورغم جهلى بأشياء كثيرة فإننى أعرف أنه من واجبى - منذ تقدمت إلى الكهنوت على صليب الرب - أن أطيع الرب وأحكى الحق ولا ألقّ الكاذب . وأود أن أستمّر بنفس الود وبنفس المحبة فى سرد تاريخى كما حثّ بولس على ذلك عندما قال أن « المحبة لاتسقط أبداً » وليساعدنى الرب ^(١٤) .

أثناء الحصار المطول كانت سفنتا القادمة من أنطاكية واللاذقية مع السفن اليونانية وسفن البنادقة ترسو وبها حبوب ، ونبيد ، وشعير ، ولحم خنزير ، وسلع أخرى يمكن تسويقها ، ومع ذلك ، فإن البحارة سرعان ما أبحروا عائدين إلى موانئ اللاذقية وطرسوس ، نظراً لأن عرقة كانت تقع على بعد ميل من البحر ولم تجد السفن مكاناً ترسو فيه ^(١٥) . وكان المسلمون قد هجروا - قبل حصار عرقة - طرسوس ، وهى مدينة جيدة التحصين بأسوار داخلية وخارجية ، كما كان بها قدر كبير من المؤن . وقد تركوها بسبب الخوف الذى بثّه الرب فى قلوب المسلمين والعرب فى هذه المنطقة ، وهو خوف جعلهم يعتقدون أننا كنا نتمتع بقوة كبيرة ونعتزم تدمير بلادهم بلا رحمة .

ومع ذلك فإن الرب ، الذى لم يشأ أن يساعدنا فى حصار قمنا به فى سبيل مصالح ظالمة وليس فى سبيله ، أمطرنا بكل أنواع المصائب . ومن الغريب ، أن المسيحيين الذين كانوا يتشوّقون من قبل إلى المعارك ويستعدون لها ، أصبحوا الآن لايميلون إلى القتال ولا يتمتعون بالحياة ، وسار جنود المسيح الملهمين الذين حاولوا عمل كل شيء ، إما جرحى أو وجدوا أن لا طائل من وراء جهودهم .

وفى حصار عرقة مات أنسلم أوف ريمونت ميتة مجيدة ^(١٦) ، فقد

استيقظ ذات صباح واستدعى الكهنة إليه واعترف بزلأته وآثامه ، وطلب الرحمة من الرب ، وأخبر بأنه على وشك الموت . وبينما وقفوا وقد صدمتهم هذه الأنباء حيث أن أنسلّم بدا سليماً معافياً هتف بهم ، لا تندهشوا واستمعوا لى : « ففى الليلة الماضية رأيت اللورد إنجلراند من سان بول ، والذي مات فى معركة النعمسان ، وسألته وأنا فى كامل وعيى : « ماذا يجرى هنا ؟ لقد مت والآن ها أنت حياً » (١٧) .

« ورد لورد إنجلراند : « إن الذين يموتون فى خدمة المسيح لا يموتون أبداً » .

فسألته مرة أخرى عن مصدر بهائه غير العادى ، وأجاب قائلاً : « ليس فى هذا ما يدهش ، حيث أننى أعيش فى دار جميلة » . وفى الحال أرانى بيتاً فى السماء جميلاً جداً لم أر ما يضارعه . وبينما وقفت مذهولاً بهذا المنظر ، قال لورد إنجلراند : « إن هناك بيتاً أجمل منه كثيراً يُعدّ لك غداً » . وبعد ذلك صعد .

بعد هذه الحكاية التى انتشرت على نطاق واسع ، تقدم أنسلّم فى نفس اليوم لقتال بعض المسلمين الذين تسللوا خارجين من قلعتهم ، على أمل أن يسرقوا شيئاً أو يصيبوا شخصاً . وفى الاشتباك الذى جرى ، قاتل أنسلّم بشجاعة ، إلا أنه أصيب فى رأسه بصخرة من منجانيق . فترك هذا العالم ليعيش فى بيته السماوى الذى أعده الرب .

بعد ذلك أتى إلى عرقة مبعوث من عند ملك بابلون (مصر) مع مبعوثينا الذين أطلق سراحهم والذين كانوا أسرى عنده لمدة عام . كان هذا الملك مازال متردداً بين اختيارنا أو اختيار الأتراك . فعرضنا على مبعوثه هذه الشروط : إذا هو ساعدنا فى بيت المقدس أو أعاد إلينا بيت المقدس وما يتبعها ، فإننا سنعيد إليه مدنه السابقة التى كان الأتراك قد انتزعوها منه ، فى حالة استيلائنا عليها . وبالإضافة إلى ذلك فإننا كنا سنقسم معه كل المدن التركية الأخرى التى لا تقع فى نطاق ممتلكاته ولكن يكون الاستيلاء عليها بمساعدته .

وسرت شائعة بأن الأتراك قد وعدوا ، بأنه إذا تحالف معهم ملك مصر ضدنا فإنهم سيعبدون علياً ، قريب محمد (صلى الله عليه وسلم) الذى كان يعبده ، وسيقبلون عملته ، ويدفعون له جزية ، ويوافقون على تنازلات أخرى غير معروفة لنا .

وعرف ملك مصر ، بسبب رسائل من ألكسيوس تضمنت معلومات عنا ووجدناها فى خيامه بعد معركة عسقلان ، أن جيشنا كان صغيراً ، وأن الإمبراطور كان يتآمر لتدميرنا . ولهذا - ولأسباب أخرى - احتجز مبعوثينا لمدة عام فى مصر . أما الآن ، فعندما وصلتته تقارير عن دخولنا أراضيه ، وما صحب ذلك من تدمير لقراه ، وحقوقه ، وكل شيء آخر ، أبلغنا أنه يمكن للمائتين أو ثلاثمائة منا أن يذهبوا كل مرة ويغير سلاح ، إلى بيت المقدس ، ويعودوا بعد عبادة الرب . وثقة منا فى رحمة الرب رفضنا العرض ، وأبلغناه أنه إذا لم يُعيد إلينا بيت المقدس بغير تحفظات ، فإننا سنزحف على مصر^(١٨) .

أذكركم أن الأمير الذى كان يحتل بيت المقدس فى ذلك الوقت ، لأنه عندما تلقى أخبار الكارثة التركية فى أنطاكية ، فقد حاصر بيت المقدس وهو يعرف أن الأتراك الذين كثيراً ما كانوا ينهزمون ويُبادون لن يحاربوه . وقد تسلم بيت المقدس بعد أن أعطى للمدافعين عنها هدايا عظيمة ، ثم قدم قرابين من الشموع والبخور عند القبر فوق جبل Calvary (الجبلجثة أو الجماجم) .

ولكن لنعد إلى حصار عرقة ، فكما قلنا ، فى غمار انشغال جيشنا هناك ، أتت أنباء بأن بابا Pope الأتراك (الخليفة العباسى) وقبائل كثيرة تتبعه ، لأنه كان من ذرية محمد (صلى الله عليه وسلم) ، كانوا فى طريقهم لقتالنا ، ووضع الجيش فى حالة تأهب للقتال . وتم إرسال أسقف البارة إلى جودفرى وكونت الفلاندر فى جبلة ، وهى حصن يطل على البحر ، فى منتصف الطريق بين عرقة وأنطاكية ، وعلى مسيرة يومين تقريباً من كل منهما . ولكن فى هذه الأثناء علمنا أن الأمر كان مجرد إشاعة زائفة روجها المسلمون ، ليرهبونا ، فينالوا راحة من الحصار^(١٩) . وبعد تجميع الجيوش ، راح رجال حاشية الكونت يتباهون

بخيولهم العربية وثرواتهم ، التي منحهم الرب إياها فى أراضى المسلمين ، لأنهم واجهوا الموت من أجله . ومع ذلك ، فقد كان هناك البعض ممن زعموا أنهم كانوا فى فقر مدقع .

وهكذا فبسبب العدد الكبير من الفقراء والضعفاء ، كان هناك حثٌ للفقراء على تقديم عُشر غنيمة الحرب . وكان التقسيم الذى سُمح به كما يلى : الربع للكهنة الذين يقيمون القداسات ، والربع للأسقف ، والنصف لبطرس الناسك ، الحارس المرخص له بحماية الفقراء ، ورجال الدين ، وعامة الناس . وأعطى بطرس بدوره من هذا المبلغ لرجال الدين وللعامة . وبالتالي فإن الرب ضاعف من عدد الخيول والجمال ولوازم الجيش الأخرى ، حتى أخذ العجب والدهشة من الصليبيين كل مأخذ . وكان هذا الرخاء المفاجئ سببا فى النزاع بين القادة وعجرتهم أيضا ، إلى درجة أن أشد المسيحيين إخلاصاً للرب ، تاقوا إلى الفقر وإلى أن يهددنا القتال الرهيب .

وعرض علينا ملك طرابلس خمسة عشر ألف قطعة من الذهب من أموال المسلمين ، فضلا عن الخيول والبغال والملابس الكثيرة ، بل والمزيد من هذه الهدايا فى السنوات التالية . ولكى نفهم معنى هذا العرض ، فإن قطعة ذهبية واحدة كانت تساوى ما بين ثمانية وتسعة من الصولدى . Solide . كانت الأموال المتداولة بيننا تشمل البيكتافانى (بواتو) والكارتيس (شارتر) والمانسيس (مانز) واللوكينسيس (لوكويس) ، والغالانزانى (فالنس) والميلجورينسيس (ملجويل) والبوجيزى (بويه) ، والإسمان الأخيران كانا يستخدمان بدلاً من الأسماء الأخرى . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن سيد جبلة خوفاً من حصار آخر ، أرسل إلى قادتنا ضريبة قدرها خمسة آلاف قطعة ذهبية ، وخيولاً ، وبغالاً ، وكمية وافرة من النبيذ (٢٠) .

وأصبحت لدينا مؤن كافية لأن الهدايا كانت ترسل إلينا من القلاع والمدن الأخرى غير جبلة ، وفضلا عن ذلك ، فإن بعض المسلمين ، بدافع من الخوف أو

التحمس لطريقتنا في الحياة ، تنصّروا . وسبب هذا الشراء الجديد ، أرسل كل واحد من أمرائنا الرسل بالرسائل إلى المدن الإسلامية يبلغها أنه هو سيد الصليبيين . هكذا كان سوء سلوك أمرائنا في ذلك الوقت ، وكان تانكرد من أكبر مشيرى الفتنة . وتذكرون أن تانكرد كان قد قبل خمسة آلاف صولدى ، وحصانين عربيين من سلاله ممتازة ، من ريموند ، مقابل خدماته أثناء الرحلة إلى بيت المقدس . لكنه الآن كان يريد أن ينضم إلى قوات جودفري . وهكذا دبّ النزاع بينه وبين ريموند ، وأخيراً تخلى تانكرد في خسة عن الكونت .

* * * * *

هوامش الفصل الحادى عشر

(١) « كفر طاب » بلدة صغيرة من جند حمص غربى حلب ، على الطريق بين معرة النعمان وشيزر . بينها وبين المعرة وشيزر إثنا عشر ميلا . انظر : القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ١٤ ج - القاهرة ١٩١٣ - ١٩٣٣ . ج ٤ ، ص ١٢٥ .
(الترجمة العربية) .

(٢) كانت حالة التفكك على الجبهة الاسلاميه أقوى من أن يتحرك حكام الشرق الأدنى الاسلامى متضافرين لمواجهة الغزو الصليبي للمنطقة ، أو أن تحركهم المقاومة الباسلة التى أبدوها أهل البارة ثم عرقة بعد ذلك ، للتصدى للفرنج . فأضطرت الأسرات العربية المحلية بالشام إلى إظهار الاستعداد لعقد اتفاقات مع الفرنج . فنجد أمراء حماة وحمص يتخلون عن فكرة مقاومة الصليبيين ، ونجد أمراء شيزر من بنى منقذ يمدون الفرنج بأدلاء يقدون الطريق إلى الساحل ، ثم أمراء طرابلس من بنى عمار ، يمدون الفرنج بالثون ، ويدفعون لهم تعويضات مالية ، ويطلقون أسرى الفرنج الذين كانوا فى طرابلس . وللمزيد عن رحلة الصليبيين ، التى تعتبر رواية رمونداجيل عنها هى أدق الروايات وأكثرها تفصيلا ، انظر : Gesta Francorum, pp. 72 - 87 .
وأىضا :

Albert d'Aix, pp. 453 - 463; Radulf of Caen, pp. 680 ff; Tudebod, De Hierosoly mitano Itinere, RHC - H. Occ., III, pp. 210 - 212.

راجع أيضا: ابن الأثير : الكامل ، ج ١ ، ص ١١٥ - ١١٧ ، ابن القلائسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .
(الترجمة العربية) .

(٣) من المحتمل أن رحيل كونت تولوز إلى كفر طاب كان فى ٨ يناير ١٠٩٩ م . وتقع قلعة شيزر جنوبى معرة النعمان . وفى ذلك الوقت كان يحكم فيها أسرة بنى منقذ وكان أميرها هو عز الدين أبو العساكر سلطان . انظر :

René Grousset, Histoire des Croisades et du royaume franc de Jérusalem, Paris, 1934, 1, p. 126; Hagenmeyer, Chr., 338, 341.

(٤) رموند أوف إل Raymond of Iale . لم يكن من السهل التعرف على شخصية هذا الصليبي . ومن المحتمل أن يكون من إقليم Isle Jourdain . فقد رافق كونت تولوز =

= عدد من فرسان هذه المنطقة . ونعرف أن هناك من يدعى برمود برتراند Raymond Bertrand من هذا الاقليم مع البروفنساليين . انظر :
Histoire generale de Languedoc, 3, p. 494.

(٥) كامبلا Camela هو الاسم اللاتيني القديم لإميسا Emessa وهي حمص Homs الحالية
انظر :

Anonymi Gesta Francorum et aliorum Hierosolimitanorum, ed. H. Hagen-
meyer, Heidelberg, 1890, p. xxxiv, 10, n. 43.

(٦) وجبيللوم Gibellum هي جبل Jabala القديمة . وهي ميناء يقع بالقرب من اللاذقية
وأنطوطوس . وقد عقبنا على حديث المؤرخ في كتابنا : Raymond IV, pp. 113-115
ولا نولي روايته الثقة الكاملة .
- وجبل « قلعة على الساحل الشامي بينها وبين اللاذقية اثنا عشر ميلا من جهة
الجنوب ، وبينها وبين أنطاكية ثمانية وأربعون ميلا » . انظر : القلقشندي : صبح
الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٤٨ - ١٤٩ .
(الترجمة العربية) .

(٧) عكا مدينة ساحلية قديمة (Ptolemais) . وصور مدينة ساحلية في بلاد الشام (Sur)
وعن طرابلس ، انظر مايتقدم ، فصل ١٣ ، حاشية رقم (١) .

(٨) وصف المؤلف لهذا الكمين مطابق تماماً لروايته عن الكمين السابق الذي نصبه البجناك .
انظر ما سبق ص ٦٩ .

(٩) كان يحكم في دمشق في ذلك الوقت دقاق ابن تتش السلجوقي شقيق رضوان ملك
حلب . انظر :

Harold Fink, The role of Damascus in the History of the Crusades, in M.W.,
49, 1, 1959.

وكان وليم أوف كونيلياكوم William of Cuniliacum شخصاً مغموراً غير معروف .
ويشير HGL, 3, p. 523 إلى فارس من كوملياك Cumliac أو كينلياك Ciniliac .

(١٠) هذه القلعة هي كرك الفرسان krak des Chevaliers أو حصن الأكراد . ولا تزال هذه
القلعة قائمة في سوريا ، وهي إحدى أشهر الآثار الصليبية . انظر :

René Dussaud, Topographie Historique de la Syrie antique et médiévale, =
Paris, 1927, p. 92; Paul Deschamps, Les Chateaux des croisés en Terre
Sainte : Le Crac des Chevaliers, Paris, 1934, pp. 113 - 115.

وكانت الإغارة والاستيلاء على القلعة في ٢٨ - ٢٩ يناير ١٠٩٩ م .

(١١) « ساعدنا يارب » تعبير مقتبس . انظر : Breviarium, Verna, p. 231.

(١٢) كان أمير حمص في ذلك الوقت هو جناح الدولة خلف بن ملاعب الذي عينه صاحب حلب
شرف الدولة مسلم العقيلي والياً على حمص في ١٠٨٢ م / ٤٧٥ هـ ، ليكون بمثابة
حاجز بينه وبين تاج الدولة تتش السلجوقي . وبقى ابن ملاعب في حمص حتى اغتاله
الباطنية في عام ١١٠٦ م / ٤٩٤ هـ . انظر : ابن القلاسي : ذيل تاريخ دمشق ،
ص ١٣١ ، ١٥٠ ، ٣١٨ - ٣١٩ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ١ ، ص ١٧٠ ،
ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ١٢٢ .
(الترجمة العربية) .

(١٣) دعاء رمونداجيل بأن يحى اسمه من سجل الأحياء مقتبس من الزامير ومن سفر الخروج.
انظر : Psalm, 68 : 29, Exodus, 32 : 32.

(١٤) « المحبة لا تسقط أبداً » تعبير مقتبس من رسالة بولس الحواري الأولى إلى أهل كورنثة
والتي وردت في العهد الجديد . انظر : 1 Corinthians, 13 : 8.
وسنقوم بتعريف المدينة . والحكام بتسلسلهم وليس بأسلوب رمونداجيل في تقديم
الأحداث .

(١٥) اللاذقية مدينة ساحلية (Laodicea) . وانطرطوس Tortosa أيضا مدينة ساحلية في
بلاد الشام (Antaradus) . وعرة Arqah (Irqah) تتحكم في الطرق المؤدية إلى كل
من طرابلس واللاذقية وحمص . ومن الواضح أن المؤرخ لم يدرك الأهمية العسكرية لهذه
المدينة . وقد بدأ حصار الفرنج لعة في ١٤ فبراير ١٠٩٩ م . انظر :

Hagenmeyer, Chr., 352.

- يذكر القلقشندي أن اللاذقية « أجّل مدينة بالساحل منعة وعمارة ، ولها مينا
حسنة ، ومنها إلى أنطاكية ثمانية وأربعون ميلاً » ، بينما يذكر ياقوت الحموي أن
انطرطوس « مطلة على البحر في شرقي عرة بينهما ثمانية فراسخ ولها برجان حصينان
كالقلعتين » . وذكر ياقوت أيضا أن عرة « بلدة في شرقي طرابلس ، بينهما أربعة =

= فراسخ ، وهي آخر أعمال دمشق ، وفي سفح جبل ، بينها وبين البحر نحو ميل وعلى جبلها قلعة . انظر: القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٤٥ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٦٥٣ .
الترجمة العربية) .

(١٦) أنسلم أوف ريمونت Anselm of Ribemont هو راهب ريمونت ، وهو اقليم يقع في وادي أويز Oise بالقرب من سان كوينتن بفرنسا . وهو صاحب رسالتين شهيرتين تتعلقان بالحملة الصليبية الأولى . انظر :

Hagenmeyer, Epistolae, pp. 156 ff.

(١٧) لورد إنجلراند Lord Engelrand شخص لم يتم التعرف عليه ويستخدمه المؤرخ ليضيف إلى قصته لمسة واقعية . ويستخدم إقتباسات من القداس . وعلى سبيل المثال ، يسأل أنسلم لورد إنجلراند « ماذا يجري هنا ؟ لقد مت ، والآن ها أنت حيا » ولاشك أنه اقتبس هذا التعبير من سفر الرؤيا . انظر :

Apocalypsis Beati Joannis Apostoli, 1 : 18.

(١٨) عن البعثة الصليبية إلى القاهرة ، انظر حاشية رقم ٦ من الفصل الخامس . وفي ٢٦ أغسطس ١٠٩٨م قام الأفضل شاهنشاه (الوزير الفاطمي) بالاستيلاء على بيت المقدس من حكامها الأتراك سقمان وإبلغازي إبنى أوتق بعد الرفض الصليبي السابق لعرض الأفضل بتقسيم الشام وفلسطين بينه وبينهم . ويكشف المؤرخ هنا عن العداء بين الأتراك والفواطم .

- سبق أن ناقشنا القضية التي تتعلق بموقف الفواطم من الحملة الصليبية الأولى . انظر ماسبق ، الفصل الخامس ، حاشية رقم (٦) . أما عن رواية ريمونداجيل هنا ، فليس هناك ما يثبت حقيقتها . في الوقت الذي يتوفر لدينا ما يدفع إلى عدم الأخذ بها أو الاطمئنان إليها . فكل مايرويه ريمونداجيل لم يرد عند سواء من مؤرخي الحملة المعاصرين ، وخاصة مؤلف الجستا الذي لازم الحملة حتى بيت المقدس منفصلا عن سيده بوهيمند الذي بقي في أنطاكية . ولو كانت البعثة الفرنجية قد عادت إلى عرقة ، أو كانت السفارة الفاطمية أو مثيلتها التركية المشار إليهما في المتن قد وصلت بعروضيهما إلى المعسكر الصليبي عند عرقة لكان مؤلف الجستا ذكر ذلك ليؤكد روايته الأولى عن وجود السفارة الفاطمية خارج أنطاكية من قبل . وإذا كان ونسيमान يسرد رواية =

== رمونداجيل كاملة على أنها حقيقية ، وإذا كان رنسيمايان أيضا يحاول تأكيد رواية المؤرخ بتوثيقه إياها بكتاب وليم الصوري إلى جانب كتاب رمونداجيل ، فمن السهل الرد على ذلك بأن وليم الصوري نقل روايته عن رمونداجيل . وربما تقبيل حقيقة ما حدث في أن السفارة الفرنجية ربما تكون قد عادت بطلب الأفضل بعدم تعرض الفرنج لأملأه في فلسطين وخاصة بيت المقدس ، على أن يتمتع هؤلاء بحق الذهاب إلى المدينة مثل غيرهم من المسيحيين لأداء طقوس عبادتهم تسامحا من السلطات الإسلامية في مصر، الأمر الذي كان سائدا قبل وصول الفرنج إلى بلاد الشام . أما عن تواطؤ الامبراطور البيزنطي الذي أثبتت عشور الفرنج على مراسلاته للقواطم ، فإن المراسلات كانت تصل إلى القاهرة وليس إلى عسقلان . كما أنه من السهل الوقوف على نوايا المؤرخ ومحاولة إدانة الامبراطور البيزنطي بتهمة الخيانة منذ دخول الفرنج أراضي دولته . انظر :

Runciman, op. cit., Vol. 1, pp. 272 - 273.

(الترجمة العربية) .

(١٩) يشير رمونداجيل إلى خليفة بفسسداد على أنه البأها بالنسبة للأتراك . وكان الخليفة العباسي وقتذاك هو الخليفة المستظهر (١٠٩٤ - ١١١٨ م) . وكانت السلطة الفعلية في أيدي السلطان السلجوقي . وبتهم ألبرت دكس كونت تولوز بأنه تلقى رشوة من حاكم جبلة حتى يقوى كلا من كونت الفلاتدرز وجودفري بعدم التعرض للمدينة . ومن ناحية أخرى ، فقد أيد المؤرخون المسلمون رواية رمونداجيل حين ذكروا أن المسلمين أشاعوا ذلك . وليس هناك سبب قوي للشك في رواية المؤلف . وقد غادر جودفري وكونت الفلاتدرز جبلة في ١٢ مارس ١٠٩٩ م . انظر :

Hagenmeyer, Chr., 360.

Charles du Fresne du Cange, Moneta, Glossarium mediae et infimae (٢.)

Latinitatis, Niort, 1883 - 1887, 4, p. 527.

الفصل الثانى عشر رؤى ومحنة الحربة المقدسة

أُعلِنَتْ الآن رؤى كثيرة أرسلها إلينا الرب ، وسأحكى ، أنا مؤلف هذا الكتاب ، الرؤيا التالية تحت اسم الشخص الذى شهدا .

« فى عام ١٠٩٩ م ، فى الخامس من أبريل وبينما كنت أنا ، بطرس بارثولوميو ، أستريح فى مصلى الكونت ، أثناء حصار عرقة ، فكرت فى الكاهن الذى تجلّى له الرب ، بالصليب فى زمن حصار كربوغا ، ولما تساءلت لماذا لم يتجلّى لى على الصليب ، أنظر إلى ! لقد رأيت الرب والرسولين . بطرس وأندرو ، وشخصاً غريباً ، ضخماً الجثة ، قاتم البشرة ، كبير العينين ، أصلع تقريباً ، يدخلون المصلى .

ثم سألتى الرب : « ماذا تفعل ؟ » فأجبت : « إننى أقف هنا » .

واستأنف الرب كلامه قائلاً : « لقد غلبتك الآثام تقريباً ، كالآخرين ، ولكن ماهى أفكارك الآن ؟ » .

فأجبت : « يارب ، يا أيها الأب ، لقد كنت أفكر فى الكاهن وظهورك على الصليب له » . فقال الرب : « إننى أعلم ذلك » . واستمر يقول : « آمن بأننى أنا الرب الذى ذهبت من أجله تحمل الصليب ، وأننى تحملت الآلام على الصليب فى بيت المقدس ، من أجل خطاياكم ، وإذا آمنت بذلك فسوف ترى » .

« ثم رأيت صليباً مصنوعاً من قطعتين من الخشب الأسود المستدير المصقول ، مركباً بشكل سىء باستثناء الوصلات المسننة التى تدعّمه عند المنتصف » .

وأمرنى الرب قائلاً : « أنظر على الصليب الذى تبحث عنه ، وهناك على الصليب كان الرب ممدداً ومصلوباً ، تماماً كما هو فى الآلام وكان بطرس يسنده عن يمينه وأندرو عن شماله يمسك كتفيه والغريب من خلفه يسنده بيديه ^(١) .

« واستمر الرب في إعطاء تعليماته : « أبلغ شعبي بهذه الرؤيا . هل ترى جراحى الخمسة ؟ كهذه الجراح يقف الصليبيون في خمسة صفوف ^(٢) . ولا يخشى الذين في الصف الأول الرماح ولا السيوف ، ولا أى نوع من العذاب ، ويشبهنى الذين ذهبوا إلى بيت المقدس دون أن يخشوا السيوف والجسراح والهراوات والعصى ، وحتى الصليب . إنهم يموتون من أجلى كما مت من أجلهم ، ومعاً نسكن روحياً الواحد منا الآخر . وعند موتهم سيجلسون إلى يمين الرب ، في المكان الذى جلست فيه بعد قيامى وصعودى ^(٣) . أما الذين في الصف الثانى ، فإنهم مساعدون للذين في الصف الأول ، وهم حرس مؤخرة ووقاية في حالة الفرار . وهذا الصف - يمكن أن أقول يشبه الرسل الذين تبعونى وشاركونى الطعام والذين في الصف الثالث ، يعملون في الإمداد ، فيمدون الذين يقاتلون بأشياء مثل الأحجار والرماح وهم يذكروننى بأولئك الذين راحوا بضربون صدورهم ويصرخون في مواجهة الظلم ، وأنا معلق على الصليب أعانى من آلامى ^(٤) . أما الذين في الصف الرابع ، أغلقوا على أنفسهم بيوتهم واهتموا بشئونهم الخاصة عندما تنشب الحرب ، لأنهم يعتقدون أن النصر لا يكمن في قوتى أنا بل في الحكمة البشرية . أنهم يشبهون من صلبونى قائلين : « انه يستحق الموت ، خذوه إلى الصليب لأنه يزعم أنه ملك ، وأنه ابن الله ^(٥) . أما الذين في الصف الخامس ، فإنهم عندما سمعوا جلبة المعركة نظروا إليها عن بعد ، وبحثوا عن سببها ، وأظهروا جُبناً بدلا من الشجاعة ، ولم يدخلوا في أى مجازفة من أجلى ، أو من أجل إخوتهم . والواقع ، أنهم تحت قناع الحذر يدعون من يرغبون في خوض القتال أو على الأقل في تقديم السلاح بأن يجلسوا على الجياد فهم أشبه بالخونة يهوذا والقاضى بونطيوس بيلاط » .

« كان الرب معلقاً على الصليب عارياً إلا من خرقه على وسطه ذات غل أسود وأحمر تحفه شرائط بيضاء وحمراء وخضراء ، وكانت الخرقه تتدلى من خاصرتيه إلى ركبتيه ^(٦) . وبعد ذلك اختفى الصليب ، وبقي الرب في علابسه السابقة . فقلت له : « سيدى الرب ، إذا أبلغتهم بذلك فلن يصدقونى » .

« ورد الرب قائلاً : « هل تريد أن تعرف المتشككين ؟ » فأضفت قائلاً : « إننى أريد ذلك فعلاً » .

وهنا أمرنى المسيح قائلاً : « اطلب من الكونت أن يستدعى القادة والعامّة معاً ، واجعلهم يصطفون كما لو كانوا فى قتال أو حصار ، وفى الوقت المناسب اطلب من أحسن المنادين أن يطلق صيحة القتال « ساعدنا يارب » ثلاث مرات ، واطلب منهم أن يحاولوا استكمال النظام العسكرى ، وعندئذ ، كما قلت لك ، سترى الصفوف وتتعرف على المؤمنين وغير المؤمنين » .

ثم سألت « ماذا ستفعل بالمتشككين ؟ » فأجاب الرب : « لا تُظهر لهم أى رحمة . اقتلوهم إنهم من خانونى ، إخوة يهوذا الاسخريوطى . واعطوا ممتلكاتهم الدنيوية لأول صف وفقاً لاحتياجهم ، وبهذا العمل ستجدون الطريق الصحيح الذى كنتم حتى الآن تدورون حوله . وكما تحققت التجليات الأخرى كما تنبأت بها ستتحقق هذه . وبهذه المناسبة هل تعرف الجنس الذى أحمل له تقديراً خاصاً ؟ » .

وأجبت قائلاً : « الجنس اليهودى » .

فقال الرب « اننى أحمل الكراهية لهم بصفتهم كفاراً ، وأضعهم مع أخط الأجناس ^(٧) لذلك تأكدوا من أنكم لستم كفاراً ، وإلا ستكونوا مع اليهود وسوف أختار شعباً آخر وأحقق لهم وعودى التى وعدتكم بها » .

ثم أمرنى الرب بأن أحكى ما يلى للصليبيين « لماذا تخافون اقرار العدالة ؟ دعونى اسألكم : ما الذى يفوق العدالة ؟ إننى أريدكم أن يفعلوا ما يلى - يعينوا قضاء بالأسر والأقارب ، وإذا ارتكب شخص جرماً فى حق آخر فليسال القاضى ، أيها الأخ هل تحب أن تعامل هذه المعاملة ؟ وإذا استمر المعتدى فليحكم عليه وفقاً لحقه القانونى . وبناء على ذلك فليشعر القاضى بحريته فى أن يستولى على كل ممتلكات المدعى عليه ، فيعطى نصفها للمدعى ، ونصفها للسلطات . وإذا قال القاضى كلاماً يحتمل معنيين ، لأى سبب من الأسباب ، فاذهب إليه وأخبره أنه

إذا لم يُصلح ذلك الأمر ، فلن يتحلل منه حتى إلى نهاية العالم ، إلا إذا حلته أنت . هل تعرف كم يكون الحرمان عبثاً ثقيلاً ؟ لقد أمرت آدم ألا يلمس شجرة المعرفة أى الخير والشر ^(٨) . وخالف أمرى ، وهكذا ظل هو وذريته فى قيود تعسه ، حتى أتيت فى شكل إنسان فأنمّوهم بصَلْبى . وسأقول أن البعض ينبغي أن يأخذ من العشور لأنهم أعطوا كما أمروا ، وسأكافئهم وأجعلهم من المتفوقين .

وبعد كلام الرب طلبت منه أن يعيسد إلى بعطف من قلبه معرفة الخدمات (الصلوات) التى أخذت منى حديثاً فى أنطاكية . وهنا سألتنى الرب « ألا تكفى معرفتك لكى تحكى ماتعرف ؟ ومع ذلك فإنك تريد أن تعرف المزيد » . « وفجأة أصبحت أثق فى حكمتى ولم أطلب شيئاً آخر ؟ » وأجبت : « إنها كافية » . ثم استأنف الرب كلامه قائلاً : « ماذا أخبرتك ؟ أجب » . ووجدتنى الآن لا أعرف شيئاً ، وعندما ألحّ على لأكرر كلماته اعترفت : « يارب أنا لا أعرف شيئاً » ورد الرب : « اذهب وأحك ماتعرفه وسيكون هذا كافياً » .

وعندما حكينا هذه الأشياء للإخوة ، قال البعض أنهم لن يصدقوا أبداً أن الرب قد أجرى حواراً مع رجل كهذا ، متغاضياً عن الأمراء والأساقفة ، ومُظهراً نفسه لفلاح جَلْفٍ أُمّى ، بل إنهم قنادوا حتى راحوا يلقون بالشكوك حول الحرية المقدسة . بالتالى جمعنا أولئك الذين كُشِفَتْ الحرية أمامهم من قبل ، ثم استدعينا أرنولف القسيس الخاص بكونت نورماندى ، وزعيم المتشككين فى الرؤيا ، رغم أنه كان يتمتع باحترام كبير بسبب علمه ^(٩) . ثم سألناه عن شكوكه .

وأجاب بأنه كان يتشكك ، لأن الأسقف أدهيمار كان قد تشكك فى حقيقة الحرية . وهنا أجاب كاهن هو بطرس ديزدريوس : « بعد موت أدهيمار رأيتُه هو والمبارك نيقولاس ، وقال لى أخيراً : إننى أقيم فى الضيافة السماوية للقديس نيقولاس ولكن لأننى ترددت فى الإيمان بحرية الرب ، بينما ، كان ينبغي أن أقبلها أنا بالذات من دون الناس ، فقد أخذت إلى الجحيم ^(١٠) . وأحرق الشجرُ

الذى كان على الجانب الأيمن من رأسى ونصف لحيتى ، ورغم أننى لا أعاقب الآن ، فإننى لا أستطيع أن أرى الرب بوضوح حتى النمو الكامل لشعرى ولحيتى من جديد « (١١) .

وروى لنا بطرس ديزيديريوس هذه الرؤيا ، ورؤى أخرى كثيرة تحققت فيما بعد ولكننا سنحكيها فى وقتها .

وتقدم إيبرار وهو كاهن ، وقال « لقد ذهبت إلى طرابلس قبل الاستيلاء على أنطاكية بوقت قصير ، وكنت هناك حيا أرزق عندما سمعت بحصار كبروغا للصليبيين (١٢) . وعند تلقى هذه الأخبار ، عرفت أن دخول أنطاكية والخروج منها أمرا مستحيلا ، كما سمعت عن الكثير من المصائب الحقيقية والوهمية أيضاً التى نشرتها أكاذيب المسلمين . وهكذا التجأت ، خوفاً من الموت ، إلى كنيسة ، وسقطت أمام تمثال مريم العذراء . ولعدة أيام طلبت بالدموع والصلوات متوسلاً بشفاعتها ، رحمة الرب ، وأنا صائم بصفة دائمة وأتوسل إليها قائلاً : « أيتها السيدة الطيبة ، إن هؤلاء حجاج تركوا أطفالهم ، وزوجاتهم ، وممتلكاتهم الدنيوية ، باسم المسيح ، ومن أجلك ، والآن ها هم قد ارتحلوا إلى هنا من أماكن بعيدة ، ويحاربون من أجل إبنك ، فاشفقى عليهم . يا سيدتى وفكرى فى رأى ابنك ورأبك وفى أراضيتهم إذا أسلمتهم إلى الاتراك » .

« ورحت أغفم وأتأوه بهذه الكلمات المرة بعد المرة ، عندما جاء مسيحي سوري وقال لى : « ابتهج وتوقف عن البكاء » واستأنف كلامه قائلاً : « منذ فترة وجيزة وقفت أمام أبواب كنيسة مريم المباركة ، أم المسيح ، وإذا بكاهن فى ملابس بيضاء يظهر (١٣) . وعندما سألته عن اسمه ووطنه أجاب : « إننى مرقس ، البشر الإنجيلي ، جئت من الاسكندرية حديثاً ، وقد عرّجت على هنا بسبب كنيسة مريم المباركة » .

« ثم سألته عن وجهته وأجاب مرقس : « إن المسيح يقيم الآن فى

أنطاكية ، ويأمر تلاميذه أن ينضموا إليه ويساعدوا في المعركة التي يجب أن يخوضها الفرنجة مع الأتراك « وبعد ذلك انصرف » .

« وعندما بقيت على شكى وحزنى ودموعى طمأننى نفس السورى قائلا :
« يجب أن تفهم أنه مسجل فى المجيل بطرس المبارك ، أن الشعب المسيحى المقدر له أن يستولى على بيت المقدس ، سيحاصر أولا فى أنطاكية ، ولن يخرجوا من الحصار إلا بعد أن يجدوا الحرية المقدسة » (١٤) .

ثم دلى إيبرا على كلامه قائلا : « إذا كان أحد يتشكك فى ذلك .
فلتشعلوا نارا للاختبار ، وسوف أعبرها باسم الله ودليلا على ذلك » .

واقترب كاهن آخر هو ستيفن من فالنس وهو شخص محترم وطيب ، وأضاف إلى هذه الشهادة قائلا : « لقد تحدث إلى المسيح فى محنة من أشد المحن وفى حضور أمه المباركة ، مريم العذراء ، وعد بأنه فى اليوم الخامس بعد هذا الحديث ، سيكون رحيمًا وينهى آلام المسيحيين ، إذا عادوا إليه بكل قلوبهم . وأعتقد أن الرب كان صادقاً فى كلمته ، لأن الحرية المقدسة أكتشفت فى اليوم الخامس . والآن إذا كنتم لا تصدقوننى فإننى أقول أننى بعد هذه الرؤيا مباشرة ، عرضت على أدهيمار كبرهان على ذلك ، أن أخوض إختبار النار أمام الجمهور أو أقفز إن شاء من فوق أعلى برج ، وأنا الآن أعرض عليكم نفس الشيء » .

وزاد أسقف آبت من قائمة شهودنا المتنامية ، فتقدم وشهد بأن « الرب فقط يعرف ما إذا كنت قد رأيت ذلك فى المنام أم لا ، لأننى لا أعرف بكل تأكيد » (١٥) . ومهما يكن فقد وقف أمامى رجل فى ثياب بيضاء ، وقد أمسك فى يده حربة الرب ، هذه الحربة ، أقول ، وسألنى : « هل تعتقد أن هذه حربة الرب ؟ » . وأجبت : « بالتأكيد ياسيدى » . « ولكن لما بدا على عدم الاقتناع طلب منى بخشونة إجابتين أخريين وكررت : « إننى اعتقد أن هذه هى حربة الرب ، يسوع المسيح ، واختفى فى الحال » .

ثم أضفت أنا ، مؤلف هذا الكتاب ، أمام الأخوة والأسقف ، إلى هذه الشهادة : « لقد كنت هناك في كنيسة القديس بطرس عندما أُخْرِجْتُ الحرة من تحت الأرض ، وهناك شهود كثيرون آخرون على ذلك في الجيش » . واستطردت قائلاً : « هناك كاهن هو برتراند أوف لى بويه ، وهو عضو في أسرة أدهيمار أثناء حياته ، وقد أصيب بمرض مميت في أنطاكية . وفي ذلك الوقت ظهر لبرتراند أدهيمار ، وحامل رايته هرقل ، الذي أصيب في وجهه بسهم وقتل ، بعد أن هاجم الأتراك بشجاعة في أشرس معركة دارت في أنطاكية .

وهنا سأل أدهيمار : « ماذا تفعل يا برتراند » وأجاب هرقل : « ياسيدي إنه مريض » . وأجاب الأسقف : « إنه مريض لأنه متشكك » . وهنا همس برتراند : « ياسيدي إننى لا أومن بحرية الرب كما أومن بآلام الرب » ؟ . فحضره أدهيمار : « إن هذا لا يكفي . فينبغى أن تؤمن بأكثر من ذلك » .

ورغم أن ما تلا ذلك يخرج عن موضوعنا ، فإننى سأسجله لأهميته لنفع من يستحقون . وعندما اضطر برتراند المريض المترنح إلى الجلوس أمام أدهيمار وسيده هرقل ، رأى عندما جلس هناك جرح السهم المحرز الذي أنهى همسهم هرقل الدنيوية . وهنا سأل برتراند : « ياسيدي لقد ظننا أن جرحك التأم ، ولكن ما هذا ؟ » .

وأجاب هرقل : « هذا سؤال جيد . عندما جئت إلى الرب ، يسوع المسيح ، توصلت إليه أن يترك جرحى مفتوحاً لأنه أنهى حياتى ، وهكذا فإنه يجب أن يبقى بمشيئة الرب دون التئام » . ولم يبلغ أدهيمار وهرقل برتراند بذلك فحسب ، بل أضافا أشياء أخرى لا تتعلق بهذه الرواية ^(١٦) .

وآمن أرنولف بالحرة واعترف بعد أن سمع تلك الرؤيا وغيرها . بل إنه وعد أسقف البارة بأن يكفر تكفيراً علنياً بسبب تشككه ، ولكنه عندما جاء في أحد الأيام إلى اجتماع ، أعلن أنه يؤمن كل الإيمان بالحرة ، إلا أنه قال كلاماً فيه تورية ، عندما قال أنه سيكفر فقط بعد التشاور مع سيده .

وكانت أنباء موقف أرنولف سببا في أن يسخط بطرس بارثولوميو ، وهو على حق ، كرجل صريح لكنه صادق . واندفع قائلا : « اننى لا أتمنى فقط بل أتوسل إليك أن تشعل نارا ، وسأخوض اختبار النار وفي يدي الحرية المقدسة ، وإذا كانت هي حرية الرب حقاً فإننى سأخرج منها دون أن أكوى بالنار^(١٧) . ولكن إذا كانت حرية زائفة فستهلكنى النار . وأنا أعرض أن أفعل ذلك ، لأننى أرى أنه لا أحد يصدق الرؤى أو الشهود » .

وأرضى ذلك الجمهور ، وحددنا موعد اختبار النار في يوم آلام الرب على الصليب من أجل خلاصنا ، وأمرنا بطرس بارثولوميو بالصوم . وبعد أربعة أيام ، ومع بزوغ فجر الجمعة الحزينة (٨ أبريل ١٠٩٩ م) ، بدأ إعداد كومة الأخشاب ، واكتملت بعد منتصف النهار ، واحتشد نحو ستين ألفا من النبلاء والشعب مع رجال الكنيسة الحفاة الأقدام ، الذين يرتدون الشباب الكهنوتية . وورست فروع الزيتون الجافة في كومتين ارتفاعهما أربعة أقدام ، يفصل بينهما نحو قدم واحد ، ويبلغ طولهما ثلاثة عشر قدما .

وبعد إشعال النار وانطلاق لهيبها في الهواء أعلنت أنا ، ريمونداجيل ، في حضور الجمهور : « إذا كان الرب القادر على كل شيء قد تحدث إلى هذا الرجل شخصياً ، وإذا كان القديس أندرو ، قد كشف له الحرية المقدسة في صلاة الليل ، فليمش في النار دون أن يمسه أذى ، ولكن إذا كانت هذه أكذوبة فلتلتهم النار بطرس بارثولوميو والحرية » . وركعت الجماهير قائلة : « آمين » وارتفعت الحرارة اللاقحة ثلاثين ذراعاً في الهواء ولم يستطع أحد أن يقترب منها .

ثم ركع بطرس بارثولوميو على ركبتيه وهو يرتدى ثوبا كهنوتيا بسيطا بلا أكمام ، أمام أسقف البارة ، وأشهد الرب على أنه قد رأى المسيح شخصياً على الصليب وتلقى منه التعليمات المذكورة من قبل ، وأيضاً تعليمات من القديس بطرس ، والقديس أندرو ، وأن التبليغات التى أبلغها باسم القديس بطرس أو القديس أندرو أو المسيح لم تكن من تأليفه . وأضاف أيضاً أنه إذا كان

قد كذب ، فإنه لن يخرج حيا من الكومة المشتعلة . ودعا أن يغفر الرب له على تطاوله على الرب وعلى جيرانه ، وأيضاً على الأسقف والكهنة والمُشاهدين لهذا الإختبار . وبعد ذلك سلّمه الأسقف الحرة . وركع بطرس ورسم إشارة الصليب ، ومشى داخل الكومة المشتعلة بشجاعة ودون أن يخيفه شيء . ومشى بتمهل فى وسطها وأخيرا ببركة الرب خرج من اللهب .

وحتى يومنا هذا يزعم بعض المراقبين أنهم رأوا هذه العلامة : وهى أن طائرا طار فوق رأس بطرس قبل أن يخرج من قبر النيران ، ودار ونزل فى النيران وشهد بذلك كل من إبرارد ، الذى ذكرناه سابقاً ، والذى أقام فيما بعد فى بيت المقدس من أجل الرب ، ووليم بونوفيليوس ، وهو فارس محترم ممتاز من أربليس Arles . وذكر ولیم مالوس بوير ، وهو فارس محترم من بيزيه ، أن رجلا يرتدى الملابس الكهنوتية ، وبدلة القداس فوق رأسه ، دخل اللهب قبل أن يدخل بطرس (١٨) . وذكر وليام أنه بدأ يصرخ عندما لم يستطع أن يرى الرجل يخرج من النار لأنه أخطأ ، وظنه بطرس بارثولوميو ، واعتقد أن بطرس قد إلتهمته النيران .

وفى الزحام الشديد لم تُشاهد أشياء كثيرة ، ولكن هناك تجليات وأحداثاً كثيرة نعرفها بكل تأكيد ، ولكننا لن نحكيها خوفاً من إصابة القارئ بالسأم . فضلا عن ذلك فإن ثلاثة شهود قادرين يعتبرون كافين لكافة الأحكام . إلا أننا لن نستبعد هذه : فبعد أن عبر بطرس النار ، راح الجمهور الذى أصيب بالخوف يخطفون العصي المشتعلة والفحم المتوهج ، بحيث أنه لم يبق بعد وقت قصير إلا الأرض التى إسودت من النيران . وفيما بعد ومن خلال هذه الآثار ، التى آمن بها الناس ، صنع الرب الكثير من الأعمال الجليلة .

سار بطرس خلال النار ولم يحترق ثوبه الكهنوتى ، والحرة المقدسة ، التى كانت ملفوفة فى أعلى أنواع القماش . وعندما خرج ، لوح للجماهير ورفع الحرة وهتف قائلاً : « يارب ساعدنا » . وهنا أمسكت به الجماهير ، أمسكت به

الجماهير أقول وجذبتني إلى الأرض . وأخذ كل فرد تقريبا من الرعاع يدفع ويدافع معتقداً أن بطرس كان قريباً ويأمل أن يلمسه أو يخطف قطعة من ثيابه . وجرحه الرعاع ثلاثة جراح أو أربعة في ساقيه في أثناء التزاحم ، كما كسروا عموده الفقري . ونعتقد أن بطرس كان سيموت هناك ، لولا أن ريموند بيليه ، وهو فارس مشهور وشجاع ، قام بمساعدة زملاء كثيرين بمهاجمة الرعاع المتدافعين ، وجازف بحياته لينتزعهم منهم . لكن لا يمكننا كتابة المزيد بسبب قلقنا وحزننا (١٩) .

وبعد إلتئام جراح بطرس بقي حيث حمله ريموند بيليه Pilet . وسألنا عن الشيء الذي جعله يقف في النار . وأجاب : « لقد قابلني الرب في اللهب ، وأمسك بيدي وقال لي : « بسبب شكوكك حول اكتشاف الحرية المقدسة في زمن تجليات القديس أندرو ، فإنك لن تعبر دون جروح لكنك لن ترى الجحيم . وبعد هذه الكلمات اختفى الرب » . واستأنف بطرس كلامه قائلاً : « هل ترغبون في رؤية حروقي ؟ » كانت جراحه قاسية ، أما الحروق التي كانت على ساقيه فكانت تافهة .

ثم جمعنا المتشككين ليفحصوا وجهه ورأسه وشعره وأجزاء أخرى من جسده ، حتى يتأكدوا من صدق رؤيا بطرس التي تحمل من أجلها امتحان النار . ومجدد الكثيرون ، عند رؤية وجهه وجسده ، بهذه الكلمات « ان الله الذي خلص هذا الرجل ، من هذه النيران اللافحة ، النيران التي بلغ من حرارتها أننا اعتقدنا أن سهماً لا يمكنه أن يمر منها دون أن يحترق تماماً ، يمكن بكل تأكيد أن يكون حامياً لنا وسط سيوف المسلمين » .

وبعد ذلك دعا بطرس ريمونداجيل ، كاهن الكونت وسأله : « لماذا أردت أن أخوض امتحان النار لأثبت رؤاي للحرية المقدسة وأوامر الرب ؟ بالتأكيد إنني أعرف أفكارك المتسبعة » وكشف عن ظنون ريموند .

وعندما أنكر ريموند هذه الظنون أفحمه بطرس قائلاً : « إنك لاتستطيع إنكار هذا الدليل الدامغ لأنى عرفت الحقيقة ذات ليلة من مريم العذراء وأدهىمار . لقد اندهشت جداً عندما علمت أنه رغم أنك لم يكن لديك أى شك فى كلمات الرب ورسله ، فإنك قد تمنيت هلاكى وأنا أقيم الدليل على هذه الرؤى ذاتها » .

وعندما كشف بطرس أكاذيب ريموند وذنبيه أمام الرب ، بكى ريمونداجيل فى ألم . وواساه قائلاً « إننى لا أريد لك أن تبتئس ، لأن مريم العذراء المباركة وأنذرو المبارك ، سيحصلان لك على العفو أمام الرب إذا أنت صليت لهما بحرارة » (٢٠) .

* * * * *

هوامش الفصل الثاني عشر

(١) من المحتمل أن وصف ريمونداجيل لنزول المسيح من الصليب مقتبس من أدب هذه الفترة .

(٢) تعبير الخمسة صفوف كان تعبيراً شائعاً في القصص المسيحية . ومن المحتمل أن يكون لشيثرون الذي يذكر ستة صفوف في خطبته ضد القتلان تأثير كبير على الكتاب اللاحقين . انظر :

Cicero, Second Oration Against Cataline, VIII - X.

(٣) « المسيح يجلس إلى يمين الرب » تعبير اقتبسه المؤرخ من الإنجيل متى (ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة) . انظر :

Mathew, 26 : 64; Breviarium, Ordinarium Divini Officii, p. 2.

- مرة أخرى يلجأ ريمونداجيل إلى الاقتباس من الإنجيل والتوراة ومن الأدب الروماني ومن الكتب الكنسية حتى يعطى لروايته قوة التأثير على المستمعين له من الفرنج .
(الترجمة العربية) .

(٤) « الحزاني يقرعون صدورهم » تعبير مشابه لما جاء في الإنجيل لوقا . انظر :

Luke, 23, : 48.

(٥) « وأدعى أعداء المسيح » إنه يستحق الموت » انظر :

Mark, 14, : 46; Luke, 23 : 21 - 23.

(٦) يوضح وصف المسيح وهو معلق على الصليب استخدام ريمونداجيل للأفكار السائدة عن مظهره . فالخرقة التي تتدلى من خصرته إلى ركبتيه كانت النمط السائد في تلك الفترة ، وكانت أطول بكثير من ستار العورة المختصر الذي ظهر في فن عصر النهضة .
انظر :

Alfred Maury, Croyances et légendes du moyen-age, Paris, 1896, pp. 401-403; Bernard Teys'sdre, Le Sacramentaire de Gellon, Toulouse, 1959; Planches, horse - texte Fig. 143 v.

والمرجع الأخير به المنظر الأوضح للمسيح .

(٧) « الرب يحمل الكراهية لهم » تعبير يوضح عداوة رمونداجيل للسامية . انظر :

Psalm, 21 : 22.

(٨) يستخدم المؤرخ عبارات من سفر التكوين ليضيف إلى حديثه عن العدالة . انظر :

Genesis, 2 : 17.

(٩) أرنولف أوف تشوكس Arnolf of Chocques هو القس الخاص بربورت النورماندى وكان يدعى مالبكورن Malecorne . وأصبح بطريركا لبيت المقدس فى عام ١٠٩٩ م . ثم عزل من منصبه بعد فترة قصيرة . وأعيد انتخابه بطريركا فى عام ١١١٢ م وبقي فى هذا المنصب حتى عام ١١١٨ م ، باستثناء فترة قصيرة فى عام ١١١٥ م . وقد عقد هذا الاجتماع فى ٦ - ٧ أبريل عام ١٠٩٩ م . انظر :-

Hagenmeyer, Chr. 363.

- تم انتخاب أرنولف فى أول أغسطس ١٠٩٩ م . وكان من المعارضين لذلك المؤرخ رمونداجيل وجموع البروفنساليين ولم يتمتع أرنولف بتأييد رجال الدين الأرثوذكس لما اتخذه من إجراءات تمنع المسيحيين الشرقيين بصفة عامة من أداء الشعائر الكنسية الشرقية فى كنيسة بيت المقدس . كما قام باضطهاد بعض رجال الدين الشرقيين ليسلموه الجزء الأكبر من صليب الصلبوت . فالكنائس الشرقية التى نعت بالتسامح فى ظل الحكم الاسلامى ، أدركت ان الفتح اللاتينى لبيت المقدس يعتبر بالنسبة لها بدء فترة الزوال . انظر:

Runciman, op. cit., vol. 1, pp. 292 - 293.

(الترجمة العربية) .

(١٠) القديس نيقولا saint Nicolas هو أسقف ميرا Myra وقد عُدَّ فى عصر دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م) . ويحتفل الروم واللاتين بذكره فى السادس من شهر ديسمبر من كل عام . وقد نقل سكان بارى Bari آثاره هناك فى عام ٨٧٠ م . وقاموا ببناء كنيسة تكريما له . ويرى فولشر أوف شارتر أن الصليبيين توقفوا عند كنيسة القديس نيقولا فى مدينة بارى الإيطالية لتأدية صلاتهم هناك . وانتشرت هذه الطقوس فى ألمانيا وهولندة ثم فى أمريكا بعد ذلك . وبطرس ديزيدريوس Peter Desiderius كاهن جاء مع القوات البروفنسالية التى صحبت كونت تولوز .

(١١) يكرر ريمونداجيل بعضا من رؤيا سابقة لأدهيمار ومرة أخرى يبين أن لفتح النار للحيته كان عقابا لرجل طيب .

(١٢) إبيرار Ebrard كاهن مغمور . ومن الغريب أن نلاحظ أنه - إفتراضا - قد ذهب إلى طرابلس أثناء حصار الصليبيين لأنطاكية . ويبدو ذلك محالا إلا إذا كان الرجل في مهمة لترتيب اشتراطات بين الفرنج وأهل طرابلس ، أو تكون تحركات الفرنج في المنطقة سهلة في ذلك الوقت .

(١٣) المؤرخ هنا يجعل المسيحي الشرقي يقول « إبتهج » . وهو سطر اقتبس من المؤرخ من أعمال الرسل . انظر : Acts, 27 : 22 : 23.

(١٤) من المحتمل أن تعليقات المسيحي الشرقي مأخوذة عن كتابات دينية مشكوك في صحتها .

(١٥) أسقف آبت Apt أحد رجال الدين الهرونساليين ، وقد تشكك في حقيقة الحرية المقدسة .

(١٦) تكشف رؤيا القس برتراند Bertrand عن مقدرة المؤرخ في كتابة الأدب الكنسي . ففي البداية نجده يستخدم العديد من الشهود ليقدّم المحنة . وهؤلاء الرجال مروا بتجربة أن يزورهم أشخاص سماويون . وقد كان برتراند في ذلك الوقت مريضا مرض الموت ، وهذا يمنح زائره الفرصة أن يقول أن الرجل مريض لأنه تشكك في حقيقة الحرية المقدسة . وقد اقتبس المؤرخ وصفه لمرض برتراند من انجيل يوحنا (John, 11 : 4) . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن هرقل حامل لواء أدهيمار الذي لقي مصرعه في ميدان القتال ، يعود بصحبة سيده أدهيمار ليوضح أن جرحه الناتج عن إصابته بسهم لم يندمل بعد . وهذا أيضا أمر مألوف لأنه وفقا لأسمى رغبات رجل مقدس فإنه لا بد أن يعاني . وقد عانى القديس جيل الكثير ونفس الطريقة . انظر ماسبق ، الفصل الثامن ، حاشية (٥) .

(١٧) لقد أثارَت القصة الكاملة لأختبار النار اهتماما كبيرا . ويلاحظ كرى أنه من الغريب أن لا يورد مؤلف الجستا المجهول هذه الرواية . ولأن ريمونداجيل هو شاهد العيان الوحيد الذي أورد قصة هذه المحاكمة كاملة (باستثناء فقرة تيديوده المنقحة) . فلا بد أن نخلص إلى أن طبيعة تقريره تجعل روايته محل شك . فريموند يخبرنا أن بطرس بارثلميو كان صادقا (وهو تعبير استخدم لوصف أيوب بأنه إنسان طبيعي) . فكل التفاصيل حسب أفضل الروايات الأدبية للمحاكمات - وصف النار، الحشد الكبير (ستون ألفا) ، =

الحفل الدينى ، الزائر الحارق للطبيعة وسط اللهب ، الطائر المعلق ، وخروج البطل ، كل هذه التفاصيل وأكثر منها لها مثيلاتها فى عصر آخرى . انظر :

H.C. Lea, *Superstition and Force*, Philadelphia, 1892, pp. 305 - 306;

H.C. Howorth, *Saint Gregory the Great*, London, 1912, pp. 237-238.

ويشير هوارث إلى أنه عندما حكى عن الشخص المعنوى كحقيقة فإن هذه غالبا ماتكون كتابة أدبية أكثر منها نتاجا لعقل راجع . ونحن لا ندحض فكرة أنه كان هناك اختبار النار ، ولكننا مقتنعون بأن وصفه كان تطبيقا قام به المؤرخ . ويضع هاجنمير اختبار النار فى ٨ أبريل ٩٩٠م . انظر :

Hagenmyer, Chr. 364.

- سبق أن اعتمدنا فى تقلنا لرواية ريمونداجيل عن عودة السفارة الفرنجية من مصر إلى المعسكر الصليبي بالقرب من عرقة ، ووصول سفارات أخرى اسلامية إلى الفرنج ، وعن عروض قدمها المسلمون للفرنج على انفراد ريمونداجيل - دون بقية مؤرخى الحملة الأولى وخاصة مؤلف الجستا الذى رافق الجيش الصليبي إلى بيت المقدس بعد أن انفصل عن سيده يوهيمند الذى بقى فى أنطاكية - وحده يسرد هذه الرواية مما يشكك فى صحتها . وما يذهب إليه كرى هنا يؤيد ما ذهبنا إليه من قبل . انظر ماسبق ، الفصل الحادى عشر ، حاشية (١٨) .

الترجمة العربية) .

(١٨) وليم بونوفيليوس Guillelmus Bonofilii ، فارس من آرل Arles وليم مالوس بوير

Guillelmus Puer ، فارس من بيزيه Béziers . وقد استخدمهما المؤرخ كشهود

علمانيين لبدعم روايته .

(١٩) ريموند أوف بيليه Raymond of Pilel عرّفه بيريه كفارس من ليمسوزين وانضم إلى

القوات البروفنسالية . وعرّفه فيتزه كحاكم آلية Alais . انظر : HG L, 3:483.

(٢٠) مرة أخسرى يخصص ريمونداجيل جزءا كبيرا من تاريخه ليسرد رؤيا بارثلميو . وفى

حصار عرقة ، يبدو أن رؤيا واحدة لم تكن تكفى ، فروي ريمونداجيل رؤى آخرين غير

بطرس . ربما ليزيد من حماس الفرنج فى محاولتهم للاستيلاء على تلك المدينة

الإسلامية الصغيرة ، التى كلفت ، المقاومة التى أبدأها أهلها ، الصليبيين الكثير من

الأرواح والعتاد ، إلى جانب الوقت والجهد دون طائل . ومرة أخرى نجد ريمونداجيل وحده

- من بين مؤرخى الحملة الأولى - يسرد هذه الرواية بإسهاب كشاهد وحيد لها . ومرة =

= أخرى لانهج لهذه الأحداث أى أثر فى كتاب مؤلف الجستا الذى كان ضمن صفوف الفرنج عند عرقه ، الأمر الذى يشكك فى صحة الرواية التى أوردها ريمونداجيل . وإذا كان هناك من ذكر هذه الأحداث من مؤرخى هذه الحملة مثل فوشيه أوف شارتر أو رادولف أوف كان . فكلاهما لم يكن شاهد عيان لهذه الأحداث وكان فوشيه بصحبة بولدين فى الرها وكان رادولف لازال فى غرب أوربا . وأظهر فوشيه ارتيابه فى أمر الحرية ، أما رادولف فلم يتوان عن إظهار تشككه فى بطرس بارثلميو واتهامه بالكذب وباختلاق روايات لم يحدث منها شئ . ويظهر ذلك جليا من حديث رادولف عن اختبار النار الذى مر به بطرس حيث يقول « وارتدى بطرس عباءته ، ولم يرتد غيرها ، ومشى وسط النيران ، وسقط مشتعلا ، ولفظ أنفاسه محترقا بكذبه ، وعندما رأى الناس ما حدث أمامهم ، حدثت غمغمات وهمهمات وأقروا بأنهم كانوا مخدوعين ... وبعد أن نال بطرس مختلق الأكاذيب العقاب الذى يستحقه ساد الاتفاق ... » أنظر :

Fulcher of Chartres, pp. 99 - 100, Radulf of Caen, pp. 682 - 683.

وبالرغم من طول الرواية التى سردها ريمونداجيل عن الرقى المختلفة ، فإنه لا يشغلنا عن ملاحظة المقاومة الشديدة والشجاعة التى أبدتها أهل عرقة فى التصدى للهجمة الصليبية على مدينتهم ، التى صمدت دون مساعدة من سائر القوى الإسلامية ، فى الوقت الذى أجبرت قوى إسلامية أخرى فى بلاد الشام على الإتفاق مع الصليبيين والتخاذل أمامهم . فحصار الفرنج لعرقة كلف الفرنج الكثير ، وجعل اليأس يدب فى قلوب الكثيرين منهم ، ويكفى أن يصدر كونت سان جيل أوامره برفع الحصار عن عرقة وهو منخرط فى البكاء على ماتكبه وقواته من خسائر فى الحصار الذى وصفه مؤرخه بأنه حصار كره ويموت . فقد استمر حصار الفرنج لعرقة لمدة « أربعة أشهر ونقبوا سورها عدة نقوب فلم يقدروا عليها » . انظر : ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ١١٥ . راجع أيضا مايتقدم من الفصل ١٣ ، ص ٢٢١ .
(الترجمة العربية) .

الفصل الثالث عشر

التخلي عن حصار عرقة واستئناف الرحلة

إلى بيت المقدس

في هذه الأثناء قسّمت النزاعات الجيش ، ولكن الرب ، مرشدنا ، وريثنا أصلح هذه النزاعات حتى لا تضيق أنعمه . وعندما علم حاكم طرابلس ، وهي مدينة قريبة من معسكرنا ، بالنزاعات ، سخر من طلب الجزية التي حمله مبعوثونا ، وقال : « من هم الفرنجة ؟ وما شأن فرسانهم ؟ وما مدى قوتهم ؟ فكروا في الأمر . لقد حاصر جيش الفرنجة عرقة ثلاثة أشهر ^(١) ، ورغم أنني لا أبعد عنهم إلا أربعة فراسخ ، فلم يقع منهم هجوم واحد على ، ولم أر رجلاً واحداً مسلحاً منهم . أيها الفرنجة تعالوا إلى طرابلس ودعونا نراكم ونختبر فرسانكم . لماذا ينبغي أن أدفع جزية لوجوه لم أرها ، ولقوة لم أعرفها ؟ » ^(٢) .

وأثار هذا التقرير التساؤل العام « أنظروا ماذا جنينا من النزاعات والمشاحنات ؟ لقد احتجب الرب عنا من جديد ، وأصبحنا موضع احتقار » .

وحدثت هذه المشاعر الأمراء الذين أمروا أسقف البارة وجزءاً من الجيش أن يحموا المعسكر بينما يقومون هم مع المشاه والفرسان في التشكيل المعتاد بمهاجمة تحصينات طرابلس. وفي التاريخ المحدد عندما سار جيشنا بهذا النظام ، خرج إلينا أهل طرابلس وهم واثقون في حشودهم الصاخبة في تشكيل قتالي . كان هناك سور صلب ومرتفع جداً للمجرى مائي يؤدي إلى طرابلس ، بشكل طريقاً ضيقاً بين المدينة والبحر الذي يحيط بطرابلس من ثلاث جهات .

وهكذا حصّن المسلمون هذا السور المذكور للمجرى المائي ، بحيث يمكنهم في حالة الفشل أن يمروا إلى الخلف وإلى الأمام كما لو كانوا يمشون من حصن إلى حصن . وعندما رأى الصليبيون منظر أهالي طرابلس وهم واثقون في موقعهم القتالي وأسلحتهم ، ابتهلوا ، مشاة وفرساناً ، إلى الرب ولوحوا برماحهم واحتشدوا معاً . كان تقدمهم إلى صفوف العدو أشبه بموكب ، بحيث أنك لو رأيت

الزحف ، لحسيت أنهم يتقدمون كأصدقاء لا كأعداء . وشل الرب حركة قوات طرابلس بالخوف ، ولم يكذ واحد يهرب بعد أول صدام مسلح . وإمتلأت الأرض بدم المسلمين وسدّت جثثهم المجرى المائى . وكان من المناظر المبهجة منظر المياه المتدفقة فى المجرى المائى وهى تدحرج أجساد النبلاء والدهماء إلى طرابلس وقد فقدت رؤوسها . وفقدنا رجلا أو اثنين بينما يقال أن سبعمائة من الأتراك قد قُتلوا .

وبعد الانتصار ، عاد قادتنا إلى عرقة بالغنائم ، وأعلنوا : « لقد رأنا ملك طرابلس اليوم كما رأينا نحن كذلك الطرق إلى طرابلس ، ودرسنا وسائل الهجوم . وإذا وافقتم الآن فسنجعل ملك طرابلس يختير معدن فرسساننا غداً » . وهكذا لم يجرؤ شخص واحد على الخروج من طرابلس عند عودتنا إليها فى اليوم التالى . وبعد ذلك عرض ملك طرابلس على قادتنا أن يعطيهم خمسة عشر ألف قطعة ذهبية ، وخيولاً ، وبغالاً ، وملابس ، ومؤناً ، وسوقاً عامة مفتوحة . كما أنه سيعيد إلينا جميع الأسرى المسيحيين إذا تخلينا عن حصار عرقة (٢) .

ووصل رسل من الإمبراطور ألكسيوس إلى المعسكر فى ذلك الوقت ، يحملون احتجاجاً على تملك بوهيمند لأنطاكية ، خلافاً للعهد التى قطعت للبازيليوس . وسأقطع روايتى لأذكر أن بوهيمند كان يحتل أنطاكية فى ذلك الوقت ، لأنه طرد رجال ريموند بعنف ، من الأبراج التى كانوا يحرسونها ، عندما سمع أن الكونت قد انطلق من معرة النعمان إلى داخل سوريا . كما ذكر المبعوث البيزنطى أن ألكسيوس سيقدم مبالغ كبيرة من الذهب والفضة ، وأن على الصليبيين أن ينتظروه حتى عيد القديس يوحنا (أواخر يونية) حتى يستطيع أن يسير معهم إلى بيت المقدس . وجدير بالذكر أن عيد الفصح كان يقترب فى ذلك الوقت (٤) .

وجادل كثيرون ، منهم كونت سانجبل ، قائلين « لنؤجل زحفنا حتى وصول

ألكسيوس . فسوف نأخذ هداياه ، وسيؤمن وجوده التجارة براً وبحراً ، وسنتوحد تحت قيادته . وستلقى كل المدن أسلحتها وسيتملكها ألكسيوس أو يدمرها كما يشاء . وهناك احتمال أيضاً بأن الصليبيين ، الذين أجهدتهم الحصومات الطويلة المستمرة سيؤثرون ، إذا وصلوا بيت المقدس ، أن يعودوا إلى ديارهم بمجرد أن يروا أسوارها . ففكروا بعناية في عدد الأخطار الكامنة في مواجهة أولئك الذين يتوقنون إلى الوفاء بنذرهم . ولنصعد من حصار عرقة حتى تستسلم حاميتها في خلال شهر ، أو يتم الإستيلاء عليها بالقوة . ومن ناحية أخرى فإذا نحن قررنا ألا جدوى من الحصار ، وانتشرت أخبار تخليتنا عنه بعيداً ، أصبحنا ، ونحن جيش عُرف بتنفيذه لمشروعاته بنجاح ، موضع سخرية واستهزاء .

ورد آخرون بعكس ذلك : « لقد أضربنا الإمبراطور دائماً وخدعنا وتآمر علينا . ولما أدرك أنه ضعيف ، وأننا أقوياء بفضل الرب ، سعى إلى إبعادنا عن القبر المقدس ، خوفاً من أن يؤدي الحديث عن نجاحنا إلى أن يحذو آخرون حذونا . فليحذر أولئك الذين أساء إليهم بالكلام أو بالأفعال من أن يثقوا فيه ثقة لا طائل وراءها . ولنستأنف زحفنا إلى بيت المقدس ، ونضع ثقتنا في المسيح قائدنا الذي خلصنا من الخطر الذي أشعرنا باليأس ، وحمانا من أعمال ألكسيوس وخداعه . وعندئذ فإننا سنحقق أحلامنا بسهولة بوعده الرب . وعند سماعه لأخبار استيلائنا على بيت المقدس ، والتجارة المفتوحة ، فإنه سيرد على ذلك بأعمال ويهدايا بدلاً من الكلمات الخداعة . »

ووافقت أغلبية الناس على هذا الرأي الأخير ، ولكن رغباتهم ومجلس الأمراء لاقت صعوبات . وقد ثارت هذه الصعوبات بسبب الحاشية الضخمة لكونت ريموند ، ولأنه واجه الموت بشجاعة ، دون أن يكون معه القادة الآخرون ، وحقق الكثير من المكاسب الخاصة الكبيرة .

في هذه المحنة أعلننا الصوم والصلوات والصدقات للناس ، على أمل أن

يتلطف الرب القادر على كل شيء ، والذي أخذ بيدنا عبر بلاد كثيرة ، وبلغنا مشيئته . وهكذا أقنعت صلوات المؤمنين الرب .

وظهر الأسقف أدهيمار لستيفين أوف فالنس ، الذي كتبنا عنه من قبل بخصوص رؤياه للرب على الصليب ، وضرره بقضيب بينما كان يمشى عائدا إلى بيته ذات ليلة وناداه « يا ستيفين » .

ورد ستيفين : « سيدى » وعندما استدار تعرّف على أدهيمار .

فسأله أدهيمار : « لماذا تجاهلت لعدة مرات أوامرى الخاصة بصليب الرب ، وأوامر أمنا مريم العذراء ؟ إننى أتحدث عن الصليب الذى كان فى صفوفى الأمامية ، ليحمل فى الجيش . قل لى أى أثر دينى أفضل من الصليب ، ألم يرمم هذا الصليب بما يكفيكم ؟ ألم يرشدكم إلى الحرية المقدسة ؟ إن سيدتنا مريم العذراء المباركة تقول الآن أنه بدون هذا الصليب لن تكون لديكم حكمة » .

وهنا صاح ستيفين : « آه يا أعز سيد ، أين مريم المباركة ؟ » .

وفى الحال كشف أدهيمار عن مريم رائعة الشكل والملبس ، وهى تقف على بعد تسعة أو عشرة أذرع مع أجاثا المباركة وعذراء ممسكة بشمعتين^(٥) . وهنا تكلم ستيفين مع أدهيمار ، الذى كان يقف بجوار مريم : « ياسيدى كثيرة هى الإشاعات فى الجيش ، ومن بينها أن شعرك ولحيتك قد احترقا فى الجحيم ، وغير ذلك من القصص التى لا يمكن تصديقها . كذا فإننى أتضرّع إليك أن تعطينى واحدة من الشموع لأحملها إلى الكونت دليلاً على أوامرك » .

فرد أدهيمار قائلاً : « أنظر إلى وجهى ، ألا تراه محترقاً ؟ » . ثم سار الأسقف إلى مريم العذراء وعرف مشيئتها وعاد إلى ستيفين وقال له : « لا يمكن تحقيق رغبتك ، ولكن الخاتم الذى فى أصبعك لا فائدة لك منه ، ولا ينبغي أن تلبسه . لذلك فاذهب إلى ريموند ، وقدمه إليه وأخبره أن « العذراء ، المقدسة

جدا ، ترسل هذا الخاتم إليك ، وفى كل فشل استحضر إلى ذهنك السيدة مانتحة هذا الخاتم ، وتوسل إليها وسيساعدك الرب » .

ومرة أخرى استفسر ستيفين عن الأوامر الخاصة بأخيه ، وأجاب أدهيمار :
« إجمعه يقنع الأسقف المنتخب بإقامة ثلاثة قداسات للرب لأرواح أقاربنا . وأما مريم تأمر ألا تظهر الحرية المقدسة بعد ذلك إلا ويحملها كاهن يرتدى الملابس المقدسة ، وأن يسبقها الصليب على هذا النحو . وأمسك أدهيمار الصليب معلقاً من رمح وتبعه رجل يرتدى الملابس الكهنوتية ، والحرية المقدسة فى يده ، بينما الأسقف يردد :

" Gaude Maria Virgo Cunctas hereses sola unteremisti "

واشتركت مئات الآلاف من الأصوات التى لاحصر لها فى جوقة المرنمين السماوية واختفت جماعة القديسين ^(٦) .

وفى الصباح التالى ، كان أول ما سأل عنه ستيفن هو ما إذا كانت لدينا الحرية ، وعندما رآها انفجر باكياً ، وبدأ يحكى الرؤيا السابقة وما سمعه ورآه . وتأثر الكونت بذلك ، فأرسل وليام هيو أوف مونتيل ، شقيق أسقف لى بويه ، إلى اللاذقية حيث ترك صليب أدهيمار وقلنسوته .

فى هذه الأثناء استدعى بطرس بارثولوميو ، الذى كان قد أقعده المرض الناتج عن الضربات والجسروح التى نزلت به ، الكونت والقادة الآخرين إليه وأخبرهم : « لقد دنا الموت منى ، وأنا على وعى تام بأننى فى حضرة الرب سوف أحاسب على كل أعمالى ، أو كلماتى ، أو أفكارى الشريرة . وأمام الرب ، وفى حضوركم ، أشهد أننى لم أخترع أى شىء بخصوص كل الأشياء التى أبلغتكم بها على أنها من الرب والرسول . ولاشك أنكم سوف ترون تحقيق كلماتى إذا خدمتم الرب بصدق » . وبعد ذلك مات بطرس فى الساعة التى حددها الله فى سلام ودُفن فى البقعة التى عبر فيها النار ومعه الحرية المقدسة ^(٧) .

فى ذلك الوقت سأل ريموند والزعماء الصليبيون الآخرون أهالى المنطقة ، عن

أفضل الطرق إلى بيت المقدس ، وأقلها وعورة . وهكذا ، أتى إلينا بعض السوريين وسأستغل مجيئهم لاستطرد قليلا . فقد كان هناك نحو ستين ألفاً من المسيحيين يمتلكون جبال لبنان والمناطق المحيطة لسنوات طويلة ، ويخاطب هؤلاء المسيحيون باسم الصوريون حيث أنهم قريبون من Tyre التي تسمى الآن عادة صور Sur . وعندما زادت قوة المسلمين والأتراك بمشيئة الرب ، أجبر الكثير من الصوريون الواقعين تحت نيرهم لأربعمئة سنة أو يزيد على التخلي عن بلادهم وشريعتهم المسيحية .

ولكن إذا كان البعض قد تحدى المسلمين بفضل من الرب ، فقد أجبروا على تسليم أطفالهم لكي يتم ختانهم ، وتعليمهم القرآن ، أكثر من ذلك ، فإن الآباء كانوا يُقتلون بينما كانت الأمهات تلقين معاملة سيئة وينتزع أطفالهن من بين أحضانهن . لقد دفعت المشاعر الشريرة الملتهبة هذا الجنس من البشر ، إلى هدم كنائس الرب والقديسين ، وتحطيم الصور ، وفقاً عيون الصور التي لا يمكن تحطيمها ، واستخدام التماثيل هدفاً لسهامهم . وقلبوا الهياكل ، وحولوا الكنائس الكبيرة إلى مساجد . ولكن إذا رغب مسيحي واحد في صورة للرب أو لقديس في بيته ، فقد كان عليه أن يدفع ثمنا لذلك شهراً بعد شهر وعاماً بعد عام وإلا فإنه سوف يرى هذه الصورة وقد أُلقيت في الوحل وحطمت . والشيء الذي سأرويهِ الآن غير سار بالمرة . فقد وضعوا شبابهم في المواخير وتبادلوا شقيقاتهم بالخمر من أجل المزيد من الفسق ^(٨) .

وكانت الأمهات يخشين أن يبيكين على ذلك ، وعلى غيره من الآلام علناً . ولكن لماذا أضيع كل هذا الوقت عن السوريين ؟ من المؤكد أن هذا الجنس قد تأمر على قدس الأقداس وتراثه . ولولا أن الرب قد حصن بأمره ومبادرته الحيوانات المتوحشة ضد شرور ممثلة ، كما فعل مرة في وجودنا ، فإن الفرنجة كانوا سيلاقون مصائب السوريين إلا أن هذا يغطي الموضوع بشكل كافٍ ^(٩) .

وسئل الصوريون الذين تحدث عنهم فيما سبق ، في اجتماع مع ريموند أوف
سسان جيل ، عن الطريق وأجابوا : « إن طريق دمشق محدد ، ومزود بالطعام
الكافى ، لكن لا ماء به لمدة يومين . والطريق من خلال جبال لبنان ، مأمون
وتتوفر بها الضروريات ، لكنه وعراً جداً بالنسبة لجمال ودواب الحمل . وهناك طريق
آخر مع ذلك محاذٍ للبحر ، إلا أن به بعض الممرات الضيقة جداً ، حتى أن خمسين
أو مائة من المسلمين يمكن أن يصدوا عندها الجنس البشرى كله . ومع ذلك فإنه
مسجل فى إنجيلنا لبطرس المبارك ، أنه إذا كنتم أنتم الذين قُدرَ لهم أن يستولوا
على بيت المقدس ، فإنكم ستسيرون بحذاء ساحل البحر ، رغم أن مخاطره تجعله
يبدو مستحيلاً علينا . وهذا الإنجيل الذى كتب بيننا لا يتضمن فقط اختياركم
للطريق ، بل الكثير من أعمالكم السابقة ومسار الأحداث القادمة » (١٨) .

وأثناء تبادل الآراء ، عاد وليام هيو أوف مونتيل ، بالصليب المذكور آنفاً .
وأثارت رؤية الصليب مشاعر حاشية الكونت بخصوص الرحلة حتى أنهم خلافاً
لنصيحة ريموند وأمرأه آخرين ، أحرقوا ملاجئهم وكانوا أول من غادر عرقة .

إنفجر ريموند باكياً ، وبدأ يحتقر نفسه والآخرين ، ولكن الرب تجاهل
مشاعره مراعاة لإرادة جمهور الصليبيين . ومن ناحية أخرى ، فإن جودفرى الذى
كان تواقاً إلى استئناف الزحف راح يحرص الجماهير . وهكذا بعد أن تركنا هذا
المحاصر الكريه والمقوت لعرقة ، وصلنا إلى طرابلس حيث حاول ريموند - فى
مواجهة المعارضة الإجماعية للقادة - أن يغريهم بالتوسلات والمكافآت أن يحاصروا
طرابلس (١٩) .

وهنا ظهر القديس أندرو لبطرس ديزيديريوس ، وهو شخص أشرنا إليه من
قبل وأمره : « اذهب وأبلغ الكونت : « توقف عن إزعاج نفسك وإزعاج الآخرين ،
لأنك لا تستطيع أن تتوقع أى مساعدة من الرب ، حتى يتم الإستيلاء على بيت
المقدس أولاً . لا تنزعج لعدم اكتمال حصار عرقة . ولا تحمل همّاً إذا لم تسقط هى
ومدن أخرى فى الطريق . وفعلاً ، فإن هناك معركة وشبكة سيتم فيها فتح هذه

المدن هي ومدن أخرى أيضا . لهذا توقف عن إقلاق نفسك وأتباعك . وباسم الرب أعط بسخاء من عطاياء لك ، وكن أيضا رفيقا وصديقا مخلصا لرجالك . وسيعطيك الرب بيت المقدس والاسكندرية والقاهرة إذا فعلت ذلك . ولكن إذا لم تفعل فإنك لن تحصل على المكافآت التي وعد الرب بها ، ولن يكون لك ميراثا حتى تكون في عوز لا مفر منه .

وخضع الكونت لهذه الكلمات التي قالها الكاهن خضوعا باللسان فقط ، فقد تجاهلها بأعماله وأنكرها بتقثيره في الكنوز العظيمة التي نالها من ملك طرابلس . أكثر من ذلك ، فقد أثار غيظ أتباعه بالسب والتعنيف . وقد حكى بطرس ديزيدوريوس ذلك ، ومسائل أخرى كثيرة ، ننقل بعضها في هذا الكتاب .

فقد جاءني بطرس ديزيدوريوس أنا ، ريمونداجيل ، قبل ذلك بوقت طويل ، عندما كنا نفكر في مفادرة أنطاكية ، وأخبرني أنه رأى رؤيا أتى فيها إليه شخص وأمره : « إذهب إلى كنيسة ليونتيوس المبارك ، حيث ستجد بقايا أربعة قديسين ، فخذها وأحملها إلى بيت المقدس » . ومضى الشخص يرى بطرس الآثار ومكانها وأخبره بأسماء القديسين . ومع ذلك ، فإن بطرس تشكك في الرؤيا بعد أن استيقظ وصلى وتوسل إلى الرب أن يؤكد له مرة ثانية أن ذلك كان وحيا منه . وهكذا ، ظهر نفس القديس مرة أخرى ، وهدده لإهماله أوامر الرب . وقال أنه إذا لم يتم نقل البقايا قبل اليوم الخامس من الأسبوع ، فسيحل به ضرر كبير هو وسيده إيزوارد كونت أوف داي ، وهو رجل مخلص للرب بنوره وبحكمته وبركته التي نفعتنا ^(١٢) .

وقد كررت هذه القصة على مسامع أسقف أورانج ، وريموند سان جيل وآخرين بعد أن رواها لي بطرس . بعد ذلك مباشرة جئنا إلى كنيسة القديس ليونتيوس ونحن نحمل الشموع ، التي قدمناها مع النذر للرب وللقديسين في نفس الكنيسة . وسألنا الرب الذي جعل هذه الآثار مقدسة ، أن يعينها لتكون رفاقا لنا وعونا ، وسيكون هؤلاء القديسون مرتبطين بنا بدلا من احتقار زمالة

الحجاج ، ومن نفاهم الرب ، وسيكون ارتباطهم هذا بدافع من الحب المسيحى ، وهكذا يربطوننا بالرب . فى الصباح التالى ، وفى صحبة بطرس ديزيدوريوس أتينا إلى مكان آثار القديسين ، وكما حكى تماماً ، وجدنا بقايا القديس كيريان ، والقديس أوميخيوس ، والقديس ليونتيوس ، والقديس حنا ذهبى الفم^(١٣) . كما وجدنا هنا أيضا خزانة بها آثار لم يتعرف عليها الكاهن . وعندما سألنا الوطنيين ، حاروا فى تعريفها ، فقال البعض أنها للقديس مركوريوس ، وبينما ذكر آخرون أسماء قديسين مختلفين . وبفض النظر عن غموض أمرها ، فقد أراد ديزيدوريوس أن يجمعها ويضعها مع الأخرى^(١٤) .

فقلت أنا - ريمونداجيل - فى حضور كل الجماعة بقوة أنه : « إذا كان هذا القديس يرغب فى الرحيل معنا إلى بيت المقدس ، فليعلن اسمه ورغبته ، وإلا فليبق فى هذا التابوت . هل نزيد من أعبائنا بحمل هذه العظام المجهولة ؟ » ونتيجة لكلامى تركنا العظام التى لم يتعرف عليها أحد فى ذلك الوقت .

وفى الليلة التالية لجمع الكاهن للبقايا الأخرى ولفها فى الأقمشة وفى غطاء ، وقف شاب وسيم فى حوالى الخامسة عشرة أمام هذا الكاهن فى صلاة الليل وسأل : « لماذا لم تحمل رفاتى اليوم مع الآخرين ؟ » .

وهنا سأل الكاهن « ومن أنت ؟ » واستمر الشاب يسأل : « ألا تعرف اسم حامل راية هذا الجيش ؟ » واعترف بطرس : « لا ياسيدى » . وعندما كرر بطرس نفس الإجابة قال له الشاب بعنف : « أخبرنى بالحقيقة » .

وهنا رد بطرس : « ياسيدى ، يقال أن القديس جورج هو حامل راية هذا الجيش » . وهنا قال الشاب : « صحيح ماتقول . إننى أنا القديس جورج وأنا أمرك أن تجمع رفاتى وتضعها مع الآخرين »^(١٥) .

ومع ذلك فبمرور الأيام دون أن ينفذ الكاهن الأمر عاد القديس جورج وطلب منه بغلظة : « لاتدع الصباح يمر دون أن تجمع رفاتى . وخذ أيضا قنينة من دم

مريم العذراء والشهيدة تقلا Thecla ، وستجدها قريبة . ورتل القداس « .
 وفى هذه المرة وجد بطرس ديزيدوريوس كل هذه الأشياء ونفذ أوامر القديس
 جورج ^(١٦) . وقبل أن نواصل قصتنا يجب أن نذكر أولئك الرجال الذين تجرأوا
 وأبحروا على سطح البحر المتوسط الغربى الشاسع . والمحيط ، حياً فى القيام
 بالحملة الصليبية . فعندما سمع هؤلاء الإنجليز أخبار الحملات الصليبية التى تُشن
 باسم انتقام الرب من أولئك الذين دنسوا الأرض التى ولد فيها المسيح ورسله ،
 أبحروا فى البحر الإنجليزى وداروا حول ساحل إسبانيا ، مبحرين عبر المحيط
 وماخرين عباب الأمواج فى البحر الأبيض المتوسط ، وبعد جهد جهيد وصلوا
 أنطاكية واللاذقية قبل جيشنا . وقد ضمن لنا الإنجليز ، وأيضاً الجنوية ، التجارة
 من قبرص والجزر الأخرى ، فأثبتوا بذلك نفعهم ومعاونتهم . كانت هذه السفن
 تبحر يومياً فتروح وتغدو فى البحر ، فتبث الرعب فى قلوب المسلمين وتجعل
 إبحار السفن اليونانية أمراً مأموناً . ومع ذلك فعندما رأنا الإنجليز ننطلق إلى بيت
 المقدس ، ورأوا خشب السرو المصنوعة منه سفنهم يتآكل ويتعفن لطول عهده حتى
 لم يبق من الثلاثين سفينة إلا تسع سفن أو عشر ، هجر البعض السفن ونزلوا إلى
 الشاطئ ، بينما أحرق آخرون قواربهم وأسرعوا ينضمون إلى الزحف على بيت
 المقدس ^(١٧) .

وتباطأ أمراؤنا أمام طرابلس حتى زرع الرب فيهم الرغبة فى مواصلة الرحلة
 بحيث زالت كل معارضة . وهكذا فعلى خلاف عادتنا ، وأوامر الأمراء ، وصلنا
 ليلاً ، وسرنا طوال الليل ، ووصلنا بيروت فى اليوم التالى . وبعد أن استولت
 طليعتنا فجأة على ممر (مرتقى صور) Bucca Torta ، وصلنا عكا دون أن
 يمنعنا شيء ، وفى خلال أيام قليلة ^(١٨) . وخاف ملك عكا من الحصار ، وتطلع
 بقلق إلى رحيلنا ، فأقسم لريموند على مايلى : « أنه سوف يسلم نفسه وعكا
 للصليبيين ، إذا استولينا على بيت المقدس ، أو بقينا فى فلسطين لمدة عشرين
 يوماً دون أن نضطر إلى الاشتباك مع ملك مصر ، أو إذا هزمنا هذا الملك . وفى
 هذه الأثناء ، فإن ملك عكا وعد بتقديم صداقته ^(١٩) . وبعد ذلك رحلنا من عكا
 فى مساء أحد الأيام وعسكرنا بالقرب من المستنقعات القريبة .

عن الحماسة التي حملت رسائل لقتل المسيبيين

كما جرت العادة في ذلك الوقت ، فبينما راح البعض يجرى هنا وهناك ، بحثاً عن الضروريات ، والبعض يبحث عن موقع خيام أصدقائه ، ألقى صقر حام فوق المعسكر ، بحماسة مصابة بجرح قاتل في المعسكر الذي كان في لفظ وضوضاء . وعندما التقط أسقف أبت الحماسة ، وجد رسالة كانت تحملها .

كانت الرسالة تقول : « التحيات من ملك عكا إلى دوق قيسارية . لقد اجتاح بلادى جبل من الكلاب ، من عنصر أحقق عنيد غير منظم . إذا كنت حريصاً على حياتك فيمكنك أنت والمسلمين الآخرين أن تلحقوا بهم الأذى طالما يمكنك أن تفعل ما تريد بسهولة ، إنقل هذه الرسالة إلى المدن والحصون الأخرى . وفي الصباح ، عندما انتظم الجيش في ارتخاء ، أعلنت محتويات الرسالة . وهكذا تجلّى لنا عطف الرب ، وهو عطف منع الطيور الطائرة من أن تلحق بنا الضرر ، وكشف أسرار أعدائنا (٢٠) .

فصجّدنا الرب القادر على كل شيء ، وشكرناه ، ثم رحلنا بلا خوف ، وبخفة ونشاط ، ونحن نسير إلى الأمام وإلى الخلف في صفوف . وعندما سمع سكان الرملة المسلمون أنباء عبورنا نهر قريب ، تركوا قلاعهم وأسلحتهم ، وأيضاً الكثير من الحبوب في الحقل ، ومحصولات محصودة . وهكذا ، فعندما وصلنا في اليوم التالي كنا على يقين من أن الرب يحارب من أجلنا . وهنا ، نذرنا النذور للقديس جورج ، قائدنا المعترف به . وقرر زعمائنا والجمهور اختيار أسقف لأننا وجدنا هنا أول كنيسة لإسرائيل . كما شعرنا أن القديس جورج سيكون شفيعنا عند الرب ، وسيكون قائدنا المخلص من خلال مقر إقامته .

ولما كانت الرملة تبعد خمسة عشر ميلاً عن بيت المقدس ، فقد عقدنا مجلساً هناك ، وقال البعض : « أجّلوا الزحف الآن ، وتحولوا إلى مصر ، وإذا استطعنا بفضل الرب أن نفتتح مملكة مصر ، فإننا لن نكسب بيت المقدس

فقط بل أيضا الاسكندرية والقاهرة . وممالك كثيرة . ومن ناحية أخرى ،
فإذا نحن زحفنا على بيت المقدس وتخيلنا عن الحصار لنقص المياه ، فإننا لن
نتجع أبداً .

بينما قالت المجموعة الأخرى : « على الرغم من أن قوتنا لا تكاد تبلغ ألفاً
 وخمسمائة من الفرسان ، وعدداً صغيراً من المشاة المسلحين ، فإن البعض كان يحبذ
 القيام بحملة إلى أرض غربية ، وبعبدة تعزلنا عن معاونة بنى جلدتنا . وعليه ،
 فإن الفرص قليلة في الاحتفاظ بمدينة يتم الاستيلاء عليها ، أو امتلاك طريق
 للهروب عند الحاجة . وليس في هذا أي نفع . فلنتمسك بطريقنا وليتول الرب أمر
 الحصار والعطش والجوع والأشياء الأخرى ^(٢١) .

* * * * *

هوامش الفصل الثالث عشر

(١) بدأ حصار الفرنج لعرقة في ١٤ فبراير ١٠٩٩م وانتهى في ١٣ مايو ١٠٩٩م . وهكذا استمر الفرنج في حصار عرقة لمدة ثلاثة أشهر كما حدد مؤلف الجستا . بينما حدد ابن الأثير فترة الحصار بأربعة أشهر . ومن المرجح أو رواية مؤلف الجستا هي الأقرب إلى الصحة . انظر : ابن الأثير : الكامل ، ج ١ ، ص ١٥ .

Gesta, pp. 83, 85.

راجع أيضا :

ومن الملاحظ أن مؤلف الجستا المجهول كان حريصا دائما على أن يحدد الأيام التي تقع فيها أحداث تاريخه إلى جانب التواريخ التي تقع فيها هذه الأحداث . فبينما يكتفى ريمونداجيل - في كثير من الأحيان - بذكر الحدث دون تحديد تاريخ له . (الترجمة العربية) .

(٢) كان أمير طرابلس في ذلك الوقت هو جلال الملك أبو الحسن بن عمار . ولا تزال طرابلس موجودة حتى الآن . وهي مدينة جميلة بالقرب من بيروت . وقد أسس كونت تولوز - فيما بعد - كونتية له هناك ، ولا تزال قلعته موجودة حتى الآن . وقد أهدى أمير طرابلس - في بداية الأمر - رغبته في التفاوض مع الفرنج ، إلا أنه لم يلبث أن طلب المعونة من بغداد .

(٣) لم يكن العرض الذي قدمه ابن عمار للفرنج نظير التخلي عن حصار عرقة ، ولكن لعدم التعرض لطرابلس نفسها . كما يزيد مؤلف الجستا على ما ذكره ريمونداجيل أن ابن عمار قدم للفرنج خمسة عشر حصانا أصيلا ، كما عرض عليهم أن يرتد هو إلى المسيحية ، إذا ما انتصر الفرنج على الجيش الفاطمي ، وأن يحكم في بلاده تحت حكم الفرنج . وهذا ما عرضه ستيفن رنسيومان على أنه حقيقة تاريخية . إلا أن كل ما قدمه ابن عمار للفرنج لم يتعد في طبيعته المهادنة حتى يتخلص من شروهم وهو يرى الجبهة الإسلامية مفككة ، وكان من الصعب عليه نيل المساعدة من الفواطم أو من السلاجقة ، والدليل على ذلك أنه حين وجد في عام ١١٠٢م أن ريموند كونت تولوز مصر على الاستيلاء على طرابلس بدأ يستعد للتصدي له ، ولم يعد يحرص على استقلاله بين القوى المتنازعة من فواطم مصر وسلاجقة في حلب ودمشق ، وبدأ يلتقي بنفسه - كرها - بين أحضان القوى الإسلامية القريبة لمواجهة خطر كونت تولوز . أما مسألة الإرتداد عن الإسلام ، التي ترد في كثير من المصادر اللاتينية فهذه قضية لا أساس لها من

الصحة ، وستتناولها كما ذكرنا من قبل فى بحث مستقل إن شاء الله . انظر :
Gesta, p. 85.

راجع أيضا : سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٤) وصل مبعوثو الامبراطور إلى الفرنج فى ١ أبريل حسب رواية ريمونداجيل . انظر :
Grousset, op. cit., p. 137.

وقد ناقش رنسيمان هذه القضية (Runciman, op. cit., p. 272) كما عالجها أيضا
كرى : أنظر :

A.C. Krey Irbans Crusade - Success or Failure, in AHR, 43, 1948, p. 243.

والمناظرات التى قدمها ريمونداجيل مكررة . ففريق كان يرغب فى الإندفاع إلى بيت
المقدس ، وفضل كونت تولوز ، الذى فقد شعبيته بسبب سياسته البيزنطية ، انتظار
وصول ألكسيس . وكان هوهيمند قد كشف بالفعل عن نواياه بنقضه لقسمه أمام
الامبراطور حين استولى لنفسه على أنطاكية . والمؤرخ هنا يتوق لاستئناف الرحلة إلى
بيت المقدس ، ويعطى صورة مخذلة لكونت تولوز . ويستعمل المؤرخ النزاع بين قادة
الفرنج لجعل من تهم التراخى والتكبر والغيرة كوسائل ينقل بها إلينا علوم الكنيسة
التي يعرفها . وتشير الدلائل على أن الخلاف بين قادة الفرنج لم يكن شديدا كما صور
ريمونداجيل .

(٥) عاشت القديسة أجاثا Saint Agatha فى عهد الامبراطور Decius وقد قاومت وإلى
صقلية فعذبت وأمر بحرقها حية ، ووقعت هزة أرضية أفزعت الجمهور الذى احتشد
لمشاهدتها تحترق فى الوقت الذى بدأت تحترق فيه كومة القش من تحتها . فتأجل
إحراقها ، وماتت فى سجنها فى ٥ فبراير ٥٢١ م . ولها تمثال وهى تمسك فى يديها
بكلايات وأدوات التعذيب .

- صدر فى عهد الامبراطور دكيوس (٢٤٩ - ٢٥١ م) أول مرسوم عام باضطهاد
المسيحية . وكان ذلك راجعا إلى الظروف السياسية والعسكرية والاقتصادية التى كانت
تمر بها الامبراطورية إبان ما عرف بأزمة القرن الثالث . فكان مرسوم الاضطهاد تعبيراً
عن نظرية الأباطرة الرومان والوثنيين من أن اضطهاد المسيحية ضرورة لأمن
الامبراطورية . انظر : رأفت عبد المجيد ، الدولة والكنيسة ، ص ١٤ .
(الترجمة العربية) .

(٦) « إفرحى يا مريم العذراء » استخدم هذا التعبير كرد أثناء الصلوات . وأحيانا كان يستخدم كترتيل .

- ورد هذا التعبير باللاتينية فى الترجمة الانجليزية . ومعناه بالعربية :
« إفرحى يا مريم العذراء ، فإن أتباعك وحدهم قد ظهروا على جميع الطوائف » .
(الترجمة العربية) .

(٧) يذهب فولشر أوف شسارتر ، الذى أورد رواية موجزة لاختبار النار ، إلى أن بطرس بارثلميو كان محتالا ، وأن الذين آمنوا برواية الحرية المقدسة أصبحوا متشككين فيها الآن . انظر :

Fulcher (Hagenmeyer edition,) Book 1, chap. 18, p. 241.

وكان رادولف أوف كان أكثر المؤرخين إنتقادا لقصة الحرية المقدسة واستخدامها فى هجومه ضد البروفنساليين . وقد مات بطرس بارثلميو فى ٢٠ أبريل ١٠٩٩ م .
انظر : Hagenmeyer, Chr. 367.

(٨) مرة أخرى يستمتع المؤرخ بالفزع الذى تسببه الشرور التركية ، ولكن بأسلوب نتوقعه من المهتمين بإحياء الثقافات القديمة اللاحقين ، يقرر المؤرخ أن مهمته غير سارة بالمرّة . وعبارته عن وضع الشباب فى المواقف ، من المحتمل أنها مقتبسة من العهد القديم .
انظر : Joel : 3 : 3; Breviarium Autumnalis.

وكان سفر جويل يقرأ فى الأسبوع الرابع من شهر نوفمبر . ونسل هؤلاء المسيحيين هم المسيحيون المارونيون الآن .

(٩) تشير رواية ريمونداجيل عن تحصين الحيوانات المتوحشة إلى معركة عسقلان التى ستحدث فيما بعد عندما سار قطع من الماشية ملازما الجيش الصليبي .

(١٠) عند المناقشة الخاصة بأنجيل بطرس المبارك . انظر :

Clemens Klein, Raimund von Aguilers, Berlin, 1892, pp. 72 - 75.

(١١) وليام هيو أوف مونتيل William Hugh of Monteil شقيق لأدهيمار . وقد استخدم الصليب كعوض عن قيمة الحرية المقدسة . بالإضافة إلى ذلك ، فإن مؤلف الجستا لم يناقش إحجام كونت تولوز عن الرحيل إلى بيت المقدس . ومن ناحية أخرى فمن الواضح أن المؤرخ كان حائقا على الكونت ويستخدم سلسلة من الرؤى لتحذيره . كما نجد المؤرخ =

== يجعل الكونت - فى روايته - يبذل كل جهد لمنع استئناف المسير إلى بيت المقدس . إلا أن المؤرخ يوضح أن الكونت كان يضع الخطط مع القادة الآخرين لاستئناف الرحلة . ومن المحتمل أن كونت سان جيل كان مقترا وهو يوزع المغنم التى أخذها الفرنج من طرابلس ، وأن قسبته الخاص (المؤرخ) استخدم معلوماته الكنسية ليجعل منه دراسات أخلاقية . عن منهج المؤرخ . انظر :

John and Laurita Hill, Raymond IV, pp. 123 - 126.

(١٢) القديس ليونتيوس Saint Leontius من طرابلس . وهناك أيضا معلم لاهوت من القرن السادس يحمل اسم ليونتيوس . أما إيزوارد Isoard ، كونت داي Die ، فهو من مدينة داي التى تقع إلى الجنوب الشرقى من فالنس Valence .

(١٣) القديس كيريان Saint Cyprian (٢٠٠ - ٢٥٨ م) هو أسقف قرطاجنة Carthage الذى تورط فى اضطهادات الإمبراطور فاليريان . وقطعت رأسه فى ١٤ سبتمبر ٢٥٨ م . وهناك أيضا القديس كيريان الذى عاش زمن الامبراطور دقلديانوس ، فى آسيا الصغرى ، ومن المحتمل أن المؤرخ يشير إلى مخلفاته بالرغم من وجسود بعض الشك فى ذلك .

والقديس حنا ذهبى الفم Saint John Chrysostom (٣٤٥ - ٤٠٧ م) أصبح فى بداية حياته ناسكا ليتخلى عن شكل الحياة هنا ويعود إلى التبشير . وعين فى عام ٣٩٨ م أسقفا للقسطنطينية . وفى مركزه هذا أظهر عداوة شديدة جعلت الإمبراطور هثوريوس يأمر بنفيه . ومات فى عام ٤٠٧ م وهو فى طريقه إلى منفاه فى صحراء بيبوس Pithyus .

والقديس أوميخيوس Saint Omechios من المحتمل أنه لهجة محلية لإسم القديس إبيماخوس Saint Epimachus .

- فى الحقيقة لم يكن الإمبراطور الغربى هثوريوس (٣٩٥ - ٤٢٣ م) هو الذى أمر بنفى حنا ذهبى الفم ، بل نفى الرجل بناء على أوامر الإمبراطورة إيودوكيا Eudocia زوجة أركاديوس إمبراطور الشرق (٣٩٥ - ٤٠٨ م) . وقد عاصر حنا حكم خلفاء قسطنطين الأول ، ثم حكم ثيودسيوس الأول (٣٧٩ - ٣٩٥ م) ثم عهد ولديه . وكان حنا قسيسا من مواطنى أنطاكية فى شمال الشام . وتعلم على الفيلسوف الوثنى لبيانيوس Libanius ، ثم درس علوم الكنيسة ، حتى أصبح قسيسا . ثم اعتزل لمدة ست سنوات عاش فيها حياة النسك والرهبة . وحين خضعت أنطاكية للضرائب الباهظة ==

التي فرضها ثيوديسيوس ، وضع حنا كتابه (عن التماثيل) وبه احدى وعشرين عظة .
وسرعان ما توجه حنا إلى القسطنطينية في عهد أركاديوس ، وألقى عظاته في كنيسة
آيا صوفيا ، وتعرض فيها لفساد حياة النساء وبعض رجال الدين وأخلاقهم ، ولانحلال
المسيحيين . وفي النهاية دبر ثيوفيلوس أسقف الاسكندرية مؤامرة ضد حنا انتهت بتنفيه
إلى مدينة كوكسوس الواقعة بين جبال طوروس في قيليقية . وعاش حنا مواصلاً إلقاء
عظاته ، واتصل بأبعد ولايات الإمبراطورية ، وبالبابا الروماني والامبراطور الغربي
هنريوس ، واستغل المعارضين لآرائه اسم أركاديوس ، وتم إبعاده حنا إلى منفاه الجديد
على شواطئ البحر الأسود ، إلا أنه مات في الطريق عند كوماننا وهو في الستين من
عمره . وللمزيد عن حياة يوحنا ذهبى الفم ، انظر : إدوارد جيبرون : اضمحلال
الامبراطورية الرومانية وستوطها ، ٣ ج ، نقله إلى العربية لويس اسكندر ، القاهرة ،
١٩٦٩ م ، ج ٢ ، ٢٣١ - ٢٤١ ، رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة ، ج ٤ ،
القاهرة ١٩٨٣ م ، ص ١٠٣ - ١٠٥ .
(الترجمة العربية) .

(١٤) القديس ميركوريوس Saint Mercurius كان جنسديا أرمنييا قطعت رأسه حوالى عام
٢٥ م . وهناك من يدعى بالقديس ميركوريوس والمعروف في الشرق والغرب بأنه قتل
جولييان بخرية .

(١٥) رد القديس جورج « صحيح ماتقول » مقتبس من العهد القديم . انظر : Psalm, 84:1
وكان يقرأ في اليوم السادس من التبجيل . والقديس جورج شخصية خيالية من
المفروض أنه قتل في نيقوميديا حوالى عام ٣٠٠ م ، ونقلت عظامه إلى اللد ، مسقط
رأسه . وتربط الأسطورة الذهبية بين القديس جورج وبين تنين . ويبدو أنه كان يبدل
لبيرسوس Perseus الذي قتل الوحش البحرى .

(١٦) القديسة ثفلا Thecla قديسة مشهورة ، أطلق عليها لقب « الشهيدة الأولى » . وقد
تلقت تعاليمها على أيدي بولس ، وكانت لها شعبيتها خاصة في العصر الوسيط بسبب
محاكمتها باختبار النار وبالشدائد الأخرى .

(١٧) لا يذكر المؤرخ أسما ، قادة الأساطيل ويستعمل عبارات مبهمه . ويدفعنا رنسيما إلى
الاعتقاد بأن الإخوة إميرياكو Embriaco هم قادة السفن الجثرية . انظر : =

Runciman, op. cit., pp. 275, 282.

ويخبرنا وليم الصوري عن سفن جرينمر Guinmer ورفاقه التي جاءت من الفلاتدريز ، ونورمانديا وإنجلترا ، بالإضافة إلى سفن من جنوا والهندية واليونان . انظر :

William of Tyre (Babcock and Krey translation), p. 330.

(١٨) جاء وصف ريمونداجيل للرحلة من طرابلس وحتى بيت المقدس موجزا للغاية . بينما جاءت رواية مؤلف الجستا أكثر تفصيلا . ولم نترجم كلمة Bucca Torta . وهذا الاسم غير مضبوط . وقد كتب وليم الصوري عن « محرضيق بين الجبال البارزة وبين البحر » التي تفتح الطريق إلى سهل عكا . انظر : William of Tyre, op. cit., p. 332. - ترجمنا Bucca Turta بمعنى « مرتقى صور » نقلا عن رنسيمان . انظر :

Runciman, op. cit., vol. 1, p. 276.

(الترجمة العربية) .

(١٩) وصل الصليبيون إلى عكا في ٢٤ مايو ١٠٩٩ م . انظر :

Hagenmeyer, Chr., 377.

(٢٠) قيسارية ، مدينة قديمة . كانت بها حامية فاطمية تجنبت الاشتباك مع الفرنج . وقد عثر الصليبيون خلال الأربعة الأيام التي مكثوها بالقرب من قيسارية على حمامة زاجلة تحمل رسالة من حاكم عكا إلى قائد الحامية الفاطمية في قيسارية . ويستغل المؤرخ هذا الحدث لمناقشة عطف الرب على الفرنج .

- لم نقف على اسم حاكم عكا أو اسم قائد الحامية الفاطمية في قيسارية في مختلف المصادر العربية . وأول اسم لحاكم عكا منذ قدوم الفرنج إلى بلاد الشام كان . زهر الدولة الجيوشي ، الحاكم الباطني لعكا ، حين هاجمها وفتحها بولدوين الأول ملك بيت المقدس في عام مايو ١١٠٤ م . انظر : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٩ ج - القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٣٤٨ - ١٣٦١ هـ ، ج ٥ ، ص ١٨٨ .

- أما قيسارية فهي مدينة بساحل الشام بينها وبين الرملة ٣٢ ميلا ، وبينها وبين عكا ٣٦ ميلا . انظر : أبو الفدا : تقديم البلدان ، نشره رينو وديسلان ، باريس ، ١٨٤٠ م ، ص ٢٣٩ .

(الترجمة العربية) .

(٢١) الرملة Ramla (Rama - al-Ramlah) . وقد أقام الفرنج هنا أسقفية لاتينية واختاروا روبرت أوف روين Robert of Rouen لإدارتها . وتبدو رواية ريمونداجيل ، عن المجلس الذى عقده الفرنج والذى فشل بسبب الخلاف حول الاستمرار فى الرحلة إلى بيت المقدس ، رواية مشكوك فيها . وهناك احتمال ضئيل أن يكون الصليبيون قد انشغلوا عن حصار بيت المقدس فى المرحلة الأخيرة . وقد وصل اللاتين إلى الرملة فى ٣ يونية ١٠٩٩ م . انظر :

Hagenmeyer, Chr., 382.

— والرملة هى إحدى مدن فلسطين ، شيدها سليمان ابن عبد الملك ، وسميت كذلك لقلعة الرمل عليها ، بينها وبين بيت المقدس مسيرة يوم واحد ، بينها وبين قيصرية مرحلة ، انظر : القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٩٩ .
(الترجمة العربية) .

الفصل الرابع عشر

حصار مدينة بيت المقدس والاستيلاء عليها

وحملنا جمالنا ، وثيراتنا ، ودواب الحمل الأخرى ، وانطلقنا إلى بيت المقدس بعد أن استأذنا الأسقف وحاميته . وفى اندفاعنا الجنونى بسبب الطمع فى الاستيلاء على القلاع والمنازل ذات الحقائق ، لم نتذكر أو نعبأ بأمر بارثولوميو ، بلأنا نقرب من بيت المقدس ، إذا كانت تبعد عنا فرسخين إلا ونحن حفاة الأقدام . وكان من العادات المتبعة ألا يستولى أحسد على قلعة أو مدينة ترفع أحد أعلامنا ، ويكون أول من وضع يده عليها أحد رجالنا . وهكذا دفع الطموح الكثيرين إلى أن يخرجوا من فراشهم فى منتصف الليل دون أن يصحبهم رفاقهم ، ويستولوا على كل القلاع الجبلية والمنازل التى تحيطها الحقائق فى سهل الأردن . ولكن قلة حافظت على أمر الرب ، وساروا حفاة الأقدام ، وهم يصعدون التنهيدات العميقة إلى الرب ، وبسبب التبجح على إرادته ، ولكنهم لم يتذكروا صديقا ولا رفيقا واحداً ممن ساروا فى طريق الباطل . وعندما اقتربنا من بيت المقدس فى هذه المسيرة المتعجرفة (المتكبرة) ، ضرب أهل المدينة طليعتنا ، وأصابوا بعض خيولنا بجراح خطيرة ، كما أصابوا كثيراً من رجالنا وقتلوا ثلاثة أو أربعة من صفوفنا .

وإذا انتقلنا إلى الحصار ، فإننا نلاحظ أن جردفرى وكونت الفلاتدر ، وكونت نورماندى ، عسكروا إلى الشمال ، وضربوا الحصار حول بيت المقدس من كنيسة القديس ستيفن التى تقع فى الوسط ، إلى البرج الذى يقع فى الزاوية مجاوراً لبرج دارد^(١) . واستقر ريموند مع جيشه فى الغرب ، وحاصر المدينة من خط الدوق إلى سفح جبل صهيون . ومع ذلك ، فقد كان هناك واد عميق بين معسكره والأسوار ، يحول دون الإقتراب بيسر من المدينة ، وكان سبباً فى أن يرغب فى تغيير معسكره وموقعه . وفى أحد الأيام ، وبينما كان ريموند يحاصر بيت المقدس ، توقف وزار كنيسة جبل صهيون ، حيث سمع عن معجزات الرب هناك ، وتأثر جداً ، حتى أنه خاطب الأمراء والحاضرين قائلاً : « ماذا سيحدث

لنا لو أننا تخلينا عن هذه الهبات المقدسة ، واستولى عليها المسلمون ، وربما دُئسوها وحطموها لكراهيتهم للصليبيين ؟ ^(٢) . ومن بدرى أليس من الممكن أن تكون هذه الهبات من الرب اختباراً لمدى حبنا له ؟ إننى أعرف أن الفشل فى حراسة كنيسة جبل صهيون بحماس سيجعل الرب يمنع عنا مثل هذه البقاع فى بيت المقدس .

وبناء على ذلك ، وخلافاً لرغبات الأمراء ، أمر كونت تولوز بنقل معسكره إلى جبل صهيون . وكانت هذه الحركة سبباً فى استياء رجاله ، الذين لم يكونوا يرغبون فى تغيير المعسكر ، والاستمرار فى المراقبة ليلاً ، وهكذا فباستثناء قلة ذهبت إلى جبل صهيون ، بقى الآخرون كلهم فى المعسكر الأصيل . ولكن الكونت ظل يحسى موقعه يومياً بدفع مبالغ ضخمة من المال لفرسانه ومشاته .

سأستطرد الآن لأذكر بعض الأشياء المقدسة هناك قبر داود وقبر سليمان وقبر الشهيد الأكبر القديس ستيفن . وهناك ماتت مريم المباركة ، وهناك أكل المسيح وظهر بعد قيامه لحوارييه ولتوماس . وفى هذا المكان ذاته أوقف الرسل بمجىء الروح القدس .

وفى أحد الأيام ، بعد حصار بيت المقدس ، أخبر ناسك على جبل الزيتون بعض الأمراء هناك أن : « الرب سيعطيكم بيت المقدس ، إذا هاجتموها غدا حتى الساعة التاسعة » .

ورد المسيحيون : « ليس لدينا أى آلة من آلات الحصار » .

فقال الناسك : « إن الرب قادر على كل شئ ، حتى أنه إذا أراد ، فإنكم ستستطيعون تسلق السور بسلم واحد . إنه مع أولئك الذين يعملون من أجل الحق » . وهكذا هاجموا بيت المقدس فى الصباح التالى حتى الساعة الثالثة بأسلحة الحصار التى استطاعوا تدبيرها أثناء الليل . فحطموا السور الخارجى ، وأجبروا المسلمين على التراجع إلى السور الداخلى . وتسلق عدد صغير من الصليبيين

التحصينات الداخلية . وفى اللحظة التى صار سقوط المدينة وشيكاً ، توقف الهجوم بسبب التخاذل والخوف (٣) .

وبعد هذا التخاذل ، راح المسيحيون يبحثون عن الطعام فى المناطق المجاورة ، وتحبأهلوا الإعداد لهجوم جديد ، وفضل كل واحد منهم أن يشبع فمه ويطنه . والأحقر من ذلك أنهم لم يُصلّوا للرب ليخلصهم من الشرور الكبيرة الكثيرة التى كانت تهدد حياتهم ذاتها . فقد جاءت تهديدات جديدة من المسلمين الذين سدوا أفواه الآبار ، ودمروا صهاريج المياه ، ومنعوا تدفق العيون ، وكل ذلك يذكرنا بالرب الذى « يحول الأنهار إلى بركة ، وعيون الماء إلى أرض جافة لمن يعيشون فيها » . وهكذا أصبح الماء شحيحاً جداً لهذا السبب .

وتتدفق بركة السلوان وهى نبع كبير عند سفح جبل صهيون مرة كل ثلاثة أيام ، ولكنها ، كما يقول الوطنيون ، كانت تتدفق يوم السبت فقط وتصيح مستنقعا بقية الأيام . وبالتأكيد فليس لدينا تفسير لهذه الظاهرة إلا أنها إرادة الرب . وتقول الروايات أنه عندما كانت تتدفق فى اليوم الثالث ، فإن التدافع الجنونى العنيف لشرب الماء ، كان يجعل الكثيرين يلقون بأنفسهم فى البركة ، ويتسبب فى هلاك كثير من دواب الحمل والماشية ، وذلك فى غمار التزاحم . فكان الأقوياء يتدافعون فى استماتة ويخوضون فى البركة الفاصة بالحيوانات الميتة ، والبشر المتصارعين حتى المصب الصخرى الذى يتدفق فيه الماء ، بينما يضطر الضعفاء إلى الاكتفاء بالماء القذر .

كان الضعفاء يزحفون على الأرض بجوار النبع بأفواه فاغرة ، وقد أخرجهم جفاف ألسنتهم وامتدت أيديهم إلتماساً للماء من الذين هم أكثر حظاً . وفى الحقول ، كانت تقف الخيول والبغال والماشى والأغنام وحيوانات أخرى كثيرة لم تعد تقوى على أن تخطو خطوة واحدة . وهناك كانت هذه الحيوانات تذوى وتموت عطشاً ، وتتعفن فى مواقعها ومملاً الجو برائحة الموت العفنة (٤) . فاضطر المسيحيون ، والحال هكذا ، إلى حمل الماء فى جهد ومشقة من عين تبعد فرسخين

أو ثلاثة ، وليستوا ماشيتهم هناك ولكن المسلمين علموا أن رجالنا يروحون جيئة
وذهابا فى طرق وعرة ، وهم غير مسلحين ، فكمنوا لكثيرين منهم ، وقتلوا
الكثيرين وأسروا الكثيرين ، واستولوا على ماشيتهم وقطعانهم . وكان ثمن الماء
المجلوب للبيع فى أوعية مرتفعاً إلى أقصى حد ، وكان مبلغ خمسة أو ستة
نوميسما Nummi^(٥) لا يكفى لكمية مياه نقية تكفى يوماً واحداً لشخص
واحد .

أما الحمر ، فلم يذكر بالمرّة إلا فيما ندر . وما زاد من شدة العطش ، الحر
اللافح ، والتراب الخانق والرياح الشديدة . ولكن لماذا أضيع الوقت فى تلك الأمور
الفانية ؟ لم يكن هناك إلا قلة يفكرون فى الرب أو فى ضروريات الحصار ولم
يصل الصليبيون طلباً لرحمة الرب . وهكذا كنا نتجاهل الرب فى شدائدنا وبدوره لم
يهتم بالجاهدين .

فى ذلك الوقت ، جاءت ، الأنباء برُسُوسْت من سفننا فى يافا ، وجاءت
معهما أيضاً مطالبة البحارة لنا بأن ترسل حامية لحماية أبراج يافا وسفنهم فى
الميناء . كانت يافا تبعد مسيرة يوم ، وهى أقرب ميناء إلى بيت المقدس ، ولكن
لم يبق من الموقع المحطم إلا القليل باستثناء برج واحد سليم فى قلعة دمرت
تدميراً شديداً^(٦) . وفرح الصليبيون وأرسلوا الكونت جيلديمار كارينيل مع
عشرين فارساً وحوالى خمسين من المشاة ، ثم أرسلوا بعده ريموند بيليه ، مع
خمسين من الفرسان ، وأخيراً وليام سابران ورجاله . وعندما وصل جيلديمار إلى
سهل بالقرب من الرملة ، كان هناك أربعمئة من قوات العرب الأقوياء ومائتان من
الأتراك يسدون الطريق^(٧) .

وسحب جيلديمار فرسانه ورماته ، الذين كانوا فى الصفوف الأمامية ، بسبب
قلة عدد رجاله . وزحف فوراً على الأعداء وهو واثق فى عون الرب له . واندفع
الخصوم إلى الأمام وهم على يقين من أنهم يستطيعون إبادة المسيحيين ، وأطلقوا
السهم ، وأحاطوا بهم ، وقتلوا أربعة فرسان ، فضلاً عن أشارد أوف مونتميريل ،

وهو شاب نبيل وفارس مشهور^(٨) . كما قضوا تماما على كل رماتنا وجرحوا آخرين من قوات جيلديار ، لكن الأمر لم يخل من تكبدهم خسائر فادحة .

وعلى الرغم من هذه الخسائر ، فما ضعف الهجوم الإسلامي ، وما دب الوهن إلى قوة فرساننا ، الذين كانوا فعلا « جند المسيح » " Militia Christi " بل إن الجراح ، والموت نفسه ، قد حملتهم على شن الهجوم بقوة أكبر كلما ازداد الضغط عليهم . وأخيراً ، وبعد أن أرهقهم التعب ، وليس الخوف ، لاحظ قادة الفرقة الصغيرة سحابة من غبار في الأفق عندما كانت الفرقة على وشك الإبتعاد . وكان سبب هذا الغبار هو زيموند بيليه ورجاله الذين غمزوا بجيادهم ، وفي هجومهم الجنسوني أثاروا كثيرا من الغبار حتى أن الأعداء ظنوا أن هناك قوة كبيرة تقترب .

وهكذا وبفضل الرب ، أبيد الأعداء وأجبروا على الفرار ، وقتل نحو مائتين منهم ، وتم الاستيلاء على غنائم كثيرة . ويمكن إرجاع كثرة الغنائم إلى عادة متبعة بين المسلمين وهي أنهم إذا لاذوا بالفرار وطاردتهم العدو مطاردة شديدة فإنهم يطيحون بأسلحتهم ثم يلبسهم وأخيراً كلٌ بخرجه . وهكذا قتل هذا العدو الصغير من فرساننا الأعداء حتى نال منهم التعب ، وأخذوا غنائم من لاذوا بالفرار .

وبعد القتال وجمع الغنائم وتقسيمها ، توجه فرساننا إلى يافا حيث استقبلهم البحارة بفرح بالحبز والنبيد والسماك . ولم يكثرثوا بالخطر ، فأهملوا سفنهم ولم يعينوا مراقبين للحراسة باتجاه البحر في منصة المراقبة بكل سفينة . وسرعان ما وجد البحارة السعداء غير المكترئين أنفسهم محاطين من ناحية البحر بالأعداء ، وكان السبب الرئيسى في ذلك يرجع إلى إهمالهم في تعيين حرس المراقبة . وعند الفجر ، رأوا أنه لم تكن أمامهم فرصة لقتال القوة المتفوقة عليهم ، فتركوا سفنهم ولم يأخذوا إلا الغنائم وهكذا فبشكل ما عادت قواتنا إلى بيت المقدس حنتصرة ومهزومة في آن واحد . ولجأت إحدى السفن ، التي كانت تقوم بأعمال النهب ، من الأسر . فعندما عادت من يافا محملة بالغنائم رأت الأسطول

المسيحي وقد أحاطت به قوة أكبر منه . فغيرت إتجاهها وعادت بالمجداف والقلوع إلى اللاذقية ونقلت إلى زملائنا وأصدقائنا الحالة الحقيقية للأوضاع في بيت المقدس .

ونحن نعرف أنه قد أصابنا مانستحق ، لأننا لم نؤمن برسائل الرب ، وهكذا ، فقد الصليبيون الأمل في رحمة الرب ، وساروا إلى سهل الأردن . وهناك جمعوا السعف وتعمدوا في نهر الأردن ، ولما كانوا قد شاهدوا بيت المقدس ، فقد خططوا للتخلي عن الحصار والتوجه إلى يافا ، والعودة بأي شكل ممكن إلى بلادهم . ولكن الرب اهتم بأمر سفن من لم يؤمنوا به .

ودعونا إلى إجتماع بسبب الخلافات العامة بين القادة وخاصة لأن تانكرد قد استولى على بيت لحم . وهناك رفع رايته على كنيسة بيت لحم ، كما لو كان يرفعها على ممتلكات علمانية . كما طرح الإجتماع أيضاً مسألة انتخاب واحد من الأمراء وحارساً على بيت المقدس في حالة إذا ما منحها الرب لنا . وقيل أن الفوز بها سيكون مجهوداً مشتركاً ولكن إذا ضاعت فإن ذلك سيكون إهمالاً مشتركاً إذ لم يتول أحد حمايتها ^(٩) .

ولكن الأساقفة ورجال الدين اعترضوا قائلين « من الخطأ انتخاب ملك في المكان الذي تألم فيه الرب وتوج بتاج الشوك . افترضوا أن الشخص المنتخب قال في قلبه : « إئتني أجلس على عرش داود ، وأمتلك ممتلكاته ، وافترضوا أنه أصبح داودا ، وهو منحط العقيدة والأخلاق ، فلا شك أن الرب سيطيح به ، ويفضض على المكان والناس . فضلا عن ذلك ، فإن النبي يهتف « عندما يكون قدس الأقداس قد أتى سيتوقف المسحح » لأنه قد اتضح لكل الناس أنه قد أتى ^(١٠) . ولكن لنختار كيلاً ليحرس بيت المقدس ويقسم الجزية والريع بين حماة المدينة » . ولهذا السبب ولأسباب أخرى ، لم يتم الانتخاب إلا بعد ثمانية أيام من سقوط بيت المقدس . ولم يأت هذا النزاع بخير ، ولم يتضاعف إلا جهد وأحزان الناس يوماً بعد يوم ^(١١) .

وأخيراً أبلغنا الرب الرحيم الطيب ، حتى نحترمه وحتى يمنع المسلمين من السخرية بقوانينه إذا سألوا : « أين هو إلههم ؟ » ^(١٢) ، وأبلغنا عن طريق رسالة من أدهيمار ، أسقف لى بويه ، كيف نساله ونكسب رحمته . لكننا نشرنا أوامر الرب علناً ودون أن نربط بينها وبين إسمه خوفاً من أن يعصوها الناس ، فيكون عقابهم أشد بسبب ذنبهم . وأرسل الرب الكريم رسلاً عديدين إلينا ولكن لكونهم اخوتنا ، فإن براهينهم بقيت بلا قيمة ^(١٣) .

فى ذلك الوقت أعطى أدهيمار تعليماته لبطرس ديزيدريوس : « مر الأمراء والجمهور ، والصلبيين القادمين من بلاد بعيدة ، والذين هم هنا الآن ، ليعبدوا الرب ورب كل الجيوش ، أن حرروا أنفسكم من العالم الدنس ، وليعط كل منكم ظهره للخطيئة ، ثم اخلعوا أحذيتكم ، وسيروا حفاة باقدام عارية حول بيت المقدس ، ولا تنسوا أن تصوموا . فإذا اتبعتم هذه الأوامر ، ستسقط المدينة فى نهاية الأيام التسعة بعد هجوم عنيف ، ولكن إذا لم يفعلوا ذلك ، فإن الرب سيزيد من كل مصائب الماضى » .

وبعد أن أبلغ بطرس ديزيدريوس سيده الكونت ايزوارد وشقيق أدهيمار ، ووليم هيو ، وبعض الكهنة بذلك ، دعا أولئك الثقات إلى اجتماع عام وتكلموا بما بلى :

« أيها الرجال ، أيها الزملاء ، تعرفون أسباب الرحلة وتعبننا الشديد ، وتعرفون أيضاً أننا تباطئنا كثيراً بلا مبالاة فى إقامة المعدات لحصار بيت المقدس ، وأكثر من ذلك فإننا لم نكتف بعدم مبالاة بأن يكون الرب ودوداً معنا ، بل لقد أثرنا غضبه بكل شكل يمكن أن يتخيله الانسان فى كل الأمور . كما أننا نظرده وننبذه فنجعله غريباً بسبب أعمالنا المدنسة . والآن ، إذا كنتم توافقون ، فلنترك الماضى ولتنتشر بين الأخوة المسيحيين روح المغفرة . وبعد ذلك فلننفق كبريانا فى رؤية الرب ، ونسير حول المدينة المقدسة حفاة الاقدام ، ونبتهل لتحل بنا رحمة الرب عن طريق شفاعاة القديسين .

فلنصل قائلين أن الرب القدير الذى تنازل عن عرش سيادته السماوية ، وأصبح بشراً من أجلنا ، ومنا نحن خدمه ، والذى دخل بيت المقدس فى تواضع راكباً جحشاً فى موكب تحوطه الحشود التى تلوح وتقدم له آيات التكريم ، لكى يعانى بعد ذلك من الآلام على الصليب ، تضحية من أجلنا ، ولنصل لعله يفتح لنا أبواب بيت المقدس ، ويسلمها لنا تمجيداً وتكريماً لإسمه بينما يصدر حكمه على أعدائه الذين استولوا عليها بغير حق ، ودنسوا مكان آلامه ودفننه ، والذين يعملون الآن بجد ليبعدونا عن المكاسب العظيمة الموجودة فى حرم تنازله الإلهى وخلصنا .

لقيت هذه الأوامر قبولاً عاماً ، وصدر أمر بأن يقود رجال الدين فى اليوم السادس من الأسبوع وهم يحملون الصلبان وآثار القديسين موكباً يتبعه الفرسان والرجال الأقوياء ، وهم ينفخون الأبواق ، ويلوحون بالأسلحة ، ويسيرون حفاة الأقدام ، ونفذنا أوامر الرب والأمراء بكل سعادة ، وعندما سرنا إلى جبل الزيتون ، وعظنا الناس فى موقع صعود المسيح بعد القيامة ، وفى هذه المرة حرصناهم قائلين « لقد تبعنا الرب إلى مكان الصعود . وحيث أننا لا نستطيع أن نفعل أكثر من ذلك ، فلنعف عن أولئك الذين أساءوا إلينا حتى يكون الرب القدير رحيماً بنا » .

ولا حاجة بى إلى أن أقول أكثر من ذلك فى هذا الموضوع . فقد غمرت الجيش روح من التسامح ، وتضرعنا ، ونحن نقدم التبرعات السخية ، إلى الرب سائلين إياه الرحمة والحناء فى السؤال ألا يتخلى عن شعبه فى اللحظة الأخيرة بعد أن أتى بهم بهذه الطريقة المجيدة والعجيبة من كل هذه المسافة إلى مسعاهم من أجل القبر المقدس . وكان الرب فى هذه المرة فى جانبنا لأن سوء حظنا انقلب حظاً طيباً وصار كل شيء على مايرام .

ورغم أننى استبعدت أحداثاً كثيرة ، فإننى لا أستطيع أن اغفل عن هذه الحادثة : فأتى الزحف الصاخب حول بيت المقدس راح المسلمون والأتراك يسبسون

على طول أسوارهم من أعلى وهم يسخرون منا ويدنسون بالضربات والأعمال
البذيئة صليباً وضعت على أذرعهم من خشب بطول الأسوار . فاندفعنا بدورنا إلى
الأمم قداماً ، واثقين من قرب رحمة الرب بسبب هذه الإساءات ، فتقدمنا ليلاً
ونهاراً في العمل للإعداد للهجوم النهائي ^(١٤) .

عين جودفري وكونت نورماندى وكونت فلاندر جاستون بيسارن ،
للإشراف على العمال الذين كانوا يبنون الحواجز والمتاريس ومعدات الحصار ، وكان
تعيين هذا النبيل راجعاً إلى قدرته وأمانته . وثبت أن ذلك كان اختياراً حكيماً ،
لأن جاستون وضع نظاماً لتقسيم العمل ، وعجل بتنفيذ المهمة ، بينما اهتم الأمراء
بجلب المواد الخشبية ^(١٥) كما كلف الكونت ريموند وليم ريكو بعمليات مماثلة في
جبل صهيون ، وكلف أسقف البارة بوظيفة الإشراف على المسلمين وغيرهم من
العمال الذين كانوا يجلبون الأخشاب . فقد أجبر رجال ريموند مسلمي القلاع التي
تم الاستيلاء عليها على العمل كأقنان ^(١٦) . فكنت ترى خمسين أو ستين رجلاً
منهم يحملون على أكتافهم دعامة بناء لا يقوى على جرها أربعة أزواج من
الثيران . ولكنى لن أرهقكم بمزيد من التفاصيل .

فعملنا جميعاً بجد واجتهادنا وبنينا وتعاوننا ، ولم يعطل عملنا التراخي أو
عدم الرغبة . وكان الصنّاع فقط - الذين كانت تجمع لهم الأموال ورجال ريموند ،
الذين كانوا يحصلون على أجورهم من خزائنه - هم الذين يعملون نظير المال .
وبالتأكيد فقد كانت يد الرب معنا ، وسرعان ما اكتملت الاستعدادات ، وبعد
عقد إجتماع قرر القادة « سيكون اليوم الخامس هو ساعة الصفر » ^(١٧) . وفي هذه
الأيام كرّسوا أنفسهم للدعاء والصلاة الليلية والصدقات ، وأعطوا دواب العمل
التي لديهم والخدم الذين يعملون عندكم للصنّاع والنجارين الذين يعملون في جر
الأخشاب والأعمدة ، والقوائم والفروع الضرورية لإقامة ستائر الحصار ^(١٨) . أيها
الفرسان سيكون نصيب كل اثنين منكم من أعمال البناء إقامة ساتر مقوس واحد أو
سلم واحد . إعملوا بجد في سبيل الرب ، لأن مهمتنا قاربت على الإنتهاء .

وجَدَ الجميع في العمل بسعادة ، وصدرت الأوامر بمواقع الهجوم الخاصة بالأمراء ومواقع آلات الحصار .

ولاحظ المسلمون المحاصرون أسلحة الحصار المكتملة ، فدعموا النقاط الضعيفة ، بحيث بدأ من المستحيل شن هجوم ناجح . ولاحظ جودفري ، وكونت الفلاتدر وكونت نورماندي ، عمليات التشييد التي يقوم بها المسلمون ، وبالتالي فإنهم راحوا طوال الليلة السابقة لليوم المحدد للهجوم ينقلون مواقع أسلحة الحصار ، من أسيجة وأبراج ، إلى موقع بين كنيسة ستيفن المبارك ووادي جوزفات . صدقوني إن فك ونقل هذه الآلات لمسافة تزيد على الميل ، وإقامتها من جديد لم يكن بالأمر الهين . وصُعق المسلمون في الصباح التالي عندما رأوا تغير مواقع آلاتنا وخيامنا ، وأبادر فأقول ، أننا أيضا دهشنا ، نحن المؤمنين الذين رأوا يد الرب في ذلك .

ولكى أطلعكم على حقيقة التحرك إلى الشمال يجب أن أقول أن عاملين كانا وراء تغيير مواقع الحصار . فاستواء سطح الأرض هيا اقتراب أفضل لمعدات الحرب من الأسوار ، كما أن بُعد وضع هذا المكان الشمالي جعل المسلمين يتركونه بدون تحصين . ولم يكن مجهود كونت تولوز أقل من ذلك عند جبل صهيون جنوبا ، وتلقى مساعدة من ويليام إمبرياكو وبحارته الجنوية الذين فقدوا سفنهم في يافا ، كما ذكرت من قبل لكنهم أنقذوا الحبال والمطارق والمسامير والفئوس والمعاول والبلط ، وهي كلها أدوات لا غنى عنها ^(١٩) . وسأترك التفاصيل الآن وأواصل قصة الهجوم على بيت المقدس .

بزغ فجر يوم القتال وبدأ الهجوم . ولكننا نود عند هذه النقطة أن نضيف الإحصائيات التالية : فطبقاً لأحسن تقديراتنا وتقديرات الآخرين كان هناك نحو ستين ألف مقاتل في بيت المقدس ، ونساء وأطفال لا حصر لهم . ولم يكن لدينا في جانبنا أكثر من إثني عشر ألف رجلاً من الأقوياء مع كثير من المقعدين والفقراء ، وما لا يزيد - في اعتقادي - عن ألف ومائتين أو ألف وثلاثمائة

فارسا . ونحن نورد هذه الأرقام والمقارنات لنبين لكم أن كل الأمور عظيمة كانت أم صغيرة ، إذا ما أخذناها على عاتقنا باسم الرب سوف تنجح ، كما ستثبت الصفحات التالية من كتابي .

فبدأنا أولا بدفع أبراجنا باتجاه أسوارهم ، ثم انفتحت كل أبواب جحيم المعركة . فانهمرت الأحجار من المقاذيف tormenti وطارت الصخور Petrariae في الهواء وتساقطت الأسهم كالبرد^(٢٠) . ولكن خدم الرب العازمين على التمسك بإيمانهم ، مهما كانت نتيجة الموت أو الإنتقام الفوري من المسلمين ، تحملوا هذا الهجوم بصبر . ولم يحسم القتال عند تلك النقطة . وعندما اقتربت الآلات من الأسوار ، أمطر المدافعون المسيحيين بالأحجار والسهام والخشب والقش المشتعلين والمطارق المغطاة بالقار المشتعل ، والشع والكبريت ، والكتان ، والخرق ، على الآلات . وأحب أن أوضح أن المطارق كانت مثبتة فيها المسامير بحيث تلتصق بأي جزء تصيبه ثم تشتعل . واشعلت هذه القذائف ، المصنوعة من الخشب والقش ، والتي ألقاها المدافعون ، النيران التي حالت دون تقدم من لم تُريكم السيوف ولا الأسوار العالية ولا الخنادق العميقة .

وكانت الأعمال التي قمنا بها طوال ذلك اليوم رائعة وعجيبة إلى حد أننا نشك في أن يكون التاريخ قد سجل ما هو أعظم منها . ومن جديد ، دعونا ونحن واثقون من رحمة الرب ، دَعَوْنَا قائدنا ومرشدنا القادر على كل شيء . ومع حلول الليل استولى الخوف على المعسكرين . فمع تحطيم السور الخارجي ، وردم الخندق ، أصبح الوصول بسرعة إلى السور الداخلي أمراً سهلاً . وأصبح المسلمون يخشون سقوط بيت المقدس في تلك الليلة ، أو في اليوم التالي . كما كان الصليبيون بدورهم خائفين من أن يدعم المسلمون موقفهم ، بإيجاد طريقة لحرق الآلات القريبة . فسيطر على المعسكرين التيقظ والتعب والأرق ، وفي معسكرنا ، الأمل الواثق ، وفي معسكرهم ، الفزع المؤلم . كان المسيحيون يحاصرون المدينة . طوعاً واختياراً من أجل الرب ، وكان المسلمون يتقاومون على مضض من أجل شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) .

واستمر النشاط غير العسادي في المعسكرين أثناء الليل . وعند بزوغ الفجر ، أسرع رجالنا يدهرجون آلات الحصار إلى مواقعها ، ليفاجأوا بالمسلمين الذين حاصرونا بآلاتهم ، التي كانت تفوق آلاتنا بنسبة تسعة أو عشرة إلى واحد . ولن أطيل في هذا التفصيل الصغير ، لأننا كنا في اليوم التاسع ، وهو اليوم الذي تنبأ الكاهن بأنه سيحدد سقوط بيت المقدس . وعلى الرغم من تفكك آلات حصارنا بفعل الأحجار المتساقطة كالطر والروح المعنوية المتخاذلة لقوتنا ^(٢١) التي أخذ منها التعب كل مأخذ ، فإن رحمة الرب المسيطرة والتي لا تقهر كانت حاضرة دائماً في عملنا . ومع ذلك ، فإنه لا يمكنني أن أمر بهذه الحادثة الطريفة مروراً عابراً . فعندما حاولت امرأتان وضع رَصَد على واحدة من الصخور ، انطلق أحد الأحجار من نفس الآلة مصفراً في الهواء وقضى على حياة الساحرتين ، وأيضاً على حياة ثلاث فتيات بالقرب منهما وهكذا حُطِم الرصد ^(٢٢) .

وعندما انتصف النهار كنا في حالة ارتباك ، وإرهاق وبأس ، سببها المقاومة العنيدة لكثير من تبقى من المدافعين ، والأسوار العالية التي لا يكاد يمكن اختراقها ، والمهارة الدفاعية الهائلة للمسلمين . وبينما بدأنا نترنح وبدأ المسلمون يتشجعون ، جاءت إلينا رحمة الرب الحاضرة دائماً ، شفاء لنا ، وبدلت تعاستنا فرحاً ^(٢٣) . ففي اللحظة التي كان مجلس قادتنا يناقش فيها حكمة سحب آلاتنا حيث احترق الكثير منها وتحطم البعض بشكل سيء ، أشار فارس لا أعرف اسمه بدرعه من جبل الزيتون للكونت والآخرين بأن يتقدموا . وكان لهذا تأثير نفسي على قواتنا المرهقة ، واستأنف بعض الصليبيين الذين دبت فيهم الحياة من جديد ، هجومهم على الأسوار، بينما بدأ آخرون يتسلقون السلالم والجبال . وفي نفس الوقت أطلق شاب سهماً مشتعلة بلبادة قطنية على تحصينات المسلمين التي كانت تتولى الدفاع في مواجهة برج جودفرى والكونتين . وسرعان من أبعدت النيران المدافعين عن التحصينات ، وسرعان ما أنزل جودفرى الكوبرى الذي كان يدافع عن البرج ، وبينما كان الكوبرى يتأرجح من منتصف البرج سد الهوة بين البرج وبين السور ، وتدفق الصليبيون دون خوف ، وبجرأة وشجاعة ، إلى داخل المدينة المضروبة .

وسفك تانكرد وجودفرى فى المقدمة كمية لا تصدق من الدماء ، وأنزل زملاؤهما الذين كانوا فى أعقابهم آلاماً شديدة بالمسلمين . يجب الآن أن أخبركم بحادث مدهش . فقد توقفت المقاومة فى أحد مناطق المدينة عملياً ، ولكن المسلمين فى المنطقة القريبة من جبل صهيون قاتلوا قوات ريموند بشراسة ، كما لو كانوا لم ينهزموا . ويسقط بيت المقدس وأبراجها كان المرء يستطيع أن يرى أعمالاً مدهشة ^(٢٤) . فقد قطعت رؤوس بعض المسلمين برحمة ، بينما اخترقت الآخرين الأسهم الموجهة من الأبراج ، بينما عذّب آخرون لوقت طويل ، وأحرقوا حتى الموت فى اللهب المتأجج . وتكدست فى الطرقات والبيوت الرؤوس ، والأيدى ، والأقدام . وفعلوا ، فقد كان الفرسان والرجال يجرون جيئة وذهاباً فوق الجثث .

دعونى أخبركم أن هذه الأشياء حتى الآن هى تفاصيل قليلة تافهة ، ولكننا نجد قصة أخرى عندما نأتى إلى معبد سليمان ، المكان المعتاد للترنم بالطقوس والصلوات . هل نحكى ما جرى هناك ؟ لو أننا أخبرناكم لما صدقتمونا . وإذن فيكفى أن أحكى أنه فى معبد سليمان وفى الرواق خاض الصليبيون بخيولهم فى الدم الذى وصل إلى ركبهم وسروج خيولهم ^(٢٥) وفى رأى أن فى هذا عدالة إلهية تتمثل فى أن يتلقى معبد سليمان دم المسلمين الذين سبوا الرب هناك لسنوات كثيرة . وامتلات بيت المقدس الآن بالجثث ، وتلطخت بالدماء ، وهربت القلة الناجية إلى برج داود وسلموه لريموند مقابل عهد بالأمان . ومع سقوط المدينة كان مما عوضنا أن نرى عبادة الحجاج عند القبر المقدس ، وتصفيق الأيدى والابتهاج والتغنى بترنيحة جديدة للرب . فقدمت أرواحهم للرب المنتصر الظافر صلوات المديح التى لم يستطيعوا شرحها بالكلمات .

وكان يوماً جديراً وسعادة جديدة وفرحاً دائماً وتحقيقاً لكُنْنا وحبنا ، جلب كلمات وترانيم جديدة للجميع . ان هذا اليوم ، الذى أؤكد أنه سيُخلد على مدى القرون ، قد بدل أحزاننا وصراعاتنا إلى سعادة وابتهاج . كما أذكر أيضاً أن هذا اليوم أنهى كل أشكال الوثنية ، وأكد المسيحية وأعاد إلينا إيماننا . « هذا هو اليوم الذى صنعه الرب ، سنبتهج ونسعد فيه » ، وهذا صحيح لأن الرب أشرق علينا فى ذلك اليوم وباركنا ^(٢٦) .

ورأى الكثيرون اللورد أدهيمار ، أسقف لى بويه ، فى بيت المقدس،فى هذا اليوم ، كما أكد الكثيرون أنه فى ذلك اليوم ، كان يمهد الطريق فوق الأسوار ، يحث الفرسان والناس على إتباعه . وجدير بالذكر أيضا ، أنه فى هذا اليوم أخرج الرسل من بيت المقدس وتشتتوا فى كل أنحاء العالم . وفى هذا اليوم خلص أبناء الرسل المدينة من أجل الرب والآباء . وهذا اليوم ، الخامس عشر من يوليو ، سيُخلد لذكرى مدح وتمجيد اسم الرب ، الذى استجاب لصلوات كنيسته وأعاد بيت المقدس بالإيمان والبركات إلى أطفاله ، وأيضا أراضىها التى وعد بها الآباء . وفى ذلك الوقت رتلنا أيضاً صلاة القيامة ، حيث أنه فى ذلك اليوم قام هو ، الذى بقدرته ، من الأموات ، وشفانا برحمته (٢٤) .

* * * * *

هوامش الفصل الرابع عشر

(١) بواهة القديس ستيفن Saint Stephen ، التي حملت اسم أول شهداء المسيحية (انظر أعمال الرسل ٦ ، ٧) كانت تقع إلى الشمال . ويقع برج داود إلى الغرب ليحمي بواهة يافا . ويقع جبل صهيون في الركن الجنوبي الغربي . وتحصى الأسوار الشرقية والجنوبية والغربية عدة أودية سحيقة ، وكان يتولى أمور بيت المقدس القائد الفاطمي افتخار الدولة ، الذي قام بتسميم الآبار ، وجمع ميرة الريف وطرد كل المسيحيين .

— استغل الأفضل فترة تعثر الحملة الصليبية أما أنطاكية ، ويادر بالاستيلاء على مدينة بيت المقدس من سقمان وإيلغازي إبنى أرتق نواب تتش في المدينة ، وذلك في أغسطس ١٠٩٨ م / شعبان ٤٨٩ هـ ، وأحسن الأفضل العطاء إلى ولدي أرتق اللذين أحجها إلى دمشق ومنها إلى إقليم الجزيرة ليؤسسا لنفسيهما إمارة هناك . واستناب الأفضل في بيت المقدس إفتخار الدولة . انظر : ابن الأثير : الكامل ، ج ١ ، ص ١١٧ ، ابن القلاسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧ .
(الترجمة العربية) .

(٢) يشبه إهتمام ريموند كونت تولوز بجبل صهيون نفس إهتمام يهوذا مكابيوس Judas Maccabeus بنفس المكان . انظر : Liber Machabaeorum, 4 : 36 - 61 .
— وقد بدأ حصار الفرنج لبيت المقدس في يوم الإثنين ٦ يونية ١٠٩٩ م ، وقد حدد مؤلف الجستا اليوم السادس من يونية إلا أنه جعله يوم الثلاثاء الذي يوافق اليوم السابع من الشهر في هذه السنة (١٠٩٩ م) . انظر : Gesta, p. 87, n. 3 .
(الترجمة العربية) .

(٣) كان حديث الناسك إلى أمراء الفرنج في يوم الأحد ١٢ يونية ١٠٩٩ م . وكان هجوم الصليبيين على بيت المقدس في اليوم التالي (١٣ يونية ١٠٩٩ م) . انظر : Hagenmeyer, Chr., 386, 389 .

— مرة أخرى بنفرد ريمونداجيل كعادته بذكر رؤيا أحد الصليبيين . ولم يذكرها مؤلف الجستا . بينما اتفق المؤرخان بخصوص تحديد تاريخ الهجوم الصليبي على مدينة بيت المقدس . انظر :
(الترجمة العربية) .
Gesta, p. 88.

(٤) كانت بركة السلوان Pool of Siloam تقع فى الركن الجنوبى الشرقى لبيت المقدس . ولم يقاوم المؤرخ رغبته فى الاقتباس من العهد القديم Psalm, 33 - 34 لىذكرنا بالرب الذى « يحول الأنهار إلى بركة » . وجاء وصف المؤرخ للتصارع من أجل مياه بركة السلوان وصفا رائعا . وفى تقويم أحد القديسين توجد قصة التدفق غير المتواصل للسلوان وحياة أشعيا Isaiah . انظر :

Patrologia Orientalis, 21; pp. 674 - 675.

(٥) النوميisma Nomisma أو صولدى Solidus وهو الدينار البيزنطى هى العملة المعيارية للدولة البيزنطية . وكان الدينار البيزنطى منذ عهد قسطنطين الأول $\frac{1}{4}$ من رطل الذهب . وكان ينقسم إلى ١٢ ميلياريسيا ، وكل ميلياريسيا تنقسم بدورها إلى اثنى عشر فلسا pholles . وبدأت قيمة العملة تنخفض أيام نقفور فوقاس . وحاول ألكسيس كومنين أن يسترد للعملة البيزنطية قيمتها ، إلا أن عملته كانت تساوى $\frac{1}{4}$ النوميisma الذهبية بعد أن غلب على عملته النحاس الأصفر . وأخذت قيمة النوميisma فى الهبوط فى عهد آل كومنين . أما الدينار البيزنطى فكان يساوى فى وزنه الدينار الإسلامى (٢٥ رءم جرام ذهب = ٦٦ حبة) الذى ضربه لأول مرة عبد الملك بن مروان فى عام ٧٤ - ٧٥ هـ . وفى زمن الحروب الصليبية كانت العملات البيزنطية والفاطمية تتمتعان بشقة التجار الإيطاليين . أكثر من الدينارات الأيوبية التى لم تكن بدوكة نقاء سابقتها . إلا أن الدينارات الأيوبية كانت مقبولة لدى الأوربيين أكثر من الدينارات الذهبية التى ضربها الصليبيون فى بلاد الشام كعملة رسمية لإماراتهم بدلا من العملات الفضية التى سادت أوربا زمن الحروب الصليبية . واختار الصليبيون فى ضرب ديناراتهم أن يقلدوا الدينار الفاطمى لشدة نقائه عن الدينار العباسى . إلا أن الدينار الصليبى لم يرق إلى مستوى العملات الإسلامية أو البيزنطية . انظر : ناصر النقشبندى : الدينار الإسلامى ، مجلة سومر ، بغداد ١٩٤٥م ، ج ٢ ، ص ١١٨ - ١١٩ ، ستيفن بنسيما : الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، القاهرة ١٩٦١م ، ص ٢١٠ - ٢١١ ، حنين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ، ص ٢٦٨ ، حاشية رقم (٧٢) . راجع أيضا :

A.S. Ehrentreutz, Arabic Dinars struck by the Crusaders, in JESHO, 1964, pp. 169 ff; R.S. Lopez, Back to Gold, in EHR, 9, 1957, pp. 219-221.

(الترجمة العربية) .

(٦) يافا Jaffa (Joffa) ، مدينة ساحلية بالقرب من بيت المقدس . وقد وجد الصليبيون ميناء يافا وهد هجره المسلمون .

(٧) كان جيلدر كارينل Geldmer Carpinel أحد المقربين من جودفري . وقبل موت جودفري بفترة قصيرة ، منع حيفا لجيلدر ولكن تنكريد منعه من أخذها . انظر :
E.G. Rey, Les Familles d'Outre - mer de Ducange, Paris, 1869, p. 264;
Albert d'Aix, op. cit., p. 521.

وكان وليام سابران William of Sabran هو سيد سابران وقد اصطحب الجيش البروفنسالى . ويظهر اسمه فى وثائق فرنسا . انظر :

HGL. 3. pp. 490 - 491, 5 : pp. 687 - 708, 731.

وكان هناك اعتقاد خاطئ بأنه أسقف البارة . أما تتابع الأحداث فهو معروف . فقد وصل خبر وصول السفن إلى الفرنج فى ١٧ يونية ، وفى اليوم التالى رحل كل من جيلدر ووليام سابران . وفى مساء يوم ١٨ أو ١٩ يونية بدأ القتال . انظر :

Hagenmeyer, Chr. 392 - 394.

ولنا بعض التحفظات حول هذه التواريخ .

- لم يذكر جون ولوريتاهيل محفظاتهما على هذه التواريخ أو يقرما بمناقشتها . وهذه التواريخ يأخذ بها غالبية المؤرخين الحديثين طبقا لما ورد فى الجستا .
(الترجمة العربية) .

(٨) أشارد أوف مونتمبريل (مقاطعة من تريفو Trévoux) . قام برهن ميراثه لكلونى حتى يجهز نفسه للإشتراك فى الحملة الصليبية . وسار مع هيو العظيم . انظر :

Gesta, ed. Bréhier, p. 14.

(٩٠) عقدت جلسات مناقشة استيلاء تنكريد على بيت لحم حوالى نهاية يونية وبداية يوليو ١١٩٩ م . انظر :

Hagenmeyer, Chr., 396.

ويقدم ريمونداجيل هنا - وهو شاهد العيان الوحيد الذى يورد هذا الخبر - رأى رجال الكنيسة .

(١٠) « عندما يكون قدس الأقداس قد أتى » عبارة مقتبسة من العهد القديم . انظر :

Daniel, IX : 24 - 27.

(١١) يؤكد ألبرت دكس في روايته عن هذا الاجتماع أن كونت تولوز وتنكريد قد تشاجرا في ذلك الوقت . انظر :
Albert d'Aix, pp. 482 - 483.

(١٢) « الرب الرحيم الطيب » تعبير اقتبسه المؤرخ من العهد القديم : انظر :
Psalm, 77 : 38.

(١٣) « الرب الكريم » . تعبير اقتبسه المؤرخ أيضا من العهد القديم . انظر :
Psalm, 68 : 17.

(١٤) يضع هاجنمير هذه المسيرات في ٨ يوليو ٩٩٠م . انظر :
Hagenmeyer, Chr., 397, 398.

ولنا بعض التحفظ على روي رمونداجيل . فالتعليقات التي صدرت ، لاشك ، كانت قصة خيالية روحانية كتبها رمونداجيل . ونعرف أن هناك عدة أعمال تاريخية كانت تتلى على الناس جهره ، وأي داعية شعبي كان بإمكانه أن يؤلف هذه الرواية ليضفي السرور البالغ على جمهوره . انظر :
Matthew, 21 : 1 - 11.

ولقد اقتبس الفنانون الحديثون بكيفية باطلة صور المسيحيين حفاة الأقدام وهم يطوفون حول مدينة بيت المقدس بينما يقف المسلمون يشاهدونهم . ولا نستطيع القول بأن مسيرة الفرنج حول المدينة لم تحدث ، ولكننا نعتقد أن الصليبيين لم يكونوا من الحماقة حتى يتركوا الكثير من قواتهم معرضا لهجوم فاطمي .

- كمادته دأب رمونداجيل على ذكر أحداث تخيلها هو دون أن تقع ، ولينح روايته قوة التأثير على القاريء المسيحي ، فقد حشد بين أسطرها الكثير من العبارات التي اقتبسها من التوراة والإنجيل . إلا أن المتخصص يستطيع أن يتدارك طبيعة الرواية التي يسردها المؤرخ الصليبي ، حين يتأكد من أن رمونداجيل ينفرد هنا أيضا بذكر هذا الحدث دون أن يخبرنا عنه مؤلف الجستا ، الذي حرص على تدوين كل مشاهداته بدقة ، شيئا . وإذا كان على الفرنج الطواف بمخلفاتهم الدينية حول أسوار بيت المقدس فلم يكن مؤلف الجستا ليتقاعس عن القيام بذلك أو بالأحرى عن ذكر ما قد حدث .
(الترجمة العربية) .

(١٥) جاستون أوف بيسارن Gaston of Béarn هو فيلونت بيارن أوف أولورون Oloron ومونتاني Montaner . وبعد خدمة ملحوظة في الحملة الصليبية الأولى ، عاد جاستون إلى أوروبا واشترك في قتال مسلمي أسبانيا . انظر :
=

Jean de Jaurgain, La Vasconie, étude historique et Critique sur les Origines
du royaume de Navarre, Pau, 1902, 2, pp. 546 - 549.

وقد اتخذ قرار بناء أدوات الحصار في ١٥ يولية ١٠٩٩ م . انظر :

Hagenmeyer, Chr., 391.

(١٦) كان وليم ريكو William Ricau يعرف بوليم إمبرياكو Embriaco . وكان يقود هو
وأخوه هيو Hugh سفينتين جنويتين .

- سقطت جبيل في أيدي الفرنج في عام ١١٠٩ م ، وأخذها برتراند دي تولوز Bertrand
de Toulouse بمساعدة الجنوية . وتنازل كونت طرابلس عن إقطاع جبيل لمدينة جنوا التي
تنازلت عنه بدورها لأحد مواطنيها وهو وليم إمبرياكو . الذي شارك في الحملة الصليبية
الأولى ، والمشار إليه هنا . ونجح وليم وإبنه هيو الأول (١١١٧ - ١١٣٥ م) ثم من
بعده وليم الثاني (١١٣٥ - ١١٥٧ م) في إقامة إقطاع قري في جبيل لا يتبع إلا
سادة طرابلس . وكان لسادة جبيل من أسرة إمبرياكو دور في الحرب الأهلية التي نشبت
بين البنادقة والجنوية في عكا في أواسط القرن ١٣م / ٧ هـ وانقسمت فيها القوى
الصليبية في بلاد الشام كلها . وكان من الطبيعي أن يأخذ حكام جبيل - وفاء لأصلهم
- صف الجنوية في هذه الحرب . انظر :

E. Rey, Les, Seigneurs de Gible, ROL, 3, 1906, pp. 399 - 402.

وعن دور آل إمبرياكو في الحرب الأهلية انظر : حين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية
والمسلمون ، ص ٤٠١ وما بعدها .
(الترجمة العربية) .

(١٧) استخدام ريمونداجيل لتعبير « خمسة أيام » قبل الهجوم النهائي يجعل تاريخ هذا
الهجوم هو ٩ يوليو ١٠٩٩ م . انظر :

Hagenmeyer, Chr., 399.

- كان الهجوم النهاسي على بيت المقدس في ليلة يوم الخميس ١٤ يوليو ١٠٩٩ م .
انظر : Gesta, p. 90.

(١٨) أطلق المسلمون على الستائر التي يحتمى بها المقاتلون اسم الطارقيات والجفتيات .
وهي أنواع من الستائر أو التاريس والحواجز التي تتخذ كمسكرة للرجال الذين يستعصدهم
بهم في جر المنجنيق أو ما شاكله من أن يرموا بحجارة منجنيق آخر يقابله ، فيحمل

= عنهم مضرتها ويكفيهم سسوء إصابتها . وقد جاء وصف هذه الستائر فى مخطوط « تبصرة الباب الألباب » . انظر :

Claud Cahen, un Traité d'Armurerie, pp. 155 - 156.

(الترجمة العربية) .

(١٩) فُقدت السفن الجنوية فى يافا فى ١٨ - ١٩ يونية . انظر :

Hagenmeyer, Chr., 394.

(٢٠) بدأ الهجوم فى يوم ١٤ يوليو . أنظر: Hagenmeyer, op. cit., 401.

ويقرر هاجنمير أن الأبراج قد نقلت فى ١٢ يوليو ، وتحديد هذه لهذا التاريخ يجعل رواية ريمونداجيل تبدو زائفة لأنه يذكر أن تحرك الأبراج كان فى نفس يوم الهجوم . ويقرر رنسيما أن الأبراج قد وضعت قبالة أسوار بيت المقدس فى يوم ١٤ يوليو . وهذا يجعل رواية ريمونداجيل صادقة ، انظر : Runciman, op. cit., 1, 336.

(٢١) يناقض ريمونداجيل نفسه فى هذا الموضع . فأين عزيمة الفرنج وتخاذل المسلمين وقتالهم على مضض فى سبيل « شريعة محمد » (صلى الله عليه وسلم) ، وهو ما ذكره فى الفقرة السابقة !!
(الترجمة العربية) .

(٢٢) تكشف مقدمة ريمونداجيل عن رصد الإمرأتين عن إيمانه بالسحر . وكان يوم دخول الفرنج لبيت المقدس هو ١٥ يوليو ١٠٩٩ م . انظر :

Hagenmeyer, op. cit., 405.

(٢٣) التحول من « التعاسة إلى الفرح » تعبير مقتبس من العهد القديم . انظر :

Psalms, 29 : 12.

(٢٤) وصل ريمونداجيل فى وصفه للمشهد الدمسوى إلى قمة التعبير . وقد اقتبس تعبير « الأعمال المدهشة » من العهد القديم . انظر : Psalm, 25 : 7; 39 : 6.

(٢٥) يستعمل ريمونداجيل هنا سفر الرؤيا (B. Joannis Apostoli xiv : 20) كى يصف ذبح المسلمين حول معبد سليمان (جامع عمر بن الخطاب) . ويكرر المؤرخون الحديثون هذه الإشارة من العهد الجديد دون إمداد قراءهم بمصدرها .

(٢٦) اقتبس المؤرخ تعبير « يوم جديد » من العهد القديم . انظر : Isaiah, 65 : 17 .
كما اقتبس تعبير « هذا هو اليوم الذى صنعه الرب » من مزامير العهد القديم .
انظر : Psalm, 117 : 24.

(٢٧) يستعمل المؤرخ هنا معلوماته واهتمامه بصلاة البعث .
- من السهل أن نلمس الفارق الكبير بين دخول الفرنج بيت المقدس وبين دخول صلاح الدين للمدينة المقدسة حين استردها من الصليبيين فى عام ١١٨٧م / ٥٨٣ هـ .
ويوضح وصف ريمونداجيل للفظائع التى ارتكبها الفرنج حين دخلوا المدينة المقدسة ،
وذبحهم للسكان ، الذين قدر المؤرخون المعاصرون عددهم بحوالى سبعين ألفا من
المسلمين ، حتى أن المؤرخ نفسه حين توجه لزيارة ساحة المسجد الأقصى « أخذ يتلمس
طريقه بين الجثث والدماء التى بلغت ركبته » ، كل ذلك يوضح الفرق بين الروح
الصليبية وبين روح الجهاد الإسلامى فى نفس الموقف الواحد . فقد حرص صلاح الدين
وهو يهاجم الفرنج فى بيت المقدس على أرواح الفرنج كما حرص على ألا ينال الضرر
المدينة المقدسة نفسها . وبينما كان ريمونداجيل وبنو جلدته يغرضون فى دماء
ضحاياهم ، كان رجال صلاح الدين بعد ثمانية وثمانين عاما ، يطوفون شوارع بيت
المقدس - بناء على أوامره - يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين ، واليوم الذى
يحاول ريمونداجيل (الجمعة ١٥ يوليو ١٠٩٩م / ٢٣ شعبان ٤٩٢ هـ) جاهدا أن يجعله
يوما لتمجيد ربه ، يختلف تماما عن اليوم الذى مجده الله بالفعل (الجمعة ٢ أكتوبر
١١٨٧م / ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ) - ليلة الاسراء والمعراج - فى أحداثه وفى نتائجها
أيضا .
(الترجمة العربية) .

الفصل الخامس عشر

الأحداث التي تلت سقوط بيت المقدس ومعركة عسقلان

سأنتقل إلى أمور أخرى حيث أن فى الوصف السابق الكفاية . فبعد مرور ستة أو سبعة أيام إلتفت الأمراء ، طبقاً لعاداتهم ، إلى انتخاب ملك يدير المملكة ، ويجمع ضرائب الإقليم ، ويحمى الريف من المزيد من التدمير ويعمل كمستشار للناس . وأثناء هذه المناقشة ، تجمع بعض رجال الدين وعبروا للأمراء عن آرائهم . « إننا نشيد بتحركاتكم ، ولكن لما كانت المسائل الروحية تسبق المسائل الدنيوية ، فإن السلوك المستقيم الصحيح ، يتطلب أن تنتخبوا أولاً قائداً روحياً ، ثم بعد ذلك ، تنتخبون حاكماً علمانياً ، وإذا لم تفعلوا ذلك ، فلن نعتز باختياركم » . ولم ينتج عن هذا إلا إغضاب الأمراء والإسراع بالانتخاب ^(١) .

يجب أن أضيف أن رجال الدين قد ضعفوا فى ذلك الوقت ، أولاً بموت اللورد أدهيمار أسقف لى بويه الذى كان يكبح جناح الجيش ويهدئه بأعمال تشير الإعجاب وعظات كما فعل موسى . ثم مات بعد ذلك مباشرة وليام أوف أورانج ، وهو رجل محترم وأسقف كرّس نفسه لحمايتنا ، ومات فى معركة النعمان . وهكذا فبموت هذين الرجلين الطيبين ، لم يقف فى وجه الأمراء إلا أسقف البارة ، وعده صغير معه ، أما أسقف مارتوراننا الذى كان يسلك سلوكاً منحرفاً عندما فاز بطريق الغش والخداع بكنيسة بيت لحم ، فقد وقع فى أسر المسلمين بعد ثلاثة أو أربعة أيام ولم يظهر بيننا بعد ذلك أبداً ^(٢) .

احتقر الأمراء نصيحتنا واحتجاجنا وشجعوا ريموند سان جيل على قبول الملكية . لكنه اعترف بأنه يرتجف لدى سماعه اسم ملك فى بيت المقدس ، ومع ذلك فقد قال أنه لن يقف فى طريق أى شخص آخر بقبلها . وهكذا انتخبوا جودفرى وأعطوه القبر المقدس ^(٣) . ثم طلب جودفرى برج داود من ريموند ، واعترض الكونت بقوله أنه كان يخطط للبقاء فى المنطقة حتى عيد الفصح ، وطلب أن

يعامل هو ورجاله حتى ذلك الحين المعاملة اللائقة . ورد الدوق بأنه سيكون آخر من سيتخلى عن البرج ، وهكذا تطور بينهما الخلاف . كان كونت الفلاتندر ، وكونت نورماندى ، يؤيدان جودفرى فضلاً عن كل رجال ريموند . واعتقد رجال ريموند أن الكونت سيعود إلى لانجويديوك بمجرد أن يفقد برج داود . ولم تكن هذه هى المعارضة الوحيدة التى صادفها ريموند من قبل أتباعه البروفنساليين ، لأنهم كانوا - فى وقت مبكر - قد نشروا أكاذيب ليحولوا دون انتخابه ملكاً^(٤) .

وعندما تخلى الزملاء والأصدقاء عن ريموند ، فقد سلم البرج لأسقف البارة حتى يتم الفصل فى هذه القضية ، ليجد الأسقف وقد سلمه بدوره لجودفرى دون أن ينتظر قراراً . وعندما اتهم الأسقف بأنه لم يكن أميناً ، رد الأسقف بأنه فعل ذلك تحت إكراه ، وأنه عومل معاملة خسنة . وعلمت أن أسلحة كثيرة قد حملت إلى منطقة الأسقف ، أى بيت البطريك الذى كان يقع بالقرب من كنيسة القبر المقدس . وتحدث الأسقف عن استخدام القوة الجسدية ضده ولام رجال ريموند سراً .

وبعد ضياع البرج استشاط الكونت غضباً واستاء من أتباعه قائلاً ، أنه قد اعتدى على كرامته ، وأنه سيفادر البلاد^(٥) . وهكذا سافرنا من بيت المقدس إلى أريحا Jericho وجمعنا السعف وأتيننا إلى نهر الأردن . وعملاً بنصيحة بارثولوميو ، صنعنا طوفاً من الفروع الصغيرة ، ووضعنا ريموند عليه ، وجدفنا عبر النهر . ثم أمرنا الحشد المتجمع أن يصلى من أجل حياة الكونت والأمراء الآخرين . واغتسلنا فى النهر المقدس ، والكونت ريموند لا يرتدى إلا قميصاً وسروالاً جديداً . ولكن لماذا أصدر رجل الرب ، بطرس بارثولوميو أمراً كهذا ؟ لم يكن لدينا أى فكرة حتى الوقت الحاضر^(٦) .

وعند عودتنا إلى بيت المقدس بعد هذه المهمة ، انتخب البعض أرنولف ، كاهن كونت نورماندى بطريكاً ، خلافاً لرغبة رجال الدين الطيبين ، الذين اعترضوا لأنه لم يكن مساعد شماس ، وكان من أصل كهنوتى^(٧) . والأهم من ذلك كله أنه اتهم بأنه كان يداعب النساء أثناء الرحلة ، حتى أنه كان موضوعاً

لقصص فاحشة . ولا حاجة إلى القول بأن أرنولف الطموح تجاهل القرارات الكنسية ، وقد حطّ مولده المشين وانعدام ضميره من شأن رجال الدين الطيبين ، ورفع نفسه إلى الكرسي البطريركي بمصاحبة الترانيم والأناشيد والتصفيق الكبير من الناس . ولم يخش أرنولف أن يحل به العقاب الإلهي الذي حل بأسقف مرتورانا ، المحرّض والموجه لانتخاب أرنولف ، فقد ظل يأخذ دخل الكنائس من رجال الدين الذين كانت لهم هياكل في قبر الرب ، أو من أولئك الذين تلقوا الرسوم مقابل العناية به .

وما إن استقر أرنولف في السلطة ، حتى راح يسعى بمساعدة السكان إلى تحديد موقع الصليب الذي كان يعبدّه الحجاج قبل استيلاء الأتراك على بيت المقدس . ولم يعرفوا شيئاً عن موقعه ، ومضوا في ذلك إلى حد أن أقسموا على أنهم لا يعرفون شيئاً ، إلا أنهم في النهاية أجبروا على أن يقولوا « أن الوحي يقول أنكم شعب الله المختار ، وأنكم تخلصتم من المحن وأعطيتم لكم بيت المقدس ، ومدناً أخرى كثيرة ، ليس بقوتكم الكبيرة بل من رب غاضب أعمى أهل الكفر . وقد منح الرب ، قائدكم ، أبواب المدن التي لا يمكن اختراقها ، وكسب لكم معارك رهيبية . وإذا كان الرب في جانبكم ، فلماذا نصر على أن نخفي آثاره عنكم » . ثم بعد قيادة الصليبيين إلى قاعة في الكنيسة ، نقبوا عن الصليب وسلموه (٨) . وهكذا سعدنا ومجدنا الرب القدير ، وشكرنا له حيث أنه لم يُعد إلينا مدينة آلامه فحسب ، بل أعطانا أيضاً رموز صليبه وانتصاره ، حتى نتمسك به أكثر في أحضان الإيمان ، ونحن أكثر يقيناً ، لأننا رأينا الآن آثار خلاصنا .

وفي تلك الأثناء ، كما ذكرنا من قبل ، كان جودفري يحتفظ ببيت المقدس بالاتفاق ، وكان ريموند قد أثار حنقه الحزن والظلم بسبب ضياع برج داود ، الذي هو بلا شك مفتاح مملكة يهودا . وهكذا وضع الخطط ليعود بجزء كبير من البروفنساليين . وعلى أية حال ، فقد جاءت الأخبار بأن ملك مصر قد وصل إلى عسقلان مع قوة كبيرة من المسلمين ، بهدف مهاجمة بيت المقدس ، وقتل كل الفرنجة ممن هم في سن العشرين وما فوقها ، وأسر الباقين مع نسايتهم . وقالت

الشائعة أنه سيزوج شباب الفرنجة بنساء من جنسه ، والنساء الفرنجيات برجال من بلاده ، وبذلك يربى جنساً من المحاربين من الفرنجية الأصل ^(٩) .

وجعلته خططه الضخمة يتباهى بأنه سيعامل أنطاكية ويوهيمند بنفس المعاملة ، أكثر من ذلك ، فإنه سيتوج نفسه ملكاً في دمشق والمدن الأخرى . فضلاً عن ذلك فبعد دراسة حجم جيوشه القوية من الجنود والفرسان ، رأى أن الأتراك لم يكونوا شيئاً ، والفرنجة هازمى الأتراك لم يكونوا شيئاً ، ولم يكتف بذلك ، فقذف في حق الرب قائلًا ، أنه سيدمر مسقط رأس الرب ، والمذود الذي رقد فيه ومكان الآلام والجلجثة . وبالذات البقعة التي انبثق فيها دم الرب المصلوب ، والقبر الذي دفن فيه الرب ، وكل البقاع المقدسة الأخرى ، في بيت المقدس والمناطق المحيطة بها ^(١٠) . بل زاد متباهياً بأنه سيخرج هذه الآثار من تحت الأرض ، ويحطمها ويسحقها ، وينثر ترابها فوق البحر ، حتى لا يبحث الفرنجة بعد ذلك خارج بلادهم عن بقايا الرب التي ستكون قد ضاعت وطواها البحر ^(١١) .

واجتمع أمراؤنا ورجال الدين عند سماع هذه الأخبار والشائعات الأخرى عن الحشود الضخمة التي جمعها هذا الطاغية عند عسقلان ، وهي مدينة تبعد عنا مسيرة يوم ونصف اليوم . وسار الصليبيون المتجمعون حفاة الأقدام أمام القبر المقدس ، وطلبوا الرحمة ، والدموع تملأ عيونهم ، من الرب وسألوه أن يخلص شعبه الذي نصره في الماضي . كما توسلوا إليه ألا يسمح بأي تدنيس لمكان صلبه الذي تم تطهيره تواً من أجل اسمه . ثم أتينا إلى معبد الرب حفاة الأقدام ، نلتمس رحمته بالأغاني والترانيم والذخائر المقدسة ، وهناك تدفقت صلواتنا من كل كيائنا أمام الرب وتضرعنا أن يتذكر تدفق بركته في نفس المكان : « إذا كان شعبك قد أخطأ في حقك ، وكان التغيير بمشابة تكفير وأتوك مصليين في هذا المكان ، فاستمع إليهم من السماء ، يارب وخلصهم من أيدي أعدائهم » ^(١٢) .

وبعد مباركة الأسقف ، وضع القادة خطط المعركة ، ووسائل حماية بيت المقدس . ثم رحل جودفري وفرسانه للتحقق من الشائعات الخاصة بالأمير ، وعندما

وصلوا إلى سهل الرملة ، أرسلوا أسقف مرتورانا ، ليلبغ الكونتات في بيت المقدس بحقيقة الأوضاع . ولما تأكد القادة من وقوع المعركة ، أصدروا نداءً للرجال الأقوياء ، وصلوا للرب ، وساروا خارجين من بيت المقدس في كامل أسلحتهم وهم يحملون الحرية المقدسة . وفي اليوم نفسه وصلوا إلى السهل ، وفي اليوم التالي تحركت جيوشنا المتحسدة إلى الأمام في تشكيلات يحيط بها الحراس من كل جانب (١٢) .

وعند الفسروب ، اقتربنا من نهر على الطريق من بيت المقدس إلى عسقلان ، وشاهدنا عربا يرعون قطعانا من الأغنام ، وأسرايا كبيرة من الماشية والجمال . فأرسلنا مائتا فارسا للاستكشاف ، لأن العدد الكبير من العرب والدواب جعلنا نعتقد بأن قتالاً سينشب . وفي أثناء ذلك ، كما كتبنا ، سرنا في تسعة صفوف ، ثلاثة في المؤخرة ، وثلاثة في المقدمة ، وثلاثة في الوسط ، كي نواجه أي هجوم بثلاثة صفوف ، حيث يكون الصف الأوسط دائماً مستعداً لمساندة الصفين الآخرين . وقد هرب الرعاة من العرب عند مشاهدة فرساننا ، ولكن إذا كان الرب قد أعانهم كما أعاننا فإنهم ، بلا شك ، كانوا سيدافعون عن حيواناتهم . وفي الواقع ، وصل عددهم إلى ثلاثة آلاف ، بينما كان جيشنا يضم ألفاً ومائتين من الفرسان ، ولم يكن لدينا أكثر من تسعة آلاف من الرجال . وبعد هروبهم ، استحوذنا على كميات لا تصدق من الأسلاب ، وأسرنا وقتلنا عدداً قليلاً من العرب . ولما كان النهار على وشك الانتهاء ، فقد ضربنا الخيام ، وأرغمنا الأسرى على الكشف عن خططهم ، وعن مدى استعدادهم ، وعن أعدادهم وقواتهم . وأقر الأسرى أن العرب يريدون أن يحاصروا بيت المقدس ، وأن يطردها ويأسروا أو يقتلوا الفرنج . وأضافوا أن أميرهم ، الذي أقام معسكره على بعد خمسة فراسخ ، سيزحف نحونا في اليوم التالي . ولم يغامر الرعاة بتقدير حجم جيشهم تقديراً قاطعاً ، لأنه كان يتزايد يوماً بعد يوم . أما عن دورهم ، فقد أقروا أنهم كانوا رعاة شرعوا في بيع حيواناتهم للجيش المصري .

وعفا الصليبيون ، استعداداً للصدام المقبل ، كل منهم عن ذنوب الآخر التي

ارتكبها فى حقه والتى لم ترتكبها . وأصبحوا فى هياج لدرجة أنهم لم يتأكدوا من التقارير الخاصة باستعدادات العدو . وفى غمرة الثقة إعتقدوا أن يكون العرب أكثر جبنًا من الغزلان وأكثر وداعة من الغنم . وتولدت هذه الثقة من إيماننا بأن الرب كان معنا فى المسالك الأخرى ، وأنه بسبب كفر الوثنيين ، سوف يبدأ وحده معاقبتهم حتى لو كانت قضيتنا واهية . وهكذا فضلنا أن نعتبر الرب كمُدافع وأَنَا معاونوه . وصدرت الأوامر إذ ذاك لكل الجيش أن يكون الجميع مستعدين للمعركة عند الفجر . وأن ينضم كل فرد إلى قوات قائده ، وأن لايلمس أى منا الأسلاب حتى تنتهى المعركة وإلا صدر ضده قرار الحرمان . وقضينا ليلة بائسة دون خيام ، وبقليل من الخبز ، ودون نبيذ ، وبقليل من القمح والملح ، ولكن كانت إمداداتنا من اللحم ، على الأقل ، فى وفرة الرمال ، وهكذا أكلنا اللحم ، واستخدمنا لحم الضأن بدلًا من الخبز .

وعند بزوغ الفجر ، انبعث دوى الطبول والأبوقة مستدعيًا الجيش اليقظ . وهكذا تحركنا عند طلوع النهار ، والحراس مرتبون على كل الأجناب كما قلنا من قبل ، وتحركنا قدما إلى معسكر المسلمين . وبقي العرب فى معسكرهم اعتقادًا منهم أنه عند سماع الأخبار بحضورهم فسنبقى بالقرب من أسوارنا ، ووصلتهم أخبار ذبح وهروب الرعاة ، وأدى ذلك إلى أن يرددوا فى أنفسهم « لقد أتى الفرنج من أجل الأسلاب والآن سوف سيعيدون أدرأجهم » .

وفى الواقع ، كانت تصلهم تقارير يومية عن حالات الهروب من بيت المقدس ، وعن صغر حجم جيشنا ، وعن الوهن الذى أصاب رجالنا وجيادنا . وكانوا متأكدين ، وهم واثقين فى حجم قواتهم وقوتهم ، أنه فى إمكانهم إغراقنا ومعسكرنا فى بصاقهم . وقد نصحهم فلكيوهم ومنجموهم ، وهكذا سمعنا ، بعدم التحرك أو القتال قبل اليوم السابع من الأسبوع ، مع تحذيرهم بأن التحرك قبل ذلك التاريخ لن يكون مفيدًا .

وتحركنا فى تسعة صفوف ، كما ذكرنا من قبل ، وضاعف الرب من جيشه

إلى حد أننا بدونا نبلغ حجم القوات العربية . وحدثت هذه المعجزة حين كونت الحيوانات ، التى حررناها ، قطعانا ، وتبعتنا دون أن يوجهها أحد ، فكانت تقف حين نتوقف عن السير ، وتجري حين نسرع الخطا ، وتسير إلى الأمام إذا ما فعلنا ذلك . ولم يعد فى مقدورنا تقدير البضائع ولا إحصاء مبلغ الأسلحة والخيام التى استولينا عليها ؛ وعندما شاهد العرب ذبح الكثيرين من رفاقهم ، ونهب الفرنج لمعسكرهم فى شغف وأمان ، أقلعوا عن القتال وقرروا « طالما أنه من المحتم علينا الفرار ، ففيم الانتظار ؟ وإذا كان المسيحيون اليوم ، وقد أجهدهم السير وأنهكهم التعب بسبب الجوع والعطش ، قد سحقوا قواتنا بهجوم واحد ، فماذا يفعلون بنا وقد نالوا قسطا من الراحة ، واستردوا بأسهم ، وقد حققوا النصر علينا ، ونحن الآن نصف أحياء ، ومستضعفين وقد أصابنا الرعب ؟ » .

ونتيجة لذلك ، عاد العرب ، وقد أسقط فى أيديهم - ماعدا بعض الاستثناءات - إلى عسقلان التى تبعد عن معسكرنا بمسافة ميل واحد . وقرر ريموند أن يبعث ببوهيمند ، وهو رجل تركى ، إلى الأمير ، بمشروع سلام ، ولكته ذكره أنه قد رفض تسليم القدس ، واضطر إلى قتالنا ^(١٤) . وفى نفس الوقت ، كان على بوهيمند هذا ، أن يقرر الموقف ، وأن يرى ما إذا كان الأمير يخطط لأن يهرب أم ليقاتل ، وكيف كان رد فعله إزاء الهزيمة . وكان بوهيمند ، مع أنه تركى ، ينطق بعدة لغات ، وماهرا وأريبا ، وأبضا مخلصا لنا . وقد سمى ببوهيمند لأن بوهيمند العظيم (النورماندى) ، قد استقبله عند حوض المعمودية حين ارتد الأول عن الاسلام وجاءنا مع زوجته وأسلحته ^(١٥) .

وهنا ينتهى كتاب ريمونداجيل بسعادة .

* * * * *

هوامش الفصل الخامس عشر

(١) يذهب هاجنمير إلى أن الاجتماع قد تم في ١٧ - ١٨ يوليو ٩٩٠ م . انظر :

Hagenmeyer, op. cit., 408 - 409.

راجع أيضا : William of Tyre (Babcock and Krey), n. 1, p. 380.

(٢) مات أسقف أورنج Orange في معرة النعمان حوالي ٢٠ سبتمبر ٩٩٠ م . انظر :

Hagenmeyer, op. cit., 332.

وكان أسقف مارتورانا Marturana رجل دين من مارتورانا في كالابريا - وكان متعاطفا مع النورمان وحث على انتخاب أرنولف ماليكورن بطريركا لبیت المقدس . وقد أدى غيابه وقت معركة عسقلان إلى حيرة المؤرخين المعاصرين .

(٣) يقرر ألبرت دكس أن تاج مملكة بيت المقدس قد عرض على كونت تولوز . وفيل إلى الاعتقاد أنه لم يُعرض عليه ، ولكن المشكلة تبقى دون حل . وتدفع مناقسته اللاحقة لجودفري إلى الارتياح في رواية ريمونداجيل . ومن المؤكد ، أنه من المحتمل أن يُعرض هذا المنصب (ملك بيت المقدس) على كونت تولوز ، وكحاج صليبي فإنه من المحتمل بالنسبة له أن يرفضه . وقد تم انتخاب جودفري كحاج للقبر المقدس .

(٤) تعتقد أن المنافسة بين جودفري وريموند حول برج داود لم تكن كبيرة بالدرجة التي يدفعنا المؤرخ إلى الاعتقاد فيها . وبالكاد ، فإنه من المحتمل أن يكون رجال ريموند كانوا في ذلك الوقت قد تخلوا عنه لصالح جودفري . وقد عهد بـبرج داود إلى أسقف البارة الذي أعاده إلى جودفري . وبعد ذلك بقليل ، في ٢٨ يوليو ٩٩٠ م ، خرج ريموند في رحلة إلى نهر الأردن (Hagenmeyer, 411) . وبعد انقضاء رحلته إلى الأردن ، عاد ريموند لمساعدة جودفري عند عسقلان . لذلك فمن المحتمل أن المؤرخ يستعمل ريموند كصورة لرجل وصم بالعار ينفذ التراب عن قدميه متخليا عن بيت المقدس . وربما تضاربت منافسة جودفري بأنه أحد السادة العلمانيين مع فكرة ريموند بأن بيت المقدس ملكا للكنيسة .

(٥) إقتبس المؤرخ وصفه لغضب ريموند من العهد القديم . وغالبا ما يجعل المؤرخ من ريموند موضوعا لمعارفه الكنسية . انظر : Psalm, 2 : 13.

(٦) تقودنا حقيقة أن المؤلف قد إرتاب في حكمة تعاليم بطرس العسادية إلى الإعتقاد أن المؤلف كان يرتاب في مصدر معلوماته .

(٧) كان انتخاب أرنولف كبطريرك لبيت المقدس في أول أغسطس ١٠٩٩ م . انظر :
Hagenmeyer, op. cit., 413.

(٨) تم العثور على الصليب في ٥ أغسطس ١٠٩٩ م . انظر :
Ibid, 415.

(٩) عسقلان Ascalon هي عسقلان Ashkelon القديمة ، وتقع على بعد أربعين ميلا من بيت المقدس . ومن الناحية النظرية كانت من أملاك الخليفة الفاطمي المستعلى (١٠٩٤ - ١١٠٠ م) . وكانت السلطة الفعلية في أيدي الوزير الأفضل شاهنشاه . ويكتب المؤرخ عن ملك مصر - ولايد أن الأخبار باقتراب الجيش الفاطمي قد وصلت إلى الفرنج فيما بين ٦ و ٩ أغسطس ١٠٩٩ م .

(١٠) « والمزود الذي رقد فيه الرب » تعبير مقتبس من العهد الجديد . انظر :
Luke, 2 : 7.

(١١) « ويثر ترابها » تعبير إقتبسه المؤرخ من العهد القديم . انظر :
Psalm, 17 : 43:

(١٢) من المحتمل أن هذا المشهد والمخاطبة كانا بإيحاء من سفر الملوك . انظر :
I Kings, 8.

(١٣) رحل جودفري للاستكشاف في ٩ أغسطس ، واقترب الصليبيون من عسقلان في ١١ أغسطس ١٠٩٩ م . وفي اليوم التالي وقعت المعركة (Hagenmeyer, 418, 420, 421) وقد حمل كونت تولوز الحرية المقدسة في حملة ١١٠١ م واستغلها أسقف ميلان لحث فرنج الحملة على القتال . وقد نوقش مصير الحرية المقدسة طويلاً . ويدعى متى الرهاوي أن الحرية التي استغلها أسقف ميلان لم تكن هي الحرية الأصلية . وذكر ألبرت دكس أن الحرية فقدت في حملة ١١٠١ م . انظر :

Runciman, The Holy Lance found at Antioch, AB, 68, 1950.

(١٤) من المحتمل أن يكون الناسخ قد بدأ قصة أخرى عند هذه النقطة .

(١٥) من الواضح أن ناسخ المخطوط هو الذي وضع آخر عبارة في تاريخ ريمونداجيل . لأن التاريخ يتوقف عند الفقرة السابقة على العبارة الأخيرة فجأة دون أن يكمل قصة =

المفاوضات بين مبعوث ريموند والأفضل . وما أورده كل من رادولف أوف كان وألبرت دكس يكاد يكون نهاية مناسبة لفقرة ريمونداجيل . فقد أرسل مسلمو عسقلان إلى المعسكر الصليبي بالقرب من عسقلان - بعد هزيمة قوات الأفضل - أنهم لن يسلموا المدينة إلا لريموند نفسه ، وكذلك فعل أهل أرسوف ، إلا أن جودفري المتشكك في نوايا ريموند منذ إصراره على أخذ برج داود في بيت المقدس ، قد رفض هذه العروض ، الأمر الذي أغضب ريموند ، وكذلك روبرت النورماندى وروبرت كونت الفلاتندز ، وقرر الجميع ترك جودفري ، ريموند ليعود إلى وسط الشام حتى يكمل مشاريعه الصليبية ، والروبرتان كى يعودا إلى بلادهما . انظر :

Radulf of Caen, op. cit., p. 703; Albert d'Aix, op. cit., pp. 497 - 498.

أما مسألة إرتداد هذا التركي عن الاسلام فهي نهاية تتفق مع مبلغ السعادة الذى عبرت عنه جملة الناسخ التى أنهى بها تاريخ ريمونداجيل بعد أن أدرك فقدان الجزء الأخير منه . وقد أشرنا من قبل إلى بعض التحفظات حول ماورده ريمونداجيل عن إرتداد بعض الأفسراد عن الدين الاسلامى الحنيف . انظر ماسبق ، الفصل الثانى ، حاشية رقم (١١) .

(الترجمة العربية) .

تسعين أهم الأحداث التاريخية

- حوالى ١.٤١ - ١.٤٢ م . مولد ريموند سانجيل .
- ١٥ أغسطس ١.٩٥ م . إجتماع البابا أوربان وأدهيمار أسقف لى بويه فى نوتردام لى بويه .
- ٢٧ نوفمبر ١.٩٥ م . أوربان الثانى يعلن قيام الحملة الصليبية الأولى .
- ٢٨ نوفمبر ١.٩٥ م . سفراء ريموند سانجيل يعلنون قبول سيدهم لحمل الصليب (الاشتراك فى الحملة) .
- ١٢ يوليو ١.٩٦ م . ريموند سانجيل يتنازل عن جزء من أملاكه لصالح كنيسة سانجيل فى حضور البابا أوربان الثانى .
- أكتوبر ١.٩٦ م . رحيل القوات البروفنسالية إلى الشرق .
- يناير ١.٩٦ م . المعاهدة بين البروفنساليين وبودين فى سكوتارى .
- منتصف فبراير ١.٩٧ م . البجناك يختطفون أدهيمار .
- ١٢ أبريل ١.٩٧ م . هجوم البروفنساليين على روسا .
- ١٨ أبريل ١.٩٧ م . وصول رسل الكسيس إلى رودستو .
- ٢. أبريل ١.٩٧ م . المناوشات بين البروفنساليين والقوات البيزنطية .
- ٢٢ - ٢٦ أبريل ١.٩٧ م . المحادثات بين ريموند كونت سانجيل والكسيس كومنين .
- ١. مايو ١.٩٧ م . ريموند يرحل عن القسطنطينية .
- ١٤ مايو ١.٩٧ م . بداية حصار نيقية .
- ١٦ مايو ١.٩٧ م . وصول القوات البروفنسالية إلى نيقية .
- ١. يونية ١.٩٧ م . تقويض برج جونانتس .
- ١٩ يونية ١.٩٧ م . إستسلام نيقية .
- ٢٨ يونية ١.٩٧ م . رحيل القوات البروفنسالية عن نيقية .
- أول يوليو - ٢. أكتوبر ١.٩٧ م . معركة دوريليوم والرحيل إلى أنطاكية .
- ٥ أغسطس ١.٩٧ م . مرض ريموند كونت سانجيل .

- ٢ - ٢٢ أكتوبر ١٠٩٧ م . بداية حصار الصليبيين لأنطاكية .
- ١٧ نوفمبر ١٠٩٧ م . وصول السفن الجنوية إلى ميناء السويدية .
- ٢٩ ديسمبر ١٠٩٧ م . هجوم قوات ياغى سيان على المعسكر الصليبي .
- ٢ يناير ١٠٩٨ م . أدهيمار يأمر الفرنج بالصيام وإخراج الصدقات .
- ٩ فبراير ١٠٩٨ م . هزيمة قوات رضوان ملك حلب ووصول سفارة الأفضل إلى المعسكر الصليبي خارج أنطاكية .
- ٤ مارس ١٠٩٨ م . وصول أسطول بقيادة إدجار إثلنج .
- ٢٠ مارس ١٠٩٨ م . إتمام بناء قلعة المنير .
- ٥ أبريل ١٠٩٨ م . إجتماع الصليبيين لتشييد قلعة فى موضع دير القديس جورج .
- ٢٥ مايو ١٠٩٨ م . إقتراح بوهيمند بأن تؤول أنطاكية لمن يضع يده عليها .
- ٢٩ مايو ١٠٩٨ م . الأمراء الصليبيون يعقدون مجلساً للإتفاق مع بوهيمند .
- ٢ يونية ١٠٩٨ م . بوهيمند يكشف عن خطته للإستيلاء على أنطاكية بمساعدة فيروز .
- ٣ يونية ١٠٩٨ م . سقوط أنطاكية فى أيدى الصليبيين .
- ٢٨ يونية ١٠٩٨ م . هزيمة كروغا .
- ٣ يوليو ١٠٩٨ م . مجلس الأمراء الصليبيين يؤجل الرحيل إلى بيت المقدس .
- أول أغسطس ١٠٩٨ م . موت أدهيمار .
- ١٤ سبتمبر ١٠٩٨ م . مساعدة ريموند كونت سالنجيل لجودفري عند عزاز .
- أكتوبر ١٠٩٨ م . البروفنساليون يستولون على البارة .
- ٥ نوفمبر ١٠٩٨ م . إجتماع الصليبيين فى كنيسة القديس بطرس فى أنطاكية .
- ١١ - ١٢ ديسمبر ١٠٩٨ م . الاستيلاء على معرة النعمان .
- ٢٩ ديسمبر ١٠٩٨ م . إجتماع بوهيمند وريموند سالنجيل .

- ٤ يناير ١٠٩٩ م . إجتماع الأمراء الصليبيين لمناقشة استئناف المسير إلى بيت المقدس .
- ١٣ يناير ١٠٩٩ م . رحيل ريموند من معرة النعمان .
- ٢٥ يناير ١٠٩٩ م . وقوع الصليبيين في كمين .
- ٤ فبراير ١٠٩٩ م . استقبال سفراء أتابك حمص وأمير طرابلس .
- ١٤ فبراير - ١٣ مايو ١٠٩٩ م . حصار عرقه .
- ٨ أبريل ١٠٩٩ م . إختبار الحرية المقدسة .
- ١ - ١١ أبريل ١٠٩٩ م . سفراء ألكسيس يعترضون على استيلاء بوهيمند على أنطاكية .
- ١٦ مايو ١٠٩٩ م . رحيل الصليبيين عن طرابلس .
- ٣ يونية ١٠٩٩ م . الفرنج يدخلون الرملة .
- ٧ يونية ١٠٩٩ م . إقتراب الصليبيين من بيت المقدس .
- ٩ يونية ١٠٩٩ م . ريموند بيليه وريموند أوف تورين يقومون بغارة ناجحة .
- ١٧ يونية ١٠٩٩ م . وصول السفن الجنوية إلى يافا .
- ٨ يوليو ١٠٩٩ م . موكب الفرنج حول أسوار بيت المقدس .
- ١٣ - ١٥ يوليو ١٠٩٩ م . الهجوم النهائي والاستيلاء على بيت المقدس .
- ٢٢ يوليو ١٠٩٩ م . إنتخاب جودفري .
- ٢٨ يوليو ١٠٩٩ م . رحيل ريموند سانجيل عن بيت المقدس .
- ١٤ أغسطس ١٠٩٩ م . معركة عسقلان .

المصادر والمراجع

التي اعتمدت عليها الترجمة العربية في المقدمة والتعليق

بيان بالاختصارات التي وردت في مقدمة وموامش الترجمة العربية

- A. B. - Analecta Bolandiana.
- A. O. L. - Les Archives de L'Orient Latin.
- A. H. R. - American Historical Review.
- A. R. A. H. A. - Annual Reports of The American Historical Association.
- B. - Byzantion.
- B. E. O. - Bulletin des Etudes Orientale.
- B. I. H. R. - Bulletin of the Institute of Historical Research.
- B. P. I. A. S. A. - Bulletin of the Polish Institute of Arts and Science in America.
- B. S. O. A. S. - Bulletin of School of Oriental and African Studies.
- C. E. - Collier's Encyclopedia.
- Ch. H. - Church History.
- J. S. - Journal des Savants.
- Latomus - Latomus.
- M. S. - Medieval studies.
- R. H. C. - H. Occ. - Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux.
- R. H. E. - Revue d'Histoire Ecclesiastique.
- R. H. G. F. - Recueil des Historiens des Gaules et de la France.
- R. O. L. - Revue de L'Orient Latin.

R. S.	- Rolls Series.
S. E.	- Sacri Erudiri.
S. M.	- Studia Medivalia.
S. M. C.	- Studies in Medieval Culture.
Speculum	- Speculum.
Traditio	- Traditio.

أولاً : المصادر

(١) المصادر الأصلية الأوروبية

- Albert d'Aix, *Historia Hierosolymitana*, in R.H.C. - H. Occ., Vol. IV.
- Anne Comnen, *The Alexiad*, English trans. by Elezabth Dawes, London, 1928.
- Anonymi, *Gesta Francorum et Aliorum Hierosolymitanorum* (ed. by Rosalind Hill. as *The Deeds of The Franks and The Other Pilgrims to Jerusalem*), London, 1962.
- Beshada (Gregory), *Chanson d'Antioche en Provençal*, French trans. by P. Meyer, in A. O. L., Vol. 1.
- *Epistolae et Chartae ad historiam primi belli Spectantes*, in *Die kreuzzugabriefe*, ed. H. Hagenmeyer, Insbruck, 1901.
- *Epistolae Regis Ludovici VII*, in R. H. G. F., Vol. 16.
- Fulcher of Chartres, *Gesta Francorum Iherosolem* (ed. by Frances Rita Rayan, as *A History of the Expedition to Jerusalem*), Tennessee, 1969.
- *Monitum in Balduini III Historiae vel Antiochenae Prologum*, in R. H. C. - H. Occ., Vol. v.
- Radulph of Caen, *Gesta Tancredi Siciliae Regis in Expeditione Hierosolymitana*, in R. H. C. - H. Occ., Vol. III.
- Raimond d'Agiles, *Historia Francorum qui Ceperunt Jerusalem*, in R.H.C. - H. Occ., Vol. III.
- Robert le Moine, *Historia Hierosolymitana*, in R.H.C. - H. Occ., Vol. III.
- Tudebod, *De Hierosolymitano Itinere*, in R.H.C. - H. Occ., Vol. III.

- Vitalis (Ordric), *Historia Ecclesiastica*, ed. M. Chibnall, 6 vols, Oxford, 1975.
 - Walter The Chancellor, *Bella Antiochena*, in R.H.C. - H. Occ., Vol. V.
 - William of Malmesbury, *Gesta Regum Anglorum*, 2 vols, ed. W. Stubbs, in R. S., London, 1889.
 - William of Tyre, *A History of Deeds Done Beyond the Sea*, 2 Vols., trans and annotated by Emily Babcock and A. C. Krey, New York, 1943.
-

(ب) المصادر العربية

- ابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م) أبو الحسن بن أبي الكرم الملقب عز الدين :
« الكامل في التاريخ » - ١٢ ج - القاهرة (المطبعة الأزهرية) ١٣٠١ هـ .
- ابن العديم (ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م) كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جراحة :
« زبدة الحلب من تاريخ حلب » - ٣ ج - تحقيق سامي الدهان - دمشق ، ١٩٥١ م .
- ابن القلاسي (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) أبو يعلى حمزة بن أسد الدين على بن محمد :
« ذيل تاريخ دمشق » - بيروت (مطبعة الآباء اليسوعيين) ١٩٠٨ م .
- ابن واصل (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م) جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم :
« مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » - ٣ ج - تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال - القاهرة ١٩٦٠ م .
- أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) الملك المؤيد عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن على :
« تقويم البلدان » - نشره رينو وديسلان - باريس ١٨٤٠ م .
- الطرطوسي (عاش في القرن ٦ هـ / ١٢ م) مرضى بن على :
« تبصرة ألباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء » - نشره مع ترجمة فرنسية ، كلود كاهن : انظر :

Cahen (Claud), Un Traité D'Armurerie Composé pour Saladin, in B. E. O.,
1947 - 1948, pp. 103 - 163.

- القلقشندى (ت ٨٢ هـ / ١٤١٨ م) أحمد بن على بن أحمد بن عبد الله :
« صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » - ١٤ ج - القاهرة ، ١٩١٣ - ١٩٣٣ م .
- ياقوت الرومى الحميرى (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) أبو عبد الله
ياقوت بن عبد الله الملقب شهاب الدين :
« معجم البلدان » - ٤ ج - ليبزج ١٨٦٦ - ١٨٧٠ م .

(ج) المراجع الثانوية الأوربية

- Brundage (James), An errant Crusader, stephen of Blois, in Traditio, Vol. 16, 1959.
- Cahen (Claud), La Syrie du Nord a l'Epoque des Croisades et la principaute Franque Antioche, Paris, 1940.
- Chalandon (F.), Histoire de la Première Croisade, Paris, 1925.
- Charanis (Peter), Aims of The Medieval Crusades and how they were viewed by Byzantium, in Ch. H., vol - 21, 1952.
- Davis (R. H. C.), William of Tyre, in Relation between East and West in the Middle Ages, ed. by Derek Baker, Edinburgh, 1973, pp. 64 - 76.
- Duc De Castries, La Conquête de la Terre Sainte par Les Croisés, Paris, 1973.
- Edbury (Peter) and Rowe (J.G.), William of Tyre and the Patriarcal election of 1180, in E. H. R., vol. 366, 1978.
- Ehrentreutz (A. S.), Arabic Dinars struck by the Crusaders, in J. E. S. H. O., 1964.
- Fink (H.), Fulcher of Chartres. Historian of the Latin Kingdom of Jerusalem, in S. M., vol. 5, 1975.
- France (J.), The departure of Tatikos from the Crusader Army, in B.J.H.R., vol. 44, no. 110, 1971.
- Glaesner (H.), Raoul de Caen, Historien et Ecrivain, in R.H.E., vol. 46, 1951.
- Gransden (A.), Historical Writing in England (550 - 1307), 2 Vols, London, 1974.
- Gutstein (M.), Maccabees, in C. E., vol. 15, New York, 1984.

- Hagenmeyer (H.), Die Kreuzzugsbriefe, Innsbruck, 1901.
- Hamilton (B.), The Latin Church in the Crusader States, The Secular Church, London, 1980.
- Haskins (C. H.), The Normans in European History, Cambridge, 1915.
- Hill (John H. and Laurita L.), Raymond IV de Saint Gilles, Toulouse, 1959.
- Huygens (R. B. C.), Guillaume de Tyre Etudiant, Un Chapitre (XIX. 12) de son " Histoire ", retrouvé, in Latomus, vol. 21, 1962.
- Editing of William of Tyre, in S. E., vol. 27, 1984.
- Krey (A. C.), William of Tyre, The Making of An Historian in the Middle Ages, in Speculum, vol. 15, no. 2, 1941.
- La Mont (J. L.), From Crusading Kingdom to Commercial Colony, in B.P.I.A.S.A, vol. 3, 1944 - 45.
- Lepez (R. S.), Back to Gold, in E.H.R., vol. 9, 1957.
- Munro (Dana), The Speech of Pope Urban II at Clermont, in A.H.R., vol. XI, 1906.
- Nesbitt (J. W.), The rate of march of Crusading Armies in Europe, in Traditio, vol. 19, 1963.
- Oman (Ch.), A History of the Art of war in the Middle Ages, 2 vols, London, 1924.
- Ostrogorsky (G.), History of the Byzantine State, English trans. by Joan Hussey, Oxford, 1924.
- Prawer (J.), The Latin Kingdom of Jerusalem, Jerusalem, 1972.
- Rey (E. G.), Résumé de Histoire des Princes d'Antioche, in R.O.L., vol. VIII, Paris, 1900 - 1901.
- Les Seigneurs de Giblest, in R.D.L., vol. 3, Paris, 1906.

- Richard (J.), Raymond d'Aguilers, Historien de La Première Croisade, in J.S., 1971.
 - Riley - Smith (J.), A Note on Confraternities in Latin Kingdom of Jerusalem, in B. I. H. R., vol. 44, 1971.
 - Runciman (steven), -- The First Crusaders' Journey across The Balkan Peninsula, in B., vol. 18, 1948.
 - The Holy Lance Found at Antioch, in A.B., vol. 88, 1950.
 - A History of the Crusades, 3 vols, Cambridge, 1968.
 - Thatcher (O.), Critical work on the sources of The First Crusade, in A. R. A. H. A., vol. 1, 1900.
 - Vessey (D.W.C.), William of Tyre and the art of Historiography, in M. S., vol. 35, 1973.
-

(د) المراجع العربية والمعربة

- السيد الباز العرنى (دكتور) :
« مؤرخو الحروب الصليبية » ، القاهرة ، ١٩٦٢ م .
- السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :
« التاريخ والمؤرخون العرب » ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ م .
- جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :
 - العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى ، الاسكندرية ١٩٦٧ م .
 - الإسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما فى العصور الوسطى ،
الاسكندرية ، ١٩٨٦ .
- جيبون (إدوارد) :
« إضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » نقله إلى العربية لويس
إسكندر ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٦٩ م .
- حسين محمد عطية (دكتور) :
 - إمارة أنطاكية الصليبية وعلاقاتها السياسية بالدول الإسلامية المجاورة
(١٠٩٨ - ١١٧١ م) ، رسالة ماجستير لم تشر بعد ، الاسكندرية ،
١٩٨١ م .
 - إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون (١١٧١ - ١٢٦٨ م) ، الاسكندرية
١٩٨٩ م .
- رأفت عبد الحميد محمد (دكتور) :
« الدولة والكنيسة » - ج ٤ - القاهرة ١٩٨٣ م .
- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :
- قبرس والحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٧٥ م .

- شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ١٦ ، القاهرة ١٩٦٩ م .
 - الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٧٥ م .
 - محمد محمد مرسى الشيخ (دكتور) :
 - الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها (١٠٩٧ - ١١٤٤ م) الاسكندرية ، ١٩٧٢ م .
 - الإمارات العربية في بلاد الشام في القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين ، الطبعة الأولى ، الاسكندرية ، ١٩٨٠ م .
 - ناصر النقشبندى (دكتور) :
 - الدينار الاسلامى ، مجلة سومر ، ج ٢ ، بغداد ١٩٤٥ م .
-

قائمة مصادر ومراجع الترجمة الإنجليزية

أ - المخطوطات

- MS. Latin 14,378, Bibliothèque Nationale, Paris.
MS. Latin 5131, Bibliothèque Nationale, Paris.
MS. Latin 5511 A, Bibliothèque Nationale, Paris.
MS. Latin 1102, Bibliothèque de l'Arsenal, Paris.
MS. Latin Add. 8927, British Museum, London.
MS. Latin 262, Bibliothèque de la ville, Clermont-Ferrand.
MS. Latin 261, Burgerbibliothek, Berne.

ب - المصادر

- Acta Sancti Brendani, edited by Patrick F. Moran (Dublin, 1872).
Acta sanctorum quotque toto orbe coluntur, vel a Catholicis scriptoribus celebrantur (Antwerp, Paris, Rome, Brussels, 1643-1940).
The Alexiad of the Princess Anna Comnena, translated by Elizabeth A.S.Dawes (London, 1928).
Albertus Aquensis, Historia Hierosolymitana in Recueil des historien des croisades: historiens occidentaux 4 (Paris, 1879).
Hereafter cited RHC Occ.2
Anonymi gesta Francorum et aliorum Hierosolimitanorum, edited by Heinrich Hagenmeyer (Heidelberg, 1890).
Breviarium Romanum (4 v. Ratisbona, 1923).
COMNENA, ANNA. 1937-1945. Alexiade, Règne de l'empereur Alexis I Comnène (1081-1118). edited by B. L. Leib in Collection byzantine de l'Association Guillaume Bude (Paris).
La Chanson d'Antioche, edited by Paulin Paris (2 v. Paris, 1848).
Fulcherius Carnotensis, Historia Hierosolymitana. Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium in RHC Occ 3 (Paris, 1866).

- ____ *Historia Hierosolymitana. Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium*, edited by Heinrich Hagenmeyer (Heidelberg, 1913).
- The Golden Legend of Jacobus de l'oragine*, translated by G. Ryan and H. Ripperger, 1 (New York, 1941).
- HAGENMEYER, HEINRICH. 1901. *Die Kreuzzugsbricfe aus den Jahren 1088-1100* (Innsbruck).
- Histoire anonyme de la première croisade*, edited and translated by Louis Bréhier (Paris, 1924).
- KREY, A. C. 1958. *The First Crusade* (Cloucester).
- Patrologiae cursus completus: Series Latina*, edited by J. P. Migne (Paris, 1844-1864). Hereafter cited as MPL.
- Patrologiae Orientalis*, edited by R. Graffin and F. Nau (Paris, 1907).
- Notitiae duae Lemovicensis de Praedicatione crucis in Aquitania in RHC Occ 5* (paris, 1895).
- Radulphus Cadomensis, Gesta Tancredi in expeditione Hierosolymitana in RHC Occ 3* (Paris, 1866).
- Raimundus de Aguilers, Historia Fran Corum qui ceperunt Iherusalem in RHC Occ 3* (Paris, 1866).
- Rituale Eeelesiae Dunelmensis*, edited by J. Stevenson, in *Surtees Society* 10 (London, 1839).
- THORPE, BENJAMIN, editor and translator. 1844-1846. *The Homilies of the Anglosaxon Church* (2 v. London).
- Tudebodus, Petrus, Historia de Hierosolymitano itinere in RHC Occ 3* (Paris. 1866).
- Willelmus Tyrensis archiepiscopus, Historia rerun in partibus transmarinis gestarum in RHC Occ 1* (Paris, 1844).
- William of Tyre, *A History of Deeds Done Beyond the Seas*,

translated by E.A. Babcock and A. C. Krcy (New York, 1943).

ج - المراجع

ALPHANDÉRY, P, and A. DUPRONT. 1954. *La chrétienté et Idée de croisade* (Paris).

ANDRESSOHN, J. C. 1947. *The Ancestry and Life of Godfrey of Bouillon* (Bloomington).

ARBELLOT, ABBÉ. 1881. *Les Chevaliers Limousins à la première croisade* (Paris).

ATIYA, A. S. 1962. *The Crusade: Historiography and Bibliography* (Bloomington).

BALDWIN, MARSHALL W. 1940. "Some Recent Interpretations of Pope Urban's Eastern Policy". *Catholic Hist. Rev.* 25.

BRUNDAGE, JAMES A. 1959. "Adhémar of Puy. The Bishop and His Critics", *Speculum* 24.

_____. 1960. "An Errant Crusader: Stephen of Blois," *Tradition* 16

_____. 1964. "Recent Crusade Historiography: Some Observations and Suggestions". *Catholic Hist. Rev.* 49.

CASTAING-SICARD, MIRELLE, 1961. *Monnaies féodales et circulation monétaire en Languedoc (X-XIII siècles)* in *Cahiers de l'association Marc Bloch de Toulouse, études d'histoire méridionale* (Toulouse).

DALY, WILLIAM. 1960. "Christian Fraternity, the Crusaders, and the Security of Constantinople, 1097-1204: The Precarious Survival of an Ideal". *Mediaeval Studies* 22.

DAVID, CHARLES W. 1920. *Robert Curthose, Duke of Normandy* (Cambridge).

DESHAMPS, PAUL. 1934. *Les Châteaux des croisés en Terre*

- Sainte: le Crac des Chevaliers (Paris).
- DEVIC, DOM, CL..., and DOM. J. VAISSETE. 1872-1893. Histoire générale de Languedoc (15 v., Toulouse).
- DUNCALF, FREDERIC. 1928. "The Pope's Plan for the First Crusade". The Crusades and Other Historical Essays Presented to Dana C. Munro (New York).
- DUSSAUDm RENÉ. 1927. Topographie historique de la Syrie antique et médiévale (Paris).
- ERDMANN, C. 1935. Die Entstehung des Kreuzzugsgedankens (Stuttgart).
- FINK, HAROLD S. 1959. "The Role of Damascus in the History of the Crusades". The Muslim World 49.
- GAUSSIN, PIERRE-ROGER. 1960. L'Abbaye de la Chaise-Dieu (1043-1518) (Paris).
- GOLB, NORMAN. 1966. "New Light on the Persecution of French Jews at the Time of the First Crusade"> Proc. Amer. Acad. Jewish Research 34.
- GROUSSET, RENÉ. 1934-1936. Histoire des croisades et du royaume franc de Jerusalem (3 v., Paris).
- HAGENMEYER, HEINRICH. 1902-1911. "Chronologie de la première croisade, 1094-1100". Revue de l'Orient latin 6-8.
- _____. 1876. Peter der Eremit. Ein Kritischer Beitrag zur Geschichte des ersten Kreuzzuges (Leipzig).
- HERMANNSON, HALLD'OR. 1936. "The Problem of Wineland". Islandica 25.
- HILL, JOHN HUGH, 1951, "Raymond of Saint-Gilles in Urban's Plan of Greek and Latin Friendship". Speculum 26.
- HILL, JOHN HUGH and LAURITA L. 1953. "The Convention of Alexius Comnenus and Raymond of Saint-Gilles". Amer. Hist.

Rev. 58.

HILL, JOHN HUGH and LAURITA L. 1954. "Justification historique du titre de Raymond de Saint-Gilles: 'Christianus milicie excellentissimus princeps' ". *Annales du Midi* 66.

HILL, JOHN HUGH and LAURITA L. 1955. "Contemporary Accounts and the Later Reputation of Adhémar, Bishop of Puy". *Medievalia et Humanistica* 9.

HILL, JOHN HUGH and LAURITA L. 1959. Raymond IV de Saint-Gilles 1041 (ou 1042)-1105. *Bibliothèque Méridionale, Série historique* 35 (Toulouse).

HILL, JOHN HUGH and LAURITA L. 1960. L'Allégorie chrétienne dans les récits relatifs au Wineland". *Le Moyen Age* n,1-2.

HILL, JOHN HUGH and LAURITA L. 1962, Raymond IV, Count of Toulouse (Syracuse).

HOWORTH, SIR HENRY H. 1912. Saint Gregory the Great (London).

JAURGAIN, JEAN DE. 1902. La Vasconie, étude historique et critique sur les origines du royaume de Navarre, du duché de Gascogne, des comtés de Comminges d'Aragon, de Foix, de Bigorre, d'Alava et de Biscaye, de la vicomté de Béarn et des grand fiefs du duché de Gascogne 2 (Pau).

KLEIN, CLEMENS, 1892. Raimond von A guilers, Quellenstudie zur Geschichte des ersten Kreuzzuges (Berlin).

KNAPPEN, MARSHALL, M. 1928. "Robert II of Flanders in the First Crusade". *The Crusades and other Historical Essays Presented to Dana C. Munro* (New York).

KREY, A. C. 1958. *The First Crusade* (Clouester).

_____ 1948. "Urban's Crusade__ Success or Failure". *Amer. Hist.*

Rev. 53.

LA MONTE, JOHN L. 1940. "Some Problems in Crusading Historiography". *Speculum* 15.

LEA, H. C. 1892. *Superstition and Force* (Philadelphia).

MAURY, ALFRED. 1896. *Croyances et légendes du Moyen Age* (Paris).

MAYER, HANS EBERHARD. 1960. *Bibliographie zur Geschichte der Kreuzzuge* (Hannover).

____ 1960, "Zur Beurteilung Adhemars von Le Puy". *Deutsches Archiv* n. 2.

MUNRO, DANA C. 1906. "The Speech of Pope Urban II at Clermont, 1095". *Amer. Hist. Rev.* 11.

NICHOLSON, ROBERT LAWRENCE. 1940. *Tancred: A Study of His Career and Work in Their Relation to the First Crusade and the Establishment of the Latin States in Syria and Palestine* (Chicago).

PAPON, JEAN-PIERRE. 1778, *Historire générale de Provence* 2 (Paris).

PORGES, WALTER, 1946. "The Clergy , the Poor, and the Non-Combatants on the First Crusade". *Speculum* 21.

RÉAU, LOUIS. 1955. *Iconographie de l'art Chrétien* (Paris).

REY, EDOUARD G> 1869. *Les Familles d'outre-mer, de du Cange* (Paris).

RIANT, PAUL. 1881. "Inventaire critique des lettres historiques des croisades". *Archives de l'Orient Latin* 1.

ROUSSET,P. 1945. *Les Origines et les caractères de la première croisade* (Neuchâtel).

RUNCIMAN, STEVEN, 1951. *A History of the Crusades* 1 (Cambridge).

____ 1950. "The Holy Lance Found at Antioch". *Analecta Bollandiana* 68.

SETTON, KENNETH, M. 1955. *A History of the First Crusade, The First Hundred Years 1* (ed. Marshall Baldwin, Philadelphia).

SMAIL, R. C. 1956. *Crusading Warfare (1097-1193). A Contribution to Medieval Military History* (Cambridge).

SUMBERG, L. A. M. 1959. "The Tafurs' and the First Crusade". *Medieval Studies* 21.

TEYSSÉDRE, BERNARD. 1959. *Le Sacramentaire de Gellone* (Toulouse).

VILLEY, M. 1942. *La Croisade. Essai sur la formation d'une théorie juridique* (Paris).

WILLARD, RUDOLPH. 1935. Two Apocrypha in Old English Homilies in *Beiträge zur Englischen Philologie* 30.

YEWDAL, RALPH BAILEY, 1917. *Bohemond 1, Prince of Antioch (Prinection)*.

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
تقديم بقلم الاستاذ الدكتور / جوزيف نسيم يوسف	٧ - ١٠
تصدير الترجمة العربية	١١ - ١٣
مقدمة الترجمة العربية :	١٥ - ٣٤
- الحملة الصليبية الأولى	١٥ - ٢٢
- الإنجاز الأدبي للحملة الصليبية الأولى	٢٢ - ٢٩
٢- ريمونداجيل وكتابه	٣٠ - ٣٤
مقدمة الترجمة الإنجليزية	٣٥ - ٥٣
➤ الفصل الأول : الرحلة خلال دماشيا وخيانة البيزنطيين	٥٤ - ٦٦
الفصل الثاني : الرحلة عبر الأراضي البيزنطية ، والعلاقات بين ريموند سانجيل وألكسيس كومنين	٦٩ - ٧٦
- الفصل الثالث : حصار نيقية وعبور الأناضول	٧٧ - ٨٤
- الفصل الرابع : إغلاق الطرق وبداية حصار أنطاكية	٨٥ - ١٠٠
الفصل الخامس : المرحلة المتأخرة في حصار أنطاكية . تشديد الحصار	١٠٣ - ١١٧
الفصل السادس : الإستيلاء على أنطاكية	١١٩ - ١٢٦
الفصل السابع : حصار كربوغا لأنطاكية والعثور على الحرية المقدسة	١٢٧ - ١٣٩
الفصل الثامن : هزيمة كربوغا	١٤١ - ١٥٠
الفصل التاسع : موت أدهيمار ، والإبلاغ عن رؤى	١٥١ - ١٦١
الفصل العاشر : الإستيلاء على البارة ومعرة النعمان	١٦٣ - ١٧٩
الفصل الحادي عشر : إستئناف الزحف ، وبداية حصار عرقة	١٨١ - ١٩٥
الفصل الثاني عشر : رؤى ومحنة الحرية المقدسة	١٩٧ - ٢١٣
الفصل الثالث عشر : التخلي عن حصار عرقة ، واستئناف الرحلة إلى بيت المقدس	٢١٥ - ٢٣٣
الفصل الرابع عشر : حصار مدينة بيت المقدس والإستيلاء عليها	٢٣٥ - ٢٥٥
الفصل الخامس عشر : الأحداث التي تلت سقوط بيت المقدس ، ومعركة عسقلان	٢٥٧ - ٢٦٨
تسنين أهم الأحداث التاريخية	٢٦٩ - ٣٧١

فهرست الخرائط

- خريطة رقم (١) : خط سير القوات البروفنسالية حتى أنطاكية ٦٧
- خريطة رقم (٢) : الصليبيون في بلاد الشام وفلسطين ١٠١
- قائمة المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها الترجمة العربية في ٢٧٣ - ٢٨٦ المقدمة والتعليق
- قائمة مصادر ومراجع الترجمة الإنجليزية ٢٨٧ - ٢٩٤
- محتويات الكتاب ٢٩٥ - ٢٩٧



رقم الإيداع بدار الكتب .

١٩٨٩ / ٨٥٦.





